لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

الدكتور
محمد أحمد خلف الله

صاحب الأغاني
أبو الفرج الأصفهاني الراوية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
١٨ شارع كامل صدقي « الفجالة »

مطبعة نهضة مصر

الدكتور
محمد أحمد خلف الله

صاحب الأغاني
أبو الفرج الأصفهاني الراوية

الطبعة الأولى
١٩٥٣

ماتزم الطبع النشر
مكتبة نهضة مصر

مطبعة نهضة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الأستاذ أمين الخولى

هذه كلمة ليست من التقريظ القديم ، ولا من التزكية الحديثة ، التى يلتمسها صاحب مطبوع ليتأثر بها قارئه ، أو بعبارة أصرح ، ليتأثر بها مشتريه ! !

ولن تكون كذلك ، لأن القلم العريان ، الذى كتبها لا يحسن أن يستر نفسه ، فى هذا السبيل . . ولأن من كتبت عنه قد مرنته الأحداث ، على ألا يكوِّن رأيه فى نفسه ، من رأى الناس فيه .

فستكون هذه الكلمة شيئا من التحليل ، إلى جانبه شىء من التأريخ . . وهذا كل ما يمكن أن تكونه . .

* * *

وأصحاب الأخلاق ، حين يتعرضون لشىء من الحكم الخلقى ، يعنيهم التفريق بين الحكم على العمل ، والحكم على العامل . . ولا يختلط عليهم الأمر فى شىء من ذلك .

وأصحاب التقدير الفنى ، الواعى ، اليوم ، يعمدون إلى فهم الأثر الفنى ، عن طريق فهمهم لصاحبه ، نفسيا واجتماعيا ، كما يعدون الأثر الفنى نفسه وسيلة لاستكمال الفهم لشخصية صاحبه . . ولا يرون قيمة للنقد الفنى ـ بعامة ـ أو النقد الأدبى ـ بخاصة ـ إذا لم يقم على هذا الأساس ، من التفاعل بين الأثر وصاحب الأثر . .

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الخير حين نعمد إلى شىء من التقدير

لهذا الدرس ، عن « ابى الفرج الأصفهانى » ، أن نحدث عن العمل والعامل ، وننظر إلى المؤلف والتأليف .

وهذا المؤلف ، أو الدارس — بعبارة أصح عند أصحاب الغد — من الشبان ، الذين جمعتنى بهم أواصر المعرفة المتعاونة ، سنوات طوالا ، فى اجتماعات خاصة ، وفى مجالس الدرس العامة ، وفى الرحلة المتعلمة ، وفى الزيارة المتوادّة ، . وفى مناسبات متنوعة .

وكانت سنوات هذه الصلة بالدكتور « محمد خلف الله » أطول من مثلها فى حياة سائر أصدقائى ، من أصحاب الغد ، لظروف عملية ، من الشدائد المعلِّمة ، اختبرت فيها الأيام تلك الصلة ، بل فتلتها ، كما تفتن النار الذهب ، على حد التعبير المعروف . . فتكشف لكل منا من أمر صاحبه ما يجعله أدق معرفة ، وأصل حكما ، وأصح قولا .

والقارىء المتصل بجو الحياة الفكرية ، خلال البضع السنوات الأخيرة ، يعرف من تلك الظروف ما لا يحتاج معه إلى شرح ؛ ويعرف حادث رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ، وما اتصل بها من أحداث عقلية ، وخلقية ، واجتماعية ، صارت اليوم من حق التاريخ العقلى ، لمصر الحديثة ، الذى يترفع عن أن يقود أحد خطاه ، أو يوجهه وجهة ما ، فى تدوين هذه الصفحة من تاريخ الحياة الفكرية ، والحرية العقلية ، فى مصر والشرق الأوسط . وإن كان من واجبنا — بلا مراء — أن نسلمه الوثائق الرسمية ، عن هذه الأحداث ، ليصدر فى نزاهة سامية ، حكمه الأخلد من حكم أى سلطة ، تحمى حقا فى الأرض ، أو تقيم عدلا . . .

ولا ينتظر القارىء أن يسمع منى هنا كلمة ما عن شخص أو شىء يتصل بهذا الحدث الأكبر . . وإنما أشرت إليه فى كلامى عن الدارس

«الدكتور محمد خلف الله» ، لأشير إلى نتائج امتحان الجامعية فى هذا الدارس . ثم امتحان الجامعية بهذا الدارس ..

فقد كشف امتحان الجامعية فيه عن شاب يؤمن بالعلم ، فى هذا العصر ، و يطلب تفسير ذلك العلم لظواهر الحياة ، فنية أو غيرها ، ويوجه درسه الأدبى إلى هذه التفسيرات الجادة ..

والإيمان بالعلم هو كل الفرق ، بين شباب الغرب ، وشباب الشرق . . وهو جملة مايتميز به الغرب ، حين يجد ويتقدم .. ولا يسلم للشرق فيعبث ، ويتردد ، ويتوقف . . أو يجمد ...

وإيمان « خلف الله » بالعلم ، هو الذى يجعله يؤمن بأن التطور والتدرج هو الناموس ، الذى يسود الحياة ويضبطها ، فيؤمن بما عليه من واجب ، فى أن يدفع الدرس الأدبى شبرا ، أو فترا ، أو إصبعا ، إلى الأمام .

ولكل أولئك اقتحم هذا الدارس ما اقتحم ، فى دراسته العليا ، من النواحى الفنية ، يلتمس لها التفسير العلمى ، الذى تعين عليه ثقافة العصر ، والذى لا تأنف منه المعرفة الإنسانيه الناهضة اليوم .. و يبغى بذلك كله ، أن يقول شيئا يصحح خطأ ، أو يفسر مبهما ، أو يزيل حيرة . . وليس كل ذلك وما إليه إلاما قصدته الجامعية ، حين شرطت ، فى الدراسات العليا لأبنائها : أن تفيد العلم فائدة محققة ! !

وما قيمة الإيمان بالعلم ، والإيمان بنواميسه ، فى تسيير الحياة إلا فى أن يدفع هذا الإيمان صاحبه إلى أداء واجبه الاجتماعى ، بإزاء ما يتكشف له من حقائق العلم ، وصحاح النواميس ، . وما الواجب الاجتماعى عليه ، والحق للحياة عنده ، إلا أن يعالن الناس بما عرف ، ويكشف لهم عنه . بدعوة

مؤمنة . لا يثودها شيء فى هذا السبيل ، ولا تصدها عنه صعوبة ، حتى تأخذ الحياة به ، وتضمه إلى تراثها ، وتتمثله فى سيرها . ثم تتقدم إلى شيء جديد بعده .

وفى سبيل هذا الواجب ناضل « خلف الله » ، وأوذى . . . فاحتمل ، وصبر . وإن يدم ذلك سنوات ليست بالقصيرة ، فى حياة الفرد ، ولكنها ليست بالطويلة أيضا فى حياة الأمـــة . . فإذا كانت قد كفرت به رجعية عامية ، أو جامعية زائفة فإنه ما لبثت أن آمنت به خاصة مستنيرة ، قدّرت عمله ، وقضت له ، ولدى الزمن من التقدير ما هو أدق منهجا ، وأطول عمرا . . وكذلك كان امتحان الجامعية فيه خيرا ، كفّر عن شرور ، كشفها امتحان الجامعية به ، .. وتلك هى التى نعف ونعنى أنفسنا من ذكرها أو وصفها ، ونترك للتاريخ الحر أن يقول فيها ، مالا نحرّج معه ، ولا حياء فيه . .

وحسبنا الآن أن نجمل ذلك ، فى الآية الكريمة الجامعة لناموس حياة الآراء وصراعها ، ونصرها ، من قول القرآن الحكيم : لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتّى جاء الحقّ وظهر أمرُ الله وهم كارهون » . .

* * *

تلك ملامح عامة من شخصية صاحب هذا الدرس ، وخطوط كبرى من صورته ، لم يلمحها خيال ذو هوى ، ولم يصورها بيان مفتون ، بل كشف عنها امتحان الجامعية فيه ، كما سمعت .

وتلك الملامح هى التى أرجو أن يتبينها القارىء ، فيما بين يديه من درس «للدكتور خلف الله» . فيجد فيه آثارا واضحة للايمان بالعلم ، والاطمئنان

إلى ناموس التطور المتدرج . . والشعور بالواجب الاجتماعى أمام الحقيقة المستبينة ، والجهر بها عن طمأنينة ، ودون تهيب .. وهو ما أرجو وآمل ، أن يكون قد توافر منه «لخلف الله» فى درسه «لأبى الفرج» ما توافر له منه فى رسالته الأولى عن : «الفن القصصى فى القرآن الكريم» ، فيكون قد وفق للكشف عن جانب من شخصية رجل قدَّم للآداب العربية أضخم مجموعة خبرية ، ثم لعله شغل تاريخ تلك الآداب، بأكثر ما شغله به إنسان . فكان من الحق أن يعرف الناس صاحب هذا العمل ، ومقدم تلك المادة ، فتكون معرفة للعامل ، لابد منها ، ولا استغناء عنها ، فى معرفة العمل وتقديره... على ما أسلفنا صدر هذه الكلمة .

ولا أحتكم فى حرية القارىء لكتاب «الدكتور خلف الله» ، فألقاه بحكم لى عنه ، أو حكم للجنة المناقشة فيه .. لا أحتكم فى حرية القارىء بهذا ، كما أوقن أن «الدكتور خلف الله» لا يميل إلى هذا الاحتكام ، لأنه عرف قيمة الحرية وناضل فى سبيلها ، وآمن بحقه فيها ، ولا يصدق ذلك كله إلا حين يؤمن بحق الآخرين فى تلك الحرية ...

فهل يرى القارىء أن «الدكتور خلف الله» ، قدم من الدرس لشخصية أبى الفرج ونفسيته ، ما لا بد منه لتقدير كتاب الأغانى والاستفادة منه ؟.. أو يرى القارىء حاجة الصورة إلى شىء من الأضواء ؟

هذا ما سيقوله القارىء ، بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب فليمض فى قراءته حراً ملتمساً آثار شخصية العامل فى عمله .

وسلام عليه حين يبدأ ، وحين ينتهى .

وسلام عليه حين يعجب أو ينقد ؟

فى مصر الجديدة ٢ يونيو سنة ١٩٥٣ — أمين الخولى

تمهيـــد

لانستطيع أن نمضى فى دراسة أبى الفرج الراوية قبل أن نعرف أولا وقبل كل شىء ما الراوية ؟

وحدود هذا اللفظ كما ترسمها المعاجم كثيرة . لعل أقربها إلى ما نحن بصدده من حديث عن الراوية فى الأدب والتاريخ هى التالية .

الراوية هو البعير أو البغل أو الحمار الذى يستقى عليه المـاء . والرجل المستق أيضاً راوية . . .

ورجل رواء إذا كان الاستسقاء بالراوية له صناعـة . يقال جاء رواء القوم . .

وفى حديث بدر فإذا هو بروايا قريش أى إبلهم التى كانوا يستقون عليها . . يقال لسادة القوم الروايا قال أبو منصور وهى جمع راوية شبه السيد الذى تحمل الديات عن الحى بالبعير الراوية . . .

قال الجوهرى رويت الحديث والشعر رواية فأنا راو فى المـاء والشعر من قوم رواه . ورويته الشعر ترويه أى حملته على روايته وأرويته أيضا . وتقول أنشد القصيدة يا هذا ولا تقل أروها إلا أن تأمره بروايتها أى باستظهارها [1] .

وواضح من كل هذه الحدود أو من كل هذه المعانى أن النقل من المعانى الأولى لهذه المادة وأنه كثيراً ما يكون المحور الذى تدور حوله استعمالات هذه المـادة . وإذا كان النقل الذى يهمنا فى هـذا الموطن هو نقل الأنباء والآراء أو النقل العلمى بمعناه الواسع الشامل كان من المستحسن أن نقصر الحديث عليه .

والنقل الدقيق يبـــدأ بالتحمل أى بجمع الراوى للأنباء والآراء أو

---

(١) راجع مادة روى فى كل من أساس البلاغة والنهاية واللسان .

للمرويات من طرقها المختلفة وأساليبها المتنوعة ولهم فى التحمل حديث طويل لسنا بحاجة إليه فى هذا الموطن ما دمنا سنعرض له فى الباب الثالث إن شاء الله .

والراوى بعد التحمل يقابل ويصحح المرويات . يقابل ما سمعه فوعاه أو ما سمعه فدونه على ما عند غيره من الأقران ممن أخذ معه عن الشيخ أو يصحح ما سمعه على الشيخ نفسه أو على نسخته وهذا هو ما نستطيع تسميته بتصحيح النقل أو تصحيح السماع .

وعلى الراوى أن يحتفظ بالمرويات كما أخذها عن الشيخ من غير تغيير أو تبديل فيها وذلك بحفظها عن ظهر قلب ووعيها فى الذاكرة وقد يضم إلى ذلك تدوينها فى كتاب وذلك من حين التحمل إلى حين الأداء . ومن هنا نراهم يشترطون فى الراوية القدرة على الضبط وإلا تطرق الخلل إلى المرويات . وهذه أيضا من المسائل التى لن نحتاج اليها فى هذا الموطن والتى سنتحدث عنها فى الباب الثالث إن شاء الله .

أما الأداء فهو الذى يهمنا فى هذا الموطن وهو الذى يجعلنا نفهم بوضوح وجلاء مدلول هذا العنوان (أبو الفرج الراوية) .

الأداء هو نقل المرويات مع تبليغها إلى الغير بأية طريقة من طرق النقل والتبليغ وذلك قد يكون بالكتابة إليه أو بالإملاء عليه أو بالمحادثة الشفهية أو ما شاكل ذلك من طرق للنقل وللتبليغ . لكن على أى أساس تكون التأدية ويكون التبليغ ؟ أعلى أساس الصحة فى النقل ؟ أم على أساس صحة المنقول وصدق قضاياه ؟ .

هنا لا بد لنا من وقفة مع مختلف الرواة لنفهم أسلوبهم ونقف على طريقتهم ونضع أيدينا على ماهو الأساس .

ونبدأ من هؤلاء برواة الحديث فهم وأن يكونوا أحدث عهدا من رواة الشعر إلا أنهم هم الذين قاموا أولا ببحث هذه المسألة ودرسها درسا علميا حسب طبيعة عملهم وانتهوا من كل ذلك إلى نظريات تعرف عنهم وتنسب إليهم .

يقول ابن الصلاح فى مقدمته « ومتى قالوا هذا حديث صحيح فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة وليس من شرطه أن يكون مقطوعا به فى نفس الأمر إذ منه ما ينفرد بروايته عدد واحد وليس من الأخبار التى أجمعت الأمة على تلقيها بالقبول .

وكذلك إذا قالوا فى حديث إنه غير صحيح فليس ذلك قطعاً بأنه كذب فى نفس الأمر إذ قد يكون صدقا فى نفس الأمر وإنما المراد به أنه لم يصح إسناده على الشرط المذكور والله اعلم[١]

فهذا النص — وبخاصة الفقرة الأخيرة منه — يشير إلى أن الأساس الأول الذى تدور عليه الرواية عند رواة الحديث إنما هو الصحة فى النقل والتأكد من ان هذا الحديث قد ورد حقا عن رسول الله .

ولعل مما يؤكد هذا القول أنهم عند حديثهم عن التصحيحات التى قد يقوم بها الراوى قالوا اولا بإيرادة المرويات كما سمعها وعلى مافيها من أخطاء ثم يتبعها بما شاء من التعقيبات والتصحيحات[٢] . إذا كان ممن يحق لهم ذلك لتقدمهم فى العلم ومعرفتهم بالأحاديث . وليس يخفى أن مدار الفكرة هو أن الراوية إنما يهتم أولا وقبل كل شىء بالصحة فى النقل .

والنقل على هـــذا الأساس فى الأحاديث وفى الآثار المروية عن رسول الله هو الأمر الواجب الإتباع ذلك لأن المقصود الأول والأخير لرواة الحديث إنما هو التأكد من أن الرسول عليه السلام قد قال ذلك حقا أو فعله أو أمر به ليكون حديثا تجرى حوله البحوث الفقهية مادامت السنة هى المصدر الثانى من مصادر التشريع .

وعلى هذا الأساس أيضا أساس الصحة فى النقل يمضى رواة الشعر واللغة وليس يخفى أن أساسهم مستمد من طبيعة صناعتهم التى هى التأكد من أن هذا الشعر قد قاله فلان وأن تلك اللفظة نطقت بها العرب ولعله

---

(١) ١٠ مقدمة ابن الصلاح (٢) ١٩٢ المصدر السابق

من هنا وقف بعض النحاة موقفهم المعروف من أحاديث الرسول عليه السلام حيث نراهم لا يعتمدون عليها فى وضع القواعد النحوية لأنها كثيراً ماتروى بالمعنى (١) وأعتقد أنا لسنا بحاجة إلى ان نمضى إلى ابعد من هذا الحديث عن رواة الحديث واللغة .

أما الأخباريون وهم الذين نعنى بهم فى هذا الموطن فقد اختلفوا فيما بينهم وتوزعتهم الأسس السابقة من صحة فى النقل أو صحة فى المنقول وهذا التوزع هو الذى سيضع أيدينا على الفروق المميزة لنوعين من الأخباريين هم المؤرخون والرواة .

جاء فى طبقات الشعراء لابن سلام ، وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف من السنين والله يقول وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما ابقى . . . ، (٢)

وواضح ان ابن اسحاق إنما يذهب مذهب الرواة أو مذهب من يرى أن واجبه الحمل والتبليغ وأن ابن سلام إنما يذهب مذهب المؤرخين الذين يطلبون الحقيقة ويرون أن واجب الانسان ألا يحمل إلا ما هو الحق أو ما يتوقع انه الحق . فالأول إنما يحرص على النقل والثانى إنما يحرص على صحة المنقول وإن قاس هذه الصحة باعتبارات خاصة بالسند .

وجاء فى الطبرى ، وليعلم الناظر فى كتابنا هذا ان اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه . مما شرطت أنى راسمه فيه : إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه . دون

(١) ١/٥ خزانة الادب
(٢) ٤ طبقات الشعراء ط ليدن سنة ١٩١٣

ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا . (١)

وواضح أن الطبرى قد التزم أن يؤدى المرويات على نحو ما أديت إليه حتى ولو كان فيها ما يستنكره القارىء أو يستشنعه السامع وليس يخفى أنه يريد أن يقول إنى أنما أحرص على الصحة فى النقل .

نعم إن الطبرى يذكر فى هذا النص أيضا أنه قد يعمد فى القليل اليسير إلى ما يدرك بحجج العقول ويستنبط بفكر النفوس وذلك قد يدل على القصد إلى الصحة فى المنقول ولسنا نعارض فللطبرى موقفان موقف هو الكثير الغالب يحرص فيه على الصحة فى النقل . وموقف هو اليسير القليل يحرص فيه على صحة المنقول الأمر الذى قد يوجد عند غيره والذى سنجعل منه نقطة البدء فى الفصل بين الراوية والمؤرخ بعد لحظة إن شاء الله ،

وجاء فى معجم البلدان (حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول وتنفر عنها طباع من له محصول لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة وإن كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرىء إلى قارئها من صحتها لأنى كتبتها حرصا على إحراز الفوائد وطلبا لتحصيل القلائد منها والفرائد فان كانت حقا

(١) مقدمة الطبرى لكتابه تاريخ الامم والملوك

فقد أخذنا منها بنصيب المصيب وإن كانت باطلا فلها فى الحق شرك ونصيب لأنى نقلتها كما وجدتها فأنا صادق فى إيرادها ولتعرف ما قيل فى ذلك حقا كان أو باطلا فان قائلا لو قال سمعت زيدا يكذب لأحببت أن تعرف كيفية كذبه . وها أئمة الحفاظ الذين هم القدوة فى كل زمن وعليهم الاعتماد فى فرائض الشرع والسنن لم يشترط أكثرهم فى مسنده وهى أحاديث الرسول التى تبتنى عليها الأحكام ويفرق بها بين الحلال والحرام إيراد الصحيح دون السقيم ونفى المعوج وإثبات المستقيم ولو لم يخرجهم ذلك عن أن يعدوا فى أهل الصدق أو يتزحزحوا عن مراتب الأئمة والحق إنهم أوردوا ما سمعوه كما وعوه وإنما يسمى كذابا إذا وضع حديثا أو حدث عمن لم يسمع منه أو روى عمن لم يرو عنه فأما أن يروى ما سمع كما سمع فهو من الصادقين والعهدة على من رواه عنه إلا أن يكون من أهل الاجتهاد فله أن يرويه ثم يزيفه ولولا ذلك لبطل كثير من الأحاديث وعلينا الاقتداء بهم والتمسك بحبلهم (١) .

وواضح أن صاحب المعجم يجعل مدار الثقة فى نقل الأخبار أو مدار الصدق والصحة فيها الصدق فى النقل والصحة فى الإسناد وهو يجرى فى ذلك على قاعدة رواة الحديث ويطلب إلى غيره أن يتمسك بحبلهم .

وهنا شىء يجب أن نلتفت إليه هو أن صاحب المعجم يفرق بين الراوى وبين المجتهد ويجعل من حق الثانى أن يروى الحديث ثم يزيفه ذلك لأن هذه التفرقة بين الراوى والمجتهد فى رواية الأحاديث هى التى تريد أن نعتمد عليها فى التفرقة بين المؤرخين ورواة الأخبار حين نقول إن عمل المؤرخ هو رواية ثم استبعاد أو رواية تريد الوصول إلى ما هو فى نفسه صحيح أو الوصول إلى الحقيقة التاريخية . أما الرواة فانما عليهم أن يعتمدوا فى عملهم صدق النقل وصحة الإسناد . والراوى على ذلك هو ناقل الخبر دون نقد لمتنه صدقا كان ذلك المنقول أو كذبا فليس عليه من بأس فى ذلك . وإنما

(١) راجع مقدمة معجم البلدان لياقوت

البأس كل البأس فى الوضع أو فى الرواية عمن لم يرو عنه أو فى التحديث عمن لم يسمع منه أو يأخذ عنه بمكاتبات أو أجازات .

ولسنا فى هذا الموقف بصدد بيان أدوات التزييف وعوامل الوصول إلى الحقيقة فقد تختلف الأدوات والسبل ولعل من أحسن ما يشار إليه فى هذا المقام ماكتبه ابن خلدون فى المقدمة وبخاصة فى الفصل الأول منها وما كتبه كل من الأستاذين أسد رستم وحسن عثمان الأول فى كتابه مصطلح التاريخ والثانى كتابه فى منهج البحث التاريخى فليرجع إلى هذه الكتب من يريد الوقوف على سبل الوصول إلى الحقيقة التاريخية . وهناك أيضاً قد يجد فصولا قيمة عن صنيع الرواة .

هذا الراوى الذى وقفنا على شىء من صفاته له خطره وقيمته من الناحية العلمية وله صفاته المميزة التى تفرق بينه وبين المؤرخ . بل له أحيانا شخصيته الجبارة التى قد تضيع شخصية المؤرخ إلى جانبها وتصبح لا عمل لها إلا بعمل الراوى ولا وصول لها إلى الحقائق إن لم تؤمن بذلك الراوى وما قدم لها من مرويات وما حفظ لها من وثائق .

ويأتى هذا الخطر للراوى من صفتين تلازمانه فى كل بيئة وفى كل أمة . وأولى هاتين الصفتين القدم . فالراوى أسبق ظهورا فى حياة المعارف من صاحبه لا فى تاريخ التاريخ فحسب بل فى تاريخ كل فرع من فروع العلم وكل لون من ألوان الفنون والآداب . ومن هنا كان أبعد غورا وأرسخ قدما فى تاريخ الفكر البشرى وأظننا لسنا بحاجة إلى أن نقدم شيئا من الأدلة أو البراهين حيث نقول إن تاريخنا العلمى يثبت أنه قد وجد راوى الحديث قبل أن يوجد المشرع المجتهد أو الفقيه . ووجد راوى الشعر واللغة قبل أن يوجد العالم بالشعر وباللغة . ووجد راوى الأخبار والأحداث قبل أن يوجد المؤرخ لأن كل ذلك من البديهيات التى لا تحتاج إلى دليل أو برهان .

أما الصفة الثانية فهى صفة تعتمد على الأولى وتستمد قوتها منها وتلك

هى صفة السيادة فالراوى لا سيما فى حياتنا الفكرية الإسلامية العربية متسلط جبار فهو قد سيطر على حياتنا العلمية ورسم لنا الخطوط التى يجب أن نسير عليها فى مختلف الميادين ومن هنا كان له من الأنصار والأعوان من يقدسه ويرى الخير كل الخير والبركة كل البركة فى أن يتمسك بحبله وينسج على منواله وقد خلقت هذه السيطرة قدسية فى عقول المقلدين تجعل النقد الذى يقوم به المؤرخ والمجتهد من الأمور الصعبة التى لا يقبلها أمثال هؤلاء ولن يدب النشاط الفكرى فى حياتنا العلمية إلا بعد أن نتخلص من سلطان هؤلاء الجبابرة الرواه . ولن نتخلص من سلطانهم إلا حين نقف على الصغير والكبير من أمورهم ونعرف كيف جمعوا آراءهم وكيف كونوا معرفتهم وعلمهم وعلى أى أساس من الأسس الفكرية كانوا يصدرون حين خلفواها من تراث وحين رسموا ما رسموا من خطط ومناهج .

إن التجديد لن يكون حتى نناقش هذه الأسس وحتى نقوم هـــذه المعارف لنعرف إن كان حقا ما خلف الأقدمون أو باطلا وصادقة هذه المعرفة أو كاذبة أما أن نتلقى ما يقولون ونردد ما يرون بدون أن نكمل نقد المؤرخ وتزييف المجتهد فأن سيؤدى حتما إلى الجدب والفناء .

هاتان الصفتان هما اللتان تمكنان للراوى وتثبتان قدمه وهما اللتان نستطيع أن نحيلهما إلى عوامل شيخوخة وضعف لو كان فينا جانب من قوة وفضل من نشاط .

أما الفروق فتأتى من طبيعة عمل كل منهما ونستطيع أن نجمل أهمها فيما يلى :

١ — أنه لما كان عمل الراوى — النقل والنقل ليس غيره — كان معبراً عن رأى غيره فى الحقيقة ومصوراً لوجهة نظر الآخرين . وذلك بخلاف المؤرخ الذى يحاول أن يصوّر لنا الحقيقة كما رآها ومن وجهة نظره هو ومن هنا نجد وحدة فى عمل المؤرخ ونجد تعددا فى عمل الراوى ذلك لأنه قد يروى آراء مختلفة ومتعارضة فى أكثر الأحايين .

على أن هذا الصنيع من الراوى له خطره فى الميدان العلمى ذلك لأن هـــذا الاختلاف وهذا التعارض لهما أثرهما القوى الواضح فى محاولة الوصول الى الحقيقة وفى العمل على تجدد العلم ونشـــاطه وعلى دوامه واستمراره فلولا هما لكان الجمود فى الحركة العلمية ولسكان الوصول الى الحقيقة فى غاية الحرج والمشقة ويكفى منا نظرة بسيطة الى أخبار الآحاد التى قد تصورهما كاذبا أو أسطورة خارقه . وكم عانى العلماء من أخبار الآحاد؟

ب — أنه لما كان حظ المؤرخ من العلم الوصول الى الحقيقة كان من حقه أن يستغنى عن أيراد كثير من الأخبار التى لا يرتضيها العقل ولا يؤمن بها العلم وهو فى ذلك على العكس من الراوى الذى من ألزم لوازمه أن يروى ما يقع تحت يده من الأخبـــار حتى ولو آمن بأن ما يرويه من المصنوعات والأكاذيب أو من الأوهام والأساطير .

والراوى هنا يقدم للعلم خدمة جليلة ذلك لأنه هو الذى سيمكننا من دراسة خطوات التقدم والترقى فى حياة الفكر البشرى ويرينا كيف كان يفسر الأقدمون الظواهر ويعللون المسائل ويمضون فى الشرح وفى التأويل .

ولو حاولنا ان نطلب إلى الرواة أن يصنعوا ما يصنعه المؤرخون من الأستغناء عما لا يعتقدونه الحق أو عما يعتقدونه الكذب لأضعنا على انفسنا تراثا قد يمكننا من الوصول الى الحقيقة كما يحفظ لنا كثيراً من المواد التى لا يكون التاريخ تاريخا إلا بها . ويكفى الراوى أنه كان ولا يزال لمثل هذه الأشياء الحافظ الأمين .

حـ — أنه لما كان حظ الراوى النقل والنقل ليس غير كان عليه أن يتوقف حين لا يجد ما يرويه وهو فى ذلك على العكس من المؤرخ الذى يكون من حقه أن يعتمد على البراهين النظرية والأدلة العقلية فيقدم المقدمات ويستنتج النتائج ويستنبط من الأمور ما يملأ به الفراغ ليقدم لنا صورة الحقيقة كما رآها وكما آمن بها ويقدمها كاملة غير منقوصة إن وجد إلى ذلك السبيل .

والراوى حين يقف موقف الحافظ الحريص على هذه المسائل إنما يقدم للعلم خدمة جليلة ذلك لأنه هو الذى سيباعد بين العلم وبين الكذبة الوضاعين كما أنه هو الذى سيقدم لنا الدليل على الكثير من أخطاء المؤرخين .

تلك هى أهم الفروق المميزة أو الصفات البارزة لكل من الرواة والمؤرخين وهى صفات او فروق تستمد قوتها وحيويتها من صنيع كل منهم وطبيعة عمله وعسى ان تكون من الوضوح بحيث تمكننا من فهم مدلول عنوان هذا البحث كما تمكننا من درس أبى الفرج على أساس علمى .

واذا كان لا بد من كلمه نختتم بها هذا التمهيد فهى أنه يجب ألا يختلط علينا الأمر فى فهمنا لشخصيات الأقدمين فنخلط بين الرواة والمؤرخين وبخاصة حين يكون المؤرخ ممن يعتمدون أسلوب الرواية فى التاريخ .

ولعل المسألة تزداد وضوحا وبيانا فى الفصل الأول من الباب الثالث عند حديثنا عن أبى الفرج وهل هو من الرواة أو من المؤرخين .

الباب الأول

العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج

الفصل الأول

الحدود الزمانية والمكانية

١ — الحدود الزمانية :

والحدود الزمانية لحياة أبى الفرج تبدأ بحد متفق عليه وتنتهى إلى حد مختلف فيه وهى ظاهرة تشعرنا بأمر ما فى حياة أبى الفرج ذلك لأننا نعلم أن الأمر يجرى على العكس من ذلك فى الحدود التى تبدأ بها وتنتهى إليها حياة الآخرين من العلماء والعظماء ومن الأدباء والفلاسفة ورجال الفن ورجال الدين . فحد الوفاة هو المتفق عليه فى الغالب وتاريخ الميلاد هو المختلف فيه . وتفسير ذلك ليس بالأمر الصعب فالطفل حين يولد لا يلتفت إلى مولده غير أهله ولكنه حين يتوفى وبخاصة إذا كان قد بلغ من المجتمع مكانة سامية جعلته فى عداد العظماء أو فى عداد العلماء والأدباء — يلتفت إليه جميع الناس ويذكرون ذلك الحادث لأنه فى عرفهم ليس من الحوادث الفردية التى تشغل الأهل فحسب وإنما لأنه من الأحداث التى تنزل بالمجتمع فيضطرب لها وقد يهتز من أجلها جميع الناس . ومن هنا فيما نرى كان ذلك التقليد الذى يجرى عليه المؤرخون وأصحاب كتب الطبقات من جعلهم حد الوفاة الأساس الزمنى الذى يقوم عليه الترتيب التاريخى لحياة العلماء والأدباء .

هذه الظاهرة من تاريخ أبى الفرج لا بد لها من تفسير أو تعليل إذ لعل هذا التعليل أن يوضح لنا جانبا من جوانب هذه الحياة .

لن نستطيع أن نعلل هذا الاختلاف فى تاريخ الوفاة بموت الرجل بعيداً عن الوطن فلقد توفى الرجل ببغداد وتوفى على ذلك بين الصحب والإخوان [١] .

ولن نستطيع أن نعلل هذا الاختلاف بأنه من تطاول الزمن فقد وقع هذا الاختلاف بين المعاصرين الذين سجلوا أقوالهم فى كتبهم من أمثال ابن النديم [٢] وأبى نعيم [٣] أو الذين أملوا أقوالهم أو رووها لطلابهم من أمثال ابن أبى الفوارس [٤] .

المسألة فيما أرى ترجع إلى أمر واحد هو أن الرجل قد فارق الدنيا ولم يكن قد اكتسب تلك الشهرة التى طبقت فيما بعد الآفاق ومن هنا كان الاهمال وكان النسيان وكان الاختلاف فيما بين المعاصرين من المؤرخين والرواة .

ولن يعترض علينا معترض بتلك النصوص التى تروى عن أمثال المهلبى والصاحب ابن عباد وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم من الولاة والوزراء [٥] فتلك نصوص لم تكن فيما نرى إلا لتبنى لكتاب الأغانى مجداً وتجعل لأبى الفرج ذكرا . نصوص اخترعها أحد النساخ حتى يكثر الطلب فيكثر النسخ ويتسع الرزق كما سنذكر بتفصيل فى الفصل الأخير من هذا الباب إن شاء الله . وقد يكفى فى هذا الموطن أن نقرر أن هذه النصوص لم توجد فى الكتب التى ألفت فى القرنين الرابع والخامس من أمثال الفهرست وأخبار أصبهان واليتيمة وتاريخ بغداد وإنما وجدت فى الكتب التى جاءت بعد ذلك والتى ألفت بعد موت أبى الفرج بأكثر من قرنين من الزمن وفى ذلك من الشك والارتياب بهذه النصوص ما فيه .

إن كتاب الأغانى لم ينل حظه الفائق من الشهرة الا بعد أن فقدت

---

(١) ٢/٢٢ أخبار أصفهان لأبى نعم

(٢) ١٦٧ الفهرست لابى النديم ط الرحمانيه بمصر

(٣) ٢/٢٢ أخبار أصفهان لأبى نعم

(٤) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب

(٥) ٩٧ و٩٨/ ١٣ معجم الأدباء ط رفاعى

المكتبة العربية كثيراً من الكتب وكثيراً من المرويات التى اعتمد عليها أبو الفرج فى التأليف ولولا ذلك لظل الكتاب وسطا بين الكتب وظل أبو الفرج كما كان فى عصره من الأدباء الذين يحسنون السمر ويجيدون قص الأخبار ولا شيء وراء هذا فليس الرجل بالشخصية الجبارة وليس الرجل بالعقلية الفذة حتى يضخم وتتضائل إلى جانبه جميع الشخصيات . ابو الفرج شخصية عادية أو أديب مغمور فى عصره ومن هنا كان الإختلاف فى تاريخ الوفاة .

ولد أبو الفرج سنة أربع وثمانين ومائتين[١] ذلك هو الحد المتفق عليه . وتوفى أبو الفرج سنة نيف وستين وثلاثمائة فيما يقول ابن النديم [٢] أو سنة سبع وخمسين وثلاثماية فيما يذكر أبو نعيم أو يوم الأربعاء لأربع عشرة خلون من ذى الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فيما يروى عن ابن أبى الفوارس [٣] وهذا هو الأمر المختلف فيه .

نستطيع أن نتفق أولا على إخراج قول أبى نعيم على أساس أن الرجل لم يكن على صلة تامة بأبى الفرج كما كان كل من صاحبيه ابن النديم وابن أبى الفوارس فقد كان الأول له قرينا وكان الثانى له تلميذاً وكل منهما قد روى عنه . روى عنه ابن النديم أخباراً فى كتابه الفهرست[٤] . وروى عنه ابن أبى الفوارس أحاديث فيما يذكر الخطيب [٥] ولم يرو عنه أبو نعيم شيئا فيما يحكى هو عن نفسه .[٦]

ثم على أساس أن أبا نعيم أصبهانى وكل من ابن النديم وابن أبى الفوارس من البغداديين وقد توفى الرجل ببغداد فيما يحكى أبو نعيم نفسه وكما سبق أن ذكرنا .

ولم يؤرخ أبو نعيم لأبى الفرج إلا لوجود هذا اللقب (الأصبهانى) ولولاه لسكت عنه لأنه لم يعرف من امره إلا الأخبار الطائرة التى سجلها

---

(١) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب
(٢) ١٦٧ الفهرست لابن النديم ط الرحمانيه مصر
(٣) ٢/٢٢ أخبار أصبهان لأبى نعيم
(٤) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب
(٥) ١٠٣ الفهرست
(٦) ١١/٢٩٩ تاريخ بغداد

فى بضعة اسطر قد لاتتجاوز فى العد اصابع اليد الواحدة . ولعله من كل ما تقدم رجح الخطيب البغدادى وغيره قول ابن ابى الفوارس على قول أبى نعيم (١) .

نتفق على إخراج قول أبى نعيم ونقف لنوازن بين القولين الأخرين قول ابن النديم وقول ابن أبى الفوارس فلعل هذه الموازنة أن تقربنا من الحق إن لم نضع يدنا عليه .

والنظرة الأولى للقولين تشعرنا بما فى قول ابن أبى الفوارس من دقة متناهية وبما فى قول ابن النديم من إهمال شنيع فابن النديم يهمل اليوم والشهر ويهمل السنة ويكتفى بالعقد . أما ابن ابى الفوارس فيحدد اليوم باسمه وبموقعه من الشهر . ويحدد الشهر باسمه لنعرف موقعه من العام . ثم يحدد السنة تحديداً واضحا بينا لا يحوطه غموض أو ابهام .

علام يدل هذا التحديد الواضح وهذه الدقة المتناهية ؟

لا نستطيع ان ندعى دلالتهما على الصدق لأنهما يحملان فى طياتهما ظواهره فقد تكون هذه الظواهر آية الوضع وعلامة الزور والبهتان من حيث أن الواضع يعمد دائما إلى آيات الصدق فيحلى بها قوله حتى تجنح النفس اليه وتثق به وتعتبر صاحبه من المدققين المحققين الذين يقفون كثيراً أمام الأخبار .

وعلام يدل هذا الإهمال الشنيع ؟

إنا هنا قد نجنح إلى دلالته على الصدق من حيث أن الشخص قد يهمل لا لأنه لايعنى بأخباره ولا يحصل ما يقول وانما لأنه يعرف أن مايهمل من الحقائق الواضحة والأخبار البينة التى يعرفها الجميع وذلك هو الأمر الذى كان يفعله ابن النديم حين يؤرخ لمن كان قريب العهد من الأخباريين والأدباء وانظر إلى ما يقوله عن جحظه ، وأخباره أشهر وأظهر من أن

---

(١) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد

نذكرها فى كتابنا لقرب عهده منا [١]) .

إن الذى يهمل قد يهمل لأنه يشعر أنه ليس بحاجة إلى هذه الدقة المتناهية التى توضح وتبين كل شىء ما دام الأمر فى نفسه واضحا . ومن هنا يجب ألا نقبل قول ابن أبى الفوارس لدقته وألا نرد قول ابن النديم لإهماله وانما يجب أن نحذر الدقة فقد يكون السم فى الدسم ويجب أن نبحث أسباب الاهمال فقد يكون الاهمال نفسه دليل الصدق وعلامة الصحة .

والنظرة الثانية ترينا أن ابن النديم قد خط قوله بيده وسجله فى كتابه . أما قول ابن أبى الفوارس فقول يروى عنه ولم يسجل فى كتاب إلا بعد موت أبى الفرج بما يزيد على قرن من الزمن وذلك لأن الذى سجله إنما هو الخطيب فى كتابه تاريخ بغداد .

هذه الظاهرة اعتمادا على قولهم بالعلو فى السند وعلى مانرى من أن الضبط بالكتابة أفضل من الضبط بالحفظ وأن الروايات المكتوبة مقدمة على الروايات الشفهية تشعرنا بتقديم قول ابن النديم وترجيحه على قول ابن أبى الفوارس . .

وإذا ما ضممنا إلى ذلك أن ابن النديم كان قرينا وزميلا لأبى الفرج وأنه كان مقيما ببغداد وأنه كان من الاخباريين الذين يؤرخون للرجال [٢] وأن ابن أبى الفرارس كان طالبا وكان لا يزال فى سن الطلب وقت وفاة أبى الفرج وأنه كان رحل إلى غير بغداد وإلى غير البلاد العربية فى طلب الحديث [٣] وأنه لم يكن من الذين يؤرخون للرجال تبين لنا أن عوامل ترجيح قول ابن النديم أكثر وأنه الذى يصح لنا أن نعتبره الحق أو القريب إلى الصواب .

على أن الأمر قد لا يقف عند هذا الحد بل يعدوه إلى أن الخطيب كان يشك أحيانا فى أقوال ابن أبى القوارس حين تتعلق بحياة الرجال [٤] . وإلى

---

١) ٢٠٨ الفهرست ط الرحمانية مصر
٢) راجع مقدمة الفهرست
٣) ١/٣٥٢ تاريخ بغداد
٤) ١/٤١٥ تاريخ بغداد

أن بعض الأقدمين قد شكك فى قول ابن أبى الفوارس بل أبطله حين علق عليه بقوله «وفاته هذه فيها نظر وتفتقر إلى التأمل لأنه ذكر فى كتاب أدب الغرباء من تأليفه . حدثنى صديق قال . قرأت على قصر معز الدولة بالشماسية يقول فلان بن فلان الهروى حضرت هذا الموضع فى سماط معز الدولة والدنيا عليه مقبلة وهيبة الملك ، عليه مشتملة ثم عدت إليه فى سنة إثنتين وستين وثلاثمائة فرأيت ما يعتبر به اللبيب يعنى من الحراب[1] .

أعتقد أن الأمر قد وضح من حيث ترجيح قول ابن النديم لاسيما بعد ذلك النص الذى يثبت أن أبا الفرج قد أخرج كتابه أدب الغرباء بعد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة .

لكن ما العمل فى تلك العلة التى تمت لقول ابن أبى الفوارس وهذه الشهرة التى سايرته فى كل مكان حتى ليعتمد عليه الجم الغفير من المؤلفين قدماء ومحدثين من لدن الخطيب فى كتابه تاريخ بغداد إلى الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ظهر الاسلام[2] ؟ .

لاشىء فالشهرة لاتكسب الرأى الصحة ولا تكسب القول الصدق لأنها لا تقوم على الحق وحده وانما تقوم أحيانا على اسباب قد تكون سياسية وقد تكون دينية أو مذهبية وقد تكون اجتماعية وقد تكون شخصية بحتة وهى فى كل هذا لا علاقة لها بالصدق أو الصحة . ولقد جاءت الشهرة إلى قول ابن أبى الفوارس من أن الخطيب وهو راويه الأول قد وثقه حين علق عليه بقوله . وهذا هو القول الصحيح فى وفاته[3] . لكن يجب أن نعلم أن توثيق الخطيب له قد لا يفيده فى شىء بعد ذكرنا للمرجحات السابقة وبعد أن نعرف ان الخطيب إنما رجح قول ابن أبى الفوارس على قول أبى نعيم وأنه لم يتعرض لقول ابن النديم حتى لنظن بأنه لم يقع عليه حين أرخ لأبى الفرج وإلا فما سر هذا السكوت ؟

---

١) ١٣/٩٦ معجم الادباء ط . رفاعى ٢) ٢٤٠ ظهر الاسلام
٣) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد ط / م ٩

ونقتصر من كل ما تقدم إلى شيئين . الأول أنه يجب علينا أن نحذر الروايات المحددة الدقيقة فقد يكون السم فى الدسم . وأن نحذر الروايات الشائعة المشهورة فقد لا يكون شحما ذلك الورم .

الثانى أن حياة أبى الفرج تبدأ بسنة أربع وثمانين ومائتين وتنتهى فيما هو القول الراجح بسنة نيف وستين وثلاثمائة . ومضمون ذلك أن أبا الفرج فارق الحياة وقد بلغ الثمانين من الأعوام وهو عمر مديد فيما نرى وهى سنوات عجاف اضطربت فيها أمور الدولة وسقطت فيها هيبة الخلافة وزالت دولة وقامت دويلات وكل ذلك أحداث سياسية واجتماعية خطيرة . أحداث شاهدها أبو الفرج شهود العيان وتأثر بها إن قليلا وأن كثيراً وظهرت آثارها فى حياته الطويلة لكن ليس لى أن أقف فى هذا الموطن لأتناول كل هذه الآثار بالحديث فأنا أعلم أن لكل منها موطنه فى الفصول المقبلة وأنا أعلم أنى لم أقف هنا إلا لأحقق تاريخيا تلك الأزمنة التى عاش فيها أبو الفرج وإذ كنت قد بلغت من ذلك بعض ما أريد فإن من الخير أن أتركه إلى تحقيق أمر آخر هو الحدود المكانية لتلك الحياة .

* * *

ب ـ الحدود المكانية :

ولد أبو الفرج بأصبهان ونشأ وتربى ببغداد . إلى هذا الرى يذهب كاتب مادة أبى الفرج فى دائرة المعارف الإسلامية . كما يذهب إليه قوم آخرون . سبقوا هذا الكاتب أو جاءوا بعده . من أمثال طاشكبرى زاده . وخير الدين الزركلى . وسيد صقر . وأحمد أمين . الأول فى مفتاح السعادة (١) . والثانى فى الأعلام (٢) . والثالث فى مقاتل الطالبيين (٣) . والرابع فى ظهر الإسلام (٤) . يذهبون إليه فى صراحة وفى عبارة لا يحوطها الغموض أو الإبهام .

أما أنه نشأ وتربى ببغداد فذلك هو الأمر الذى لا تستطيع له دفعا .

---

(١) ١/١٨٤ مفتاح السعادة
(٢) ٢/٦٦٦ الأعلام
(٣) ٩ مقاتل الطالبيين مصر سنة ١٩٤٩
(٤) ٢٤٠ ظهر الإسلام

ذلك لأنا نعلم أنه استوطن بغداد منذ صباه[١] . وأنه ليحدثنا بانه كان بها حين ورد إليها أبو الفياض سوار بن أبي شراعة . وأن ذلك كان حوالى سنة ثلاثمائة . وذلك حيث يقول : (. . . وابنه أبو الفياض سوار بن أبي شراعة . أحد الشعراء الرواة . قدم علينا بمدينة السلام بعد سنة ثلاثمائه . فكتب عنه أصحابنا قطعات الأخبار واللغة . وفاتني فلم ألقه . وكتب إلى والى أبي رحمه الله يإجازة . وأخبرنا بأخبار على يد بعض إخواننا ... إلخ[٢]) .

وأما إنه ولد بأصبهان فتلك هى المشكلة . ذلك لأنا نعلم أن أسرة أبي الفرج كانت تقيم بسر من رأى . وكانت تقيم بها قبل مولد أبي الفرج بخمسين من السنين . كان يقيم بها جده ، وجد أبيه . وكان يقيم بها عمه ، وعم أبيه . وكان جد أبيه . أحمد بن الهيثم . من المعاصرين لاسحاق الموصلى[٣] . واسحاق قد فارق الدنيا قبل مولد أبي الفرج بنصف قرن على أقل تقدير .

كذلك كان عمه الحسن بن محمد . وعم أبيه عبد العزيز بن أحمد . من الكتاب بسر من رأى فى ذلك الحين[٤] .

والأمر لا يختلف بالنسبة لأسرة أمه . فجده لأمه هو يحيى بن محمد بن ثوابه . وقد كان أيضا من الكتاب[٥] . وآل ثوابه فى ذلك الوقت كانوا يقيمون بسر من رأى . أو ببغداد تبعا للخلفاء والوزراء . كما كان شأن الكتاب فى ذلك الحين .

أسرتا أبي الفرج . أسرة أبيه ، وأسرة أمه . كانتا تقيمان بسر من رأى . أو ببغداد . كما سنشرح بتفصيل فى الباب التالى إن شاء الله . وإقامتهما بين البلدين تجعل الذهاب إلى القول . بأنه قد ولد باصبهان . من المشكلات التى لا تحل . إلا إذا ثبت لدينا . أن أباه وأمه قد انتقلا من سر من رأى . أو من بغداد . إلى أصبهان . الأمر الذى لم نعثر له على دليل . بل الأمر الذى

---

(١) لوحة ٢٧٥ ب . ٩٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب .

(٢) ٢٠/٣٥ أغانى . ساسى .

(٣) ١١/٣،٢/ المصدر السابق .

(٤) ٩٨، ٩٩ جمهرة الأنساب لابن حزم .

(٥) ١٨/٤٣ أغانى . ساسى .

تعارضه الأخبار التي تدور حول أسرة أمه . أو حول أسرة أبيه[١] .

على أن هناك أمراً آخر يزيد هذه المشكلة تعقيداً . أو يجعل القول بمولده باصبهان بعيد الاحتمال . ذلك لأن أبا الفرج حين يروى عن أفراد الأسرة أو يتحدث عنهم يدل على أن لقب الأصبهانى لم يكن لقب أبي الفرج فحسب . وإنما هو اللقب الذى يعرف به كل من عمه . وابن عمه . وجده . فعمه هو الحسن بن محمد الأصبهانى[٢] . وابن عمه هو أحمد بن الحسن الأصفهانى[٣] . أو أبو عبدالله أحمد بن الحسن بن محمد الأصبهانى[٤] . وجده هو محمد بن أحمد الأصبهانى[٥] . ثم أن أباه هو الحسين الأصبهانى الأمر الذى يكرره كثيراً رواة كتاب المقاتل . فليس أبو الفرج عندهم إلا على ابن الحسين الأصبهانى . ومعنى ذلك كله أو مضمونه أن أبا الفرج قد ورث هذا اللقب عن الأسرة وأن التفسيرات اللغوية التى كان يظن أن تكون أحد الابواب التى تحل لنا هذه المشكلة لا تصلح فى هذا المقام .

ليس لنا من بد من تتبع هذه المسالة فى الكتب وتتبعها على أساس من التاريخ . وأعتقد أنا لسنا بحاجة إلى أن نقنع القارىء بأن تاريخ المشكلة يكون دائما جزءاً من حلها . فإنه يعلم ذلك . ويعلمه لأنه الأمر المقرر عند جميع العلماء .

لقد سكت ابن النديم وهو المعاصر لأبى الفرج عن هذه المسالة[٦] . كما سكت عنها معاصر آخر هو أبو نعيم[٧] . ولا يعترض علينا بترجمة أبى نعيم له فى اخبار أصبهان فقد يكتفى فى ذلك بهذه النسبة اللغوية . وقد يجيز ذلك أن أصول الرجل من أصبهان . بل كان يجيز ذلك إقامة الرجل فى بلدة ما مدة ليؤرخ له فى الكتب التى تهتم بأخبارها حتى ولو لم يكن من أهلها . الأمر الذى نجد له مثلا عديدة فى كتاب تاريخ بغداد .

أن أول من ذكر هذه المسالة من الأقدمين هو الثعالبى فى اليتيمة وذلك حين قال فى ترجمته له (الأصبهانى الأصل البغدادى المنشأ[٨] .) وهو قول

---

(١) ٢٠/٩١ أغانى . ساسى .
(٢) ٨/٣٦ المصدر السابق .
(٣) ٦/١٥١ المصدر السابق .
(٤) ١٥/١٠٢ المصدر السابق .
(٥) ٦٩٨ مقاتل الطالبيين . مصر سنة ١٩٤٩
(٦) ١٦٦ ، ١٦٧ الفهرست . ط . الرحمانية . مصر .
(٧) ٣/٣٣ أخبار أصبهان .
(٨) ٢/٢٧٨ اليتيمة . ط . دمشق

لا ينص فى صراحة على أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . بل هو حتى لا يدل على ذلك . ولعل الأمر الأقرب إلى الحق .أنه يدل على أنه لم يولد بأصبهان . ذلك لأن هذا التركيب «أصبهانى الأصل» إنما يدل فى الكتب الأدبية لذلك العصر على أن أصوله هم الذين ينسبون إلى أصبهان . ولعل فى الأمثلة التالية التى ننقلها عن كتاب الأغانى لأبى الفرج . ما يلقى من الأضواء . ما نستعين به على تفسير هذا التركيب .

جاء فى الأغانى بصدد حديثه عن محمد الرف هو محمد بن عمرو مولى تميم كوفى الأصل والمولد والمنشأ[1] . وجاء بصدد حديثه عن حماد عجرد . وأصله ومنشؤه بالكوفة[2] . وهى أقوال تشير فيما نرى . إلى أن الاصل إنما يعبر به عن الآباء والجدود. ولا يعبر به عن الشخص ونسبته إلى الموطن. وإذا فلا يستفاد من قول صاحب اليتيمة أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان .

أما الخطيب فيعبر عن ذلك بقوله . (أبو الفرج الأموى الكاتب المعروف بالأصبهانى[3] .) ونشعر نحن من كلمة المعروف . بأن الخطيب لم يكن ليعتقد بأن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . ويتاكد لدينا هذا الشعور من حرص الخطيب على هذه الكلمة كلما عنت المناسبات ، وسمحت الظروف بالحديث عن أبى الفرج . ومن ذلك أنه عند ترجمته للحسن بن محمد عم أبى الفرج يقولها أيضا « عم أبو الفرج المعروف بالأصبهانى[4] . »

لم يصح عند الخطيب فيما نعتقد . أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . أو لم يشأ هو أن يعبر عن ذلك فى صراحة. وهو أمر يجعلنا فى حرج إن اعتمدنا على قوله فى تحقيق مولد أبى الفرج . وأنه كان بأصبهان .

أما صاحب وفيات الأعيان فقد كرر علينا عبارة صاحب اليتيمة . وسكت ياقوت فى معجم الأدباء عن هذه المسألة . كما سكت ابن النديم من قبل . ووقف الذهبى عند قوله واستوطن بغداد من صباه[5] . ولم يشأ أن

---

(١) ١٣/١٨ أغانى . ساسى .
(٢) ١٣/٧٠ المصدر السابق .
(٣) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد .
(٤) ٧/٤١٢ تاريخ بغداد .
(٥) ٢٧٥ ب ٩١٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبى . مصور . دار الكتب .

يزيد عليها شيئا . ومن هنا لم نعرف رأيه فى مولد أبى الفرج وأين كان . وكذلك كان موقف ابن شاكر [١] .

إن أول من ذكر هذه المسألة فيما نعتقد هو طاشكبرى زاده . فى كتابه مفتاح السعادة كما سبق أن أشرنا . وهو رجل قد تأخر عن أبى الفرج بأكثر من خمسة قرون .

ونعتقد نحن أن الرجل لم يعتمد على نص صريح واضح وصلة من الأقدمين . وإنما اعتمد على هذه التفسيرات اللغوية . التى نحاول دائما أن نعلل بها بعض المسائل . وهى تفسيرات لا تقطع فى المسائل برأى . خاصة فى مسائل النسبة هذه . فنحن نعلم أن النسبة إلى البلدة . لا تكون للشخص الذى ولد فيها فحسب . فقد تكون لمن مر بها ، أو أقام فيها فترة . ومن هنا قد يكون للشخص أكثر من نسبة . أو يكون له انتساب لأكثر من بلدة . الأمر الذى وقف عنده اصحاب علوم الحديث [٢] . كما قد تكون موروثة الأمر الذى رأيناه فى شأن أبى الفرج . بل قد تكون لغير ذلك . تكون لأن فى الشخص من الخلق والعادة ، أو من الشكل واللون ، ما يؤذن بهذه النسبة . جاء فى الأغانى بصدد ترجمته للعمانى ما يلى « اسمه محمد بن ذؤيب . . . وقيل له العمانى وهو بصرى لأنه كان شديد الصفرة وليس هو ولا أبوه من أهل عمان [٣] . »

لم يتحقق لدينا أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . وإنما الذى تحقق . أن الأسر التى ينتسب اليها كانت تقيم بسر من رأى . وتحقق لدينا أن حركات انتقالها كانت بين سر من رأى وبغداد . كما سنشرح فى الفصل التالى وفى الفصل الأول من الباب الثانى إن شاء الله . وهذا التحقيق التاريخى يجعلنا فى مأمن إن جنحنا إلى القول بأن الرجل قد ولد بسر من رأى حيث كان يقيم الآباء والأجداد .

---

(١) ٤٧٥ عيون التواريخ لابن شاكر . مخطوط . دار الكتب .
(٢) ٤١٧ مقدمة ابن الصلاح . (٣) ١٧/٧٨ أغانى . ساسى .

لانستطيع بعد كل ما تقدم أن نعد أصبهان من الحدود المكانية لحياة أبي الفرج . لا من حيث أنه لم يثبت لنا أنه قد ولد بها فحسب . بل لأنه لم يثبت لنا أيضاً . أنه ذهب إليها حتى وهو كبير . أو أخذ عن شيوخها وهو صغير . أو صورها صورة فنية وهو أديب . ومن هنا جاز لنا أن نتركها ، وأن ننتقل إلى غيرها مما نعتبرها من هذه الحدود .

لأبي الفرج ميزة قد تيسر علينا هذه المهمة . هي أنه كان يذكر في بعض مروياته الأمكنة التي تلقى فيها الخبر ، أو حمل فيها المرويات . وذلك إذا كان المكان غير بغداد في الغالب . كان يذكر هذه الأمكنة مرة ويتركها أخرى . ولعله يفعل ذلك اعتماداً منه على أن القارىء قد فطن إلى المراد .

لا أستطيع في هذا الموقف أن أدعي بأن هذا كان حال أبي الفرج في جميع مروياته . وإنما أستطيع القول بأنه كان يجري على ذلك في بعض المرويات وأن هذا يكفي في تحديد بعض الأمكنة التي زارها أبو الفرج والتي ستنفعنا قطعا في تصوير حياته وتصوير ما كان يتفاعل معه من تيارات .

وأظهر الأمكنة التي زارها أبو الفرج فيما سجله هو في مقاتل الطالبيين . أو في كتاب الأغاني . هي الكوفة فقد التقى فيها أبو الفرج بالكثير من الشيوخ وروى عنهم الكثير من المرويات . من هؤلاء محمد بن عبد الله ابن سليمان الحضرمي[١] . ومحمد بن جعفر القتات[٢] . وعلي بن العباس المقانعي[٣] . والحسين بن أبي الأحوص[٤] . وكثير غيرهم نستطيع أن نعرضهم في عبارات لأبي الفرج نفسه تدلنا على مقامه بهذا المكان .
جاء في الأغاني . حدثني أحمد بن عيسى أبو موسى العجلي العطار

---

(١) ١٤/١٥٧ أغاني سامي ، ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد
(٢) ، (٣) ، (٤) لوحة ٢٧٥ ب تاريخ الاسلام الكبير للذهبي « مصور »

بالكوفة [١] . وجاء حدثنى الحسين بن الطيب الشجاعى البلخى بالكوفة [٢].

وجاء فى كتاب مقاتل الطالبيين حدثنى محمد بن على بن مهدى بالكوفة على سبيل المذاكرة . ونبأنى أحمد بن محمد أستاذه [٣] .

ويكرر أبو الفرج هذه الأسماء وغيرها فى أكثر من موطن . ولأكثر من مناسبة وإذا كان لأثر الثقافة الكوفية فى حياة أبى الفرج موطنه الخاص من البحث . وإذا كان المقصود من هذا الموقف هو التحقيق التاريخى للأمكنة التى ألم بها ، أو أقام فيها . فإن علينا أن نترك هذا الموطن إلى غيره .

نترك الكوفة إلى أنطاكية . وأنطاكية من البلدان التى سجل أبو الفرج زيارته لها فقد جاء فى كتابه الأغانى . أخبرنى عبد الملك بن مسلمه القرشى بأنطاكية قال أخبرنى أبى عن أهلنا أن أرطأة بن سهيه [٤] .

وجاء . أخبرنى أبو المعتصم عاصم بن محمد الشاعر بأنطاكية وبها أنشدنى قصيدة البحترى . . . وأنشدنى لديك الجن يفرى جعفر ابن على الهاشمى [٥] .

ونجد لأبى الفرج زيارات لبعض البلدان الأخرى كالقادسية مثلا . وهى زيارات نلمسها من حديثه عن الشيوخ الرواة . والصفات التى يصفها بهم . وإن كنا لا نستطيع القطع بها . ذلك لأن أبا الفرج لا يحد المسألة هذا التحديد الذى رأيناه فى حديثه عن كل من أنطاكية والكوفة .

يقول أبو الفرج أخبرنى محمد بن الحسين الكندى خطيب مسجد القادسية [٦] . ويقول أخبرنى هاشم بن محمد الخزاعى ومحمد بن الحسين

---

(١) ١٧/٦٨ ، ١٨/١٦٢ ، ١٣/٣٤ . أغانى سامى .
(٢) ١٣/٦٩ المصدر السابق .
(٣) مقاتل الطالبيين . مصر سنة ١٩٤٩
(٤) ١١/١٣٥ أغانى سامى
(٥) ١٢/١٤١ المصدر السابق
(٦) ١٤/٨٥ المصدر السابق

الكندى خطيب المسجد الجامع بالقادسية[١] . وهى أقوال كما ترى تشير ولا تقطع برأى .

وكنا نود أن نحدد الأزمنة التى زار فيها أبو الفرج هذه البلدان. ولكن ذلك لم يتيسر فى دقة . لأن أبا الفرج نفسه لم يحدده . ولأن غيره لم يشر إليه . وكنا نود الاعتماد على تاريخ الرجال الذين أخذ عنهم أبو الفرج فى هذه البلدان . ولكن هذا التاريخ أهمل فى حديث المؤرخين عن بعضهم كذلك الذى يخص أبو المعتصم عاصم بن محمد الأنطاكى[٢] . وذكر وقت الوفاة فقط فى بعضهم الآخر . وهو وقت إن اعتمد عليه . فانه يدل على أن أبا الفرج زار الكوفة وهو صغير الأمر الواضح من إخراجه كتاب مقاتل الطالبيين وهو ثقافة كوفية ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر . الأمر الذى سنذكره بتفصيل عند حديثنا عن أثر الكوفة أو الثقافة الكوفية فى أبى الفرج . من الباب الثانى إن شاء الله .

وأخيراً تجىء البصرة . ويظهر أن زيارة أبى الفرج لها لم تكن إلا آخر حياته . ذلك لأنه قص خبر هذه الزيارة فى كتابه أدب الغرباء . ولعله أن يكون من الخير أن نذكر هذا النص الذى يصور فيه أبو الفرج هذه الزيارة. لما فيه من تعبير صادق عن ذوق أبى الفرج وحسه .

« وكنت انحدرت إلى البصرة منذ سنيات . فلما وردتها . أصعدت من الفيض إلى سكة قريش . أطلب منزلا أسكنه . لأنى كنت غريبا . لا أعرف أحداً من أهلها إلا من كنت أسمع بذكره . فدلنى رجل على خان فصرت إليه . واستأجرت فيه بيتا . وأقمت بالبصرة أياما . ثم خرجت عنها طالبا حصن مهدى . وكتبت هذه الأبيات على حائط البيت الذى أسكنه .

---

(١) ٣٧٣ ، ٣٧٤ معجم الأدباء للدروياني «ط» القدس سنه ١٩٥٤

(٢) ٢١/٣٩ المصدر السابق

الحمد لله على ما أرى ... من صنعتى من بين هذا الورى
أصارنى الدهر إلى حالة ... يعدم فيها الضيف عند القرى
بدلت من بعد الغنى حاجة ... إلى كلاب يلبسون الفرا
أصبح أدم السوق لى مأكلا ... وصار خبز البيت خبز الشرا
وبعد ملكى منزلا مبهجا ... سكنت بيتا من بيوت الكرا
فكيف ألقى لاهيا ضاحكا ... وكيف أحظى بلذيذ الكرا
سبحان من يعلم ما خلفنا ... وبين أيدينا وتحت الثرى
والحمد لله على ما أرى ... وانقطع الخطب وزال المرا [1]

وهو نص يشعر كما ترى بالحالة السيئة التى كان أبو الفرج قد انتهى إليها . كما يشعر بأن الرجل لم يكن يعرف أحداً من أهلها . اللهم إلا أولئك الذين سمع بذكرهم وهذا هو الوضع الذى يفسره ويؤيده أخذ أبى الفرج عن البصريين فقد كان يأخذ عنهم مكاتبة ، وإجازة . الأمر الذى يصوره هو نفسه فى حديثه عن طرق تحمله عن هؤلاء الشيوخ وبخاصة الفضل بن الحباب . جاء فى الأغانى . كتب إلى أبو خليفة . يذكر أن محمد بن سلام حدثه [2] . . . . وجاء أخبرنى أبو خليفة الفضل بن الحباب فى كتاب إلى قال . حدثنا محمد بن سلام [3] . . وجاء أخبرنى أبو خليفة فى كتابه إلى عن محمد بن سلام عن أبى زيد الأنصارى [4] .

ولعلنا لم ننس بعد حديثه عن الإجازة التى جاءته ، وجاءت إلى أبيه عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعه . وكيف أنه كتب إليهما أخباراً . ومنها أخبار أبى شراعه البصرى [5] .

إن المواطن التى زارها أبو الفرج والتى استطعنا أن نحقق أمر زيارته

---

(١) ١١٥ — ١١/١١٧ معجم الأدباء لياقوت «ط» رفاعى
(٢) ١١/١١٠ أغانى بولاق (٤) ١٨/١٤ المصدر السابق
(٣) ١٢/١١ المصدر السابق (٥) ٣٠/٣٥ أغانى ساسى

لها . أو إقامته فيها ، تحقيقا تاريخيا لايشوبه الشك . هى بغداد . والكوفة . وأنطاكية . والبصرة . وحصن مهدى .

وأن المواطن التى نتوقع زيارته لها من حديثه أو من قرائن الأحوال . هى . القادسية ، وسر من رأى . أما غير ذلك فلا نقطع فيه برأى . لا نستطيع أن ندعى مثلا أنه زار حلب لأن قصة أهداء الأغانى لسيف الدولة ليست ثابتة عندنا ولم يصرح هو أو غيره بزيارته لحلب . وكذلك الحال فيما يخص أصبهان . كما سبق أن ذكرنا .

لا نستطيع أن نقطع فى شىء غير المواطن السابقة برأى وإن كنا نستطيع أن نختم هذا الفصل بهذه الجملة التى يصور فيها كاتب مادة أبى الفرج من دائرة المعارف صاحبنا من أنه كان يعيش عيشة الأديب الجوال .

الفصل الثانى

الأسرة ومالها من أثر

من خطتنا فى البحث أن نعمد أولا إلى الظواهر فنقف عليها ونحصيها ثم ننتقل بعد ذلك إلى التفسير والإيضاح . والظواهر المحصاة من حياة أبى الفرج والتى لا بد لنا فى شرحها وتفسيرها من دراسة ذلك الجو الذى كان يعيش فيه ثلاث . ظاهرة سياسية وأخرى اعتقادية والثالثة ثقافية وتتعلق بذلك الميل الخاص نحو رواية الأخبار .

هذه الظواهر اشترك فى تكوينها أو اشترك فى العمل على تنميتها وإبرازها فى حياة أبى الفرج كل من أسرة أبيه وأسرة أمه ومن هنا كان من الواجب علينا أن ندرس كل واحدة من الأسرتين وأن نبين مالها من أثر فى حياة أبى الفرج وفى حديث خاص .

١ — ينتسب أبو الفرج من جهة أبيه إلى الأسرة الأموية . هذا هو الرأى المجمع عليه بين المؤرخين والأدباء . فأبوه هو الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مهران بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبى العاص[1] .

والأسرة الأموية إحدى الأسر العربية العريقة التى يبدأ تارة تاريخها منذ العصر الجاهلى ويبدأ على أنها الأسرة التى كانت تنازع الأسرة الهاشمية السيادة والسلطان .

ليس من حقنا فيما نعتقد أن نمضى مع هذه الأسرة العريقة منذ أقدم العصور فندرس مكانتها فى العصر الجاهلى والدور الذى لعبته فى عصر

---

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد

النبوة ومشاركتها فى الحكم والسياسة فى عصر الخلفاء الراشدين وانفرادها بالحكم حين دالت دولة على وانفرد بالخلافة معاوية بن أبى سفيان .

ليس من حقنا أن نقف لندرس شيئاً من هذا لسببين الأول منهما أن هذه الأحداث لها محلها الخاص من كتب التاريخ الإسلامى وبخاصة السياسى . وإنا لنعرف أنها شغلت بالفعل كثيراً من المؤرخين الذين قصروا أنفسهم على هذه الدراسة وأخرجوا فى ذلك كتبا قد تشبع نهم القراء[١] .

الثانى : أن الذى يهمنا فى هذا الموطن ليس إلا الجوانب التى تشرح وتفسر الظواهر المحصاة من حياة أبى الفرج وهذه الجوانب الشارحة المفسرة إنما تبدأ بزوال الخلافة الأموية ومقتل مروان بن محمد جد أبى الفرج وآخر الخلفاء .

ونحن حين نبدأ من هذه الفترة إنما نبدأ فنذكر تلك الصور الحمراء التى سجلتها كتب التاريخ الإسلامى حين صورت ما فعله العباسيون بالأمويين لاسيما الخلفاء وأبناء الخلفاء .

جاء فى ابن الأثير . (وأمر عبد الله بن على بنبش قبور بنى أمية بدمشق فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد فى القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحا لم يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه فى الريح وتتبع بنى أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس[٢]) .

وجاء فيه أيضا (وقتل سليمان بن على بن عبد الله بن عباس بالبصرة

---

(١) راجع (أ) تاريخ الشعوب لبروكلمان . ترجمة دار العلم للملايين ببيروت .
(ب) تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب .

(٢) ٥/١٧٤ الكامل ط« المطبعة الكبرى سنة ١٢٩٠ هـ

أيضا جماعة من بنى أمية . . . فلما رأى بنو أمية ذلك اشتد خوفهم وتشتت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء[١]) .

وروى أبو الفرج نفسه صوراً من هذه الصور الحمراء أو الصور البشعة المنكرة روى قتل السفاح لوجوه بنى أمية[٢] . وروى تمثيل سليمان بن على بهم بالبصرة ، أخبرنى أحمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثنى على بن محمد ابن سليمان النوفلى عن أبيه عن عمومته أنهم حضروا سليمان بن على بالبصرة وقد حضره جماعة من بنى أمية عليهم الثياب الموشية المونقه فكأنى أنظر إلى أحدهم وقد اسود شيب فى عارضيه من الغاليه فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فألقوا على الطريق وأن عليهم لسراويلات الوشى والكلاب تجر بأرجلهم[٣] .

هذه الصور من الاضطهاد لم تقف عند حد تأسيس الدولة وإنما مضت طوال حكم بنى العباس حتى لنجد المعتضد الخليفة العباسى يصدر عام أربع وثمانين ومائتين وهو العام الذى ولد فيه أبو الفرج منشوراً يصور لنا ذلك العداء التقليدى بين أمية وهاشم أو بين الأسرة الأموية وخلفاء بنى العباس وهو المنشور الذى حفظ لنا الطبرى صورته[٤] . والذى جاء فيـــه (. . . اللهم العن أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ويزيد بن معاوية ومروان ابن الحكم وولده . اللهم العن أئمة الكفر وقادة الضلالة وأعداء الدين ومجاهدى الرسول ومغيرى الأحكام ومبدلى الكتاب وسفاكى الدم الحرام. اللهم إنا نتبرأ إليك من موالاة أعدائك ومن الاغماض لأهل معصيتك كما قلت ، لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . أيها الناس اعرفوا الحق تعرفوا أهله وتأملوا سبل الضلالة تعرفوا

---

(١) ٥/١٧٥ المصدر السابق

(٢) ٩١ ـ ٤/٩٣ الأغانى سامى . (٣) المصدر السابق ٤/٩٤

(٤) ٢١٦٦ ـ ٤/٢١٧٧ الطبرى ، المجلد الثالث «ط» أوروبا .

سابلها فإنه إنما يبين عن الناس أعمالهم ويلحقهم بالضلال والصلاح آباؤهم فلا يأخذكم فى الله لومة لائم (١).

هذه الحالة المزعجة التى تقوم على أمثال ما قام به العباسيون من قتل وفتك ومصادرة للأموال والأرزاق لا توجد أبداً بين قوى قاهر وضعيف عاجز إلا ووجد معها دائماً بعض هذه الحالات .

الأولى : الهجرة وترك البلاد التى يفعل فيها الأقوياء ما يشاءون . وتكون هذه الهجرة أوجب وألزم حين يكون الأقوياء من أصحاب النفوذ والسلطان كالخلفاء والولاة والوزراء .

الثانية : البقاء مع القدرة على التنكر والاختفاء عن أعين السلطان والبعد عن كل ما يلفت الذهن أو يبعث الشك والريبة ومن هنا يحاول الضعفاء دائما فى أمثال هذه البيئات البعد عن المشاركة فى أى نشاط سياسى ظاهرى حتى لا يكون العسف والعنت والاضطهاد .

الثالثة : وهى حالة أهم من الحالات السابقة . حالة النشاط الذى يدور فى خفاء فان الضعفاء يعمدون إليه لإحساسهم بأنه الوسيلة الوحيدة التى تمكنهم من القصاص ومن هنا نراهم يصادقون كل عدو للنظام ويعطفون على الخارج عليه فيكيدون للدولة سراً ماداموا قد عجزوا عن هذا الكيد فى وضح النهار . وهم بذلك يشفون أنفسهم مما تجد ويرضون غرائزهم تلك التى تدفعهم إلى الانتقام من الأعداء .

هذه الحالات وجدت فيما نرى فى حياة الأسرة الأموية بعد هزيمتها واضطهادها والفتك بأفرادها . فالهجرة إلى الأندلس حقيقة تاريخية مقررة وواقع تاريخى ملموس وأن آثارهم لتدل عليهم وليس منا من يستطيع أن ينكر وجود هذه الآثار .

والاختفاء عن أعين السلطان أمر تشهد به هذه البيئات .

---

(١) ٤/٢١٧٦ المصدر السابق .

(ا) ذلك التنكر الذى يظهر فى اتخاذ ألقاب غير مشيرة إلى الصلة العائلية بالأسرة الأموية كلقب الأصفهانى ذلك الذى اشتهر به أبو الفرج واشتهر به غيره من أفراد أسرته كجده وعمه وابن عمه الأمر الذى أثبتناه فى الفصل الأول من هذا الباب .

(ب) ذلك التنكر الذى يشتهر فى اتخاذ حرف وألقاب مهنية كذلك الذى يثبته النص التالى . (محمد بن الوليد الأموى الخياط المدينى روى عن أبى عيينه وهشام بن سليمان . حكى ابنه عنه أنه قال أنا من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ولا تخبر به أحداً فإنى رجل خياط وإياك أن يسمع منك أحد (١) .

(ح) ابتعاد الأمويين عن المشاركة فى السياسة ومن هنا تخلو كتب التاريخ من الحديث عن الأمويين على أنهم من العمال أو من رجال الدولة الذين يقومون ببعض الأعمال للسلطان ولعل ذلك هو الذى يفسر لنا لماذا لم يكن أبو الفرج نديما أو مؤدبا للخلفاء وأبناء الخلفاء .

أما الحالة الثالثة التى يدور بها النشاط فى خفاء فتثبتها النصوص الكثيرة التى توضح ما كان بين الطالبين والأمويين من جمال الصلة وحسن الجوار وهما أمران يظهران منذ التحضير والإعداد لقيام الخلافة العباسية .

جاء فى مقاتل الطالبيين (. . . وحدثنى الحرث بن إسحاق أن مروان لما بعث عبد الملك بن عطية السعدى لقتال الحرورية لقيه أهل المدينة سوى عبد الله ابن الحسن وابنيه محمد وابراهيم فكتب بذلك إلى مروان وكتب اليه أنى هممت بضرب أعناقهم فكتب إليه مروان ألا تعرض لعبد الله ولا لابنيه فليسوا بأصحابنا الذين يقاتلونا أو يظهرون علينا .

قال أبو زيد وحدثنى عيسى بن عبد الله عن أبيه قال . أرسل مروان ابن محمد إلى عبد الله بن الحسن بعشرة آلاف دينار وقال له اكفف عنى

---

(١) ٢/١٨٢ أخبار أصبهان لأبى نعيم .

إبنيك وكتب إلى عامله بالمدينة أن استتر بثوب منك فلا تكشف عنه وإن كان جالسا على جدار فلا ترفع رأسك إليه .

أخبرنى عيسى بن الحسين قال حدثنا أحمد بن الحرث عن المدائنى قال بلغنى أن عبدالملك بن عقبة اجتاز بحاج مشرف على الطريق ومحمد بن عبدالله ابن الحسن مطلع من خوخه فقال رجل لابن عطيه ارفع رأسك فانظر إلى محمد بن عبد الله بن الحسن فطأطأ رأسه وقال للرجل إن أمير المؤمنين — يعنى مروان بن محمد — قال لى أن أستتر منك بثوب فلا تكشف عنه وإن كان جالسا على جدار فلا ترفع رأسك إليه ومضى (١) .

وجاء فيه أيضا (حدثنى حكيم بن يحيى قال كان الحسين بن الحسين بن يزيد شيخ بنى هاشم وذا قعدوهم وكانت الأموال تحمل إليه من الآفاق . قال فاجتمعنا يوما عند جدك أبى الحسن محمد بن أحمد الأصفهانى وجماعة من الطالبيين فيهم الحسين بن الحسين بن يزيد بن على . ومحمد بن على بن حمزه العلوى العباسى وأبو هاشم داوود بن القاسم الجعفرى فقال جدك للحسين يا أبا عبد الله أنت أقعد ولد رسول الله صلى الله عليه وآله كلهم وأبو هاشم أقعد ولد جعفر وأنتما شيخا آل رسول الله صلى الله عليه وآله وجعل يدعو لهما بالبقاء . قال فنفس محمد بن على بن حمزة ذلك عليهما فقال له يا أبا الحسن وما ينفعهما من القعدد فى هذا الزمان ولو طالبا عليه من أهل العصر باقة بقل ما أعطياها . قال فغضب الحسين بن الحسين من ذلك ثم قال لى . تقول هذا . فوالله ما أحب أن نسبى أبعد مما هو بأب واحد يبعدنى من رسول الله صلى الله عليه وآله وأن الدنيا بحذافيرها لى (٢)).

وجاء فى المستجاد (حدث القاضى أبو القاسم على بن الحسين بن على التنوخى فى كتاب الفرج بعد الشدة . حدثنى أبو الفرج على بن الحسين الأصبهانى

---

(١) ٢٥٨ ، ٢٥٩ . مقاتل الطالبيين «مصر» سنة ١٩٤٩ .

(٢) ١٤٩ — ١٥٢ المستجاد للتنوخى . دمشق سنة ١٩٤٦ .

قال كان محمد بن زيد العلوى الداعى بطبرستان إذا افتتح الخراج نظر ما فى بيت المال من خراج السنة التى قبلها وفرقه فى قبائل قريش على دعوتهم وفى الأنصار وفى الفقهاء وأهل القرآن وسائر طبقات الناس إلى أن يفرق جميع ما بقى . فجلس سنة من السنين يفرق مثل ذلك على عادته فلما بدأ ببنى عبد مناف وقد فرغ من بنى هاشم دعا سائر بنى عبد مناف فقام إليه رجل فقال . من أى بنى عبد مناف أنت ؟ قال من بنى أمية. قال من أيهم أنت؟ فسكت. قال لعلك من ولد يزيد ؟ قال . نعم قال بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلداً ولاية آل أبى طالب وعندك ثأرهم فى سيدهم وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك فان كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك جهل . وإن كنت جئت مستهزئا بهم فقد خاطرت بنفسك . فنظر إليه العلويون نظراً شديداً فصاح بهم محمد وقال . كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون أن فى قتل هذا دركا أو ثأر اللحسين ابن على . وأى جرم لهذا . إن الله تعالى قد حرم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت والله لا يعرض له أحد إلا أقدته به واسمعوا حديثا أحدثكم به يكون لكم قدوة فيما تستأنفون حدثنى أبى عن أبيه قال[1]) .

ويمضى فى سرد قصة أخرى هى التى جعلها دستوره فى هذه القصة الماضية وهى قصة تثبت حقا هذه الصلة التى كان ينشدها الأمويون والعلويون فى هذه الأيام .

وواضح أن النصين الأولين يثبتان رأى الأمويين فى العلويين وما كان بينهم وبينهم من حسن الصلة والجوار .

وواضح أن النص الأخير ما ذكر منه وما لم يذكر يثبت ما كان يعد له الطالبيون أنفسهم من العفو عن بنى أمية ونسيان ما كان .

هذه الحالات فعلت فعلها فى نفس أبى الفرج فكان منه تشيع وكان منه

(١) ١٤٩ — ١٥٢ المستجاد للنوخى . دمشق سنة ١٩٤٦ .

تأليف فى مقاتل الطالبيين الأمر الذى سنراه واضحا فى الباب الثانى إن شاء الله .

أعتقد أنا وضعنا أيدينا على البذور الأولى التى كانت منها ظواهر سياسية معينة من حياة أبى الفرج وأنا نستطيع أن نترك ذلك الجو السياسى لأسرة الأب وننتقل إلى مافى الأسرة من ظواهر ثقافية أثرت هى الأخرى بدورها فى حياة أبى الفرج حيث أوجدت فيه ميلا خاصا نحو رواية التاريخ والأخبار .

والأشخاص الذين يمكن أن نعتمد عليهم فى الكشف عن هذا الميل وفى بيانه وكيف وجد فى أبى الفرج هم . محمد بن أحمد الأصبهانى جده ، عبدالعزيز بن أحمد عم أبيه ، الحسن بن محمد الأصبهانى عمه ، أبو عبد الله أحمد بن الحسن الأصبهانى ابن عمه ، الحسين بن محمد الأصبهانى أبوه

نعم نحن نعلم أن هناك أحمد بن الهيثم جد أبيه ونعلم أنه كان من المقيمين بسر من رأى وكان من المعاصرين لاسحاق بن إبراهيم الموصلى لكنه لن يفيدنا فى هذا الموطن لأنه ليس من رواة الأخبار[1].

وكتب التراجم التى استطعنا الوقوف عليها تهمل أمر هؤلاء جميعا اللهم إلا الحسن بن محمد فقد ورد له ذكر فى كتاب تاريخ بغداد إذ قال عنه الخطيب « الحسن بن محمد بن أحمد بن الهيثم الأموى عم أبى الفرج على بن الحسين المعروف بالأصبهانى حدث عن عمر بن شبه وعبد الله بن أبى سعد الوراق . روى عنه ابن أخيه أبو الفرج[2] » .

كما نجد له ولعمه عبد العزيز بن أحمد ذكرا فى كتاب الجمهرة حيث يذكر ابن حزم أنهما كانا من كبار الكتاب بسر من رأى أيام المتوكل[3] .

غير أن هذا كله لا يكشف عن شى من حقيقة هاتين الشخصيتين ومالها من ميول ثقافية واتجاهات فنية وأدبية .

---

(١) ٢ ، ٢١/٣ أغانى ساسى . (٢) ٧/٤١٧ تاريخ بغداد .
(٣) ٩٩/٩٨ جمهرة النسب لابن حزم .

إن سبيلنا إلى كل هؤلاء ليست إلا ما رواه أبو الفرج نفسه من أخبار.

وأوضح هذه الشخصيات من حيث الأخبار التى تدور حولها لا التى تؤخذ عنها شخصية أبى الحسن محمد بن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج فهو رجل كان يعيش حتما فى الربعين الثانى والثالث من القرن الثالث الهجرى وذلك لأن أبا الفرج يروى لنا عن طريق عمه فجده . أحداثا وقعت له مع محمد ابن عبد الملك الزيات وابراهيم بن العباس الصولى كما يروى لنا أحداثا وقعت له مع الوزير عبيد الله بن سليمان فى خلافة المعتضد .

جاء فى الأغانى « أخبرنى عمى قال حدثنى أبى قال سمعت محمد بن عبد الملك الزيات يقول أشعر الناس طرا الذى يقول :

وما أبالى وخير القول أصدقه حقنت لى ماء وجهى أوحقنت دمى

فأحببت أن استثبت ابراهيم بن العباس وكان فى نفسى أعلم من محمد وآدب فجلست إليه وكنت أجرى عنده مجرى الولد فقلت له من أشعر أهل زماننا هذا فقال الذى يقول :

مطر أبوك أبو أهلة وائل ملأ البسيطة عدة وعديدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدوداً فى العلى وجدودا

فاتفقنا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه [1].

وجاء فيه « حدثنى عمى عن جدى رحمهما الله قال . قال عبيد الله بن سليمان وكان يأنس بى أنسا شديداً لقديم الصحبة وائتلاف المنشأ . دعانى المعتضد يوما فقال ألا تعاتب بدرا على ما لا يزال يستعمله من التخرق فى النفقات والإنابات والزيادات والصلات وجعل يؤكد القول على فى ذلك فلم أخرج عن حضرته حتى دخل إليه بدر فجعل يستأمره فى إطلاقات مسرفة ونفقات واسعة وصلات سيئة وهو يأذن له فى ذلك كله فلما خرج رأى فى

---

(١) ٩٦ ، ١٥/٩٧ أغانى (ساسى) .

وجهى إنكاراً لما فعله بعد ما جرى بينى وبينه فقال لى يا عبيد الله قد عرفت ما فى نفسك وأنا وإياه كما قال الشاعر :

فى وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب مطاع حيثما شفعا
مستقبل بالذى يهوى وإن كثرت ... منه الإساءة مغفور لما صنعا (١)

ونحن نعلم أن محمد بن عبد الملك الزيات قد توفى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول (٢) . وأن عبيد الله بن سليمان ولى الوزارة فى أيام المعتضد للمرة الثانية وكان ذلك سنة تسع وسبعين ومائتين (٣) . وليس من شك فى أن محمد بن أحمد الأصبهانى قد سمع هذا الشعر من محمد بن عبد الملك الزيات وهو بحيث يسمع ويعى ويحفظ ويوازن بين الرجال ولن يكون ذلك إلا إذا كان قد جاوز العاشرة على أقل تقدير .

ولقد ولد محمد بن أحمد الأصبهانى فيما نعتقد حوالى سنة عشرين ومائتين.

وجد أبى الفرج كان يعيش بسر من رأى موطن إقامة محمد بن عبد الملك وإبراهيم ابن العباس وعبيد الله بن سليمان ووالده أحمد بن الهيثم .

وهو رجل له مقامه فى المجتمع فيقوم من ابراهيم بن العباس وهو من هو مقام الولد ويأنس به أنسا شديداً وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان ويجتمع فى منزله علية القوم من الطالبيين والعلويين والعباسيين من أمثال الحسين بن الحسين بن زيد بن على وأبى هاشم داوود بن القاسم الجعفرى ومحمد بن على بن حمزة العلوى العباسى (٤).

ثم هذا الجد لا يروى عن غيره وإنما يروى ما شاهده بنفسه وهو من هذه الناحية راو أصيل ومروياته لها قيمتها الإخبارية ودلالتها التاريخية على ما يشاهده من أحداث .

---

(١) ٣٢ ، ٩/٣٣ أغانى . سامى (٢) ٧/١٤ ابن الأثير ، ٢/٧٨ شذرات الذهب
(٣) ٧/١٦٣ ابن الأثير . ط سنة ١٢٩٠ هـ
(٤) ٩٦٨ مقاتل الطالبيين « مصر سنة ١٩٤٩

ومحمد بن أحمد الأصبهانى له ميله الأدبى فهو رجل يسمع الشعر فيحفظه ويسمع الحكم الأدبى فيحرص عليه ويحاول أن يستوثق فيه ممن يعتقد أنه من كبار النقاد وهو إلى ذلك رجل له رأيه الخاص فى النقاد فيفاضل بين كبيرين من كتاب الدولة ويرى أن إبراهيم بن العباس أعلم وآدب من محمد بن عبد الملك الزيات .

هذه هى الجوانب التى نلمحها من بين ثنايا السطور . وهى جوانب لا تكشف عن صورة هذه الشخصية ويكفى أنها توضح بعض المعالم وتهدى إلى أول الطريق .

وإذا ما تركنا شخصية الجد إلى شخصية الأب خيل إلينا أنا نعمل فى ظلام ذلك لأنها شخصية غامضة مبهمة لا تكشف عنها النصوص فى شىء ولا تثبت لنا أنها شخصية راو من رواة الأخبار وراو لا نعلم عنه أكثر من إسمه ولا أكثر من الخبر بأنه من رواة الأخبار .

ورواية أبى الفرج لأبيه نادرة جداً حتى لتكاد أن تكون فى حكم العدم ويكفى أن تعلم أنا لم نقف فى ذلك إلا على خبر واحد وأن هذا الخبر قد شاركه فى روايته شخص آخر هو الحسن بن على[1].

غير أن هذه الندرة التى تعتبر من حيث العدد فى حكم العدم لا تنفى أثر ذلك الأب فى وجود الميل التاريخى عند أبى الفرج بحال من الأحوال ذلك لأنه لا ارتباط مطلقا بين الكثرة والقلة والتأثير وعدم التأثير .

إن قلة المرويات تعلل بأكثر من سبب فقد تكون لأن الحسين بن محمد قد مات مبكراً ومات بعد أن أوجد الميل التاريخى فى نفس إبنه وعمل على تنميته إذكان الرجل لا يزال حيا حينما بلغ ابنه من العمر ست عشرة سنة ولم يكن بعد قد فارق الحياة .

وقد تكون لأن أبا الفرج يحب العلو فى السند وأنه من هنا كان يأخذ

---

(١) ١٢/٥ أغانى ساسى .

عن الشيوخ الذين كان يأخذ عنهم والده وتلك هى الحالة التى يثبتها أخذهما سويا عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعة[1] .

وقد تكون غير هذين لكنها على كل حال لا تنفى التأثير لأنه يكفى أن يهتم الرجل بالتاريخ وبرواية الأخبار حتى يكون له أثره فى نفس إبنه الذى يعيش معه ويجعل منه مثله الأعلى فى بعض الأحيان .

لقد كان الحسين بن محمد من رواة الأخبار وكان ابنه علياً من رواة الأخبار وهذا وحده كاف فى إثبات الأثر وفى إيجاد الميل وليس من اللازم أن يأخذ عنه لنجعل هذا الأخذ هو الدليل الوحيد على ما ورث الرجل ابنه من ميول نحو التاريخ والأخبار .

ويأتى مع هذا فى الغموض والخفاء وفى قلة المرويات أبو عبد الله أحمد ابن الحسن بن محمد الأصبهانى ابن عم أبى الفرج فشخصيته غامضة والمرويات التى أخذت عنه لا تتجاوز الخبرين فيما نعلم[2] . ولا نستطيع أن نتمسك فى هذا المقام بالقول بأن أحمد هذا كان واحداً من الذين أوجدوا الميل التاريخى فى نفس أبى الفرج لأنه كان فيما نعتقد أحد الأقران . ولعل هذا هو السر فى قلة المرويات التى يأخذها أبو الفرج عنه والشىء الوحيد الذى نحرص عليه هنا أن أحمد بن الحسن الأصفهانى واحد من الأدلة التى تثبت أن الميل إلى رواية التاريخ والأخبار صفة يتوارثها فى هذه العائلة الأبناء عن الآباء .

ويبقى من هذه العائلة رجلان . أحدهما عبد العزيز بن أحمد والثانى الحسن بن محمد بن أحمد وهما بحق من فضلاء الرواة الذين اعتمد عليهم أبو الفرج فى مروياته . ولا يذكر أبو الفرج الأول منهما إلا ويذكر معه نوع القرابة وهى أنه عم أبيه .

وعبد العزيز بن أحمد طريق أبى الفرج إلى شيوخ لهم خطرهم فى ميدان

---

(١) ٢٠/٣٥ أغانى . ساسى .

(٢) ١٥/١٠٢ ، ١٦/١٥١ . أغانى ساسى .

الرواية التاريخية ورواية الأخبار فهو طريقه إلى الرياشي[١] وأحمد بن يحيى ثعلب[٢] وأحمد بن الحرث الخراز[٣]. والزبير بن بكار[٤]

وأبو الفرج يروى عنه أحياناً بعض مشاهداته التى رآها بعينه أو سمعها بأذنه وذلك من أمثال ما شاهده من أحوال أبى العبر[٥] . وما سمعه من الحامض[٦] وعبد العزيز بن أحمد كان يقيم بسر من رأى مع والده أحمد بن الهيثم أو مع أخيه محمد بن أحمد وهذا هو الذى يدل عليه ما ذكره ابن حزم من أنه كان من كبار الكتاب بسر من رأى أيام المتوكل ويدل عليه أيضا ماذكره من حالات أبى العبر وما رواه مما سمعه من الحامض .

ومرويات أبى الفرج عن عم أبيه قليلة إذا قيست بتلك التى رواها عن عمه والأخبار التى رواها عن عم أبيه لا تتجاوز العشرة فيما نعلم ويظهر أن هذه القلة إنما ترجع إلى أن المدة التى اشتغل فيها أبو الفرج برواية الأخبار وكان عم أبيه هذا لا يزال حياً لم تكن طويلة بالقدر الذى يمكنه من الأخذ الكثير عنه أو إلى أن أبا الفرج كان يأخذ أيضا عن أقران عم أبيه من أمثال محمد بن جرير الطبرى ومحمد بن الحسين الكندى وهاشم بن محمد الخزاعى ومحمد بن العباس اليزيدى والطوسى وغيرهم ممن كان الرجل يأخذ معهم عن الشيوخ السابق ذكرهم من أمثال الرياشى والزبير بن بكار[٧] ومن هنا كان يكتفى بالأخذ عن هؤلاء ويهمل الأخذ عن عم أبيه لا سيما وقد كان عبد العزيز بسر من رأى وأبو الفرج ببغداد .

ولا يظهر لنا من ميول هذا الرجل الأدبية أو صفاته الخلقية أو الخلقية شيء . ومن هنا نتركه إلى شيخ أبى الفرج من هذه العائلة وهو الحسن بن محمد الأصبهانى .

---

(١) ٧/٣٧ ، ١٩/٤ المصدر السابق.
(٢) ٣/١٨٤ المصدر السابق
(٣) ٨/١٤٩ المصدر السابق
(٤) ٨/٩٠ ، ١٥/٣٢ المصدر السابق
(٥) ٢٠/٩٠١ المصدر السابق
(٦) ٢٠/٢٠ المصدر السابق
(٧) راجع ٨/٩٠ ، ٩١/٤ أغانى . سامى

والحسن بن محمد أكبر أبناء محمد بن أحمد الأصبهانى فيما يظهر فقد كان الرجل يكنى بأبى الحسن[١] . وقد ولد الحسن حوالى سنة أربعين ومائتين وذلك هو الواضح من تلك الأخبار التى يرويها أبو الفرج عن عمه والتى يقص فيها ما شاهده من أحوال أبى العبر فقد توفى أبو العبر سنة خمسين ومائتين[٢] . وقد كان الحسن بن محمد فى سن تأذن له بالتحمل

وولد الحسن بسر من رأى حيث كان منزل الأسرة وحيث كان يقيم أبوه محمد بن أحمد الأصبهانى وعمه عبد العزيز بن أحمد . ثم هذا هو الواضح من حديثه عن مشاهداته التى رواها لنا عنه أبو الفرج وهى المشاهدات التى شاهدها وهو صغير[٣] . وقد عمر الحسن إلى ما بعد الثلاثمائة حيث التقى به ابن أخيه أبو الفرج وروى عنه الكثير من الأخبار . وحدود الثلاثمائة هى السن التى بدأ فيها أبو الفرج يطلب العلم ويسجل الأخبار[٤] .

والحسن بن محمد الأصفهانى أكثر أفراد هذه العائلة عدد مرويات فالأخبار التى رواها عنه أبو الفرج كثيرة إلى الحد الذى يسمح لنا بالقول بأنه كان واحداً من شيوخ أبى الفرج . ولعل الحسن هذا يفوق الكثيرين ممن عددهم المؤرخون من شيوخ أبى الفرج من أمثال ابن دريد وأبى خليفه وابراهيم بن عرفه وأبى بكر الأنبارى وعلى بن سليمان الأخفش[٥] من حيث عدد المرويات .

وأثر الحسن فى كتاب الأغانى لاسيما فى الفقرات التى تروى فيها أخبار الشعر والشعراء من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أن نقف لنثبتها فاسمه يرد فى كل ترجمة تقريبا لكثير من الشعراء كما يرد فى مواطن كثيرة من ترجمة أبى الفرج للمغنين وبخاصة أولئك الذين اتصلوا بالقصور فى سر من رأى . ومن المقطوع به عندنا أن هناك صفحات كثيرة من كتاب الأغانى قد رويت بجملتها

---

(١) ٦٩٨ مقاتل الطالبيين . مصر (٢) ١١٧ الفهرست لابن النديم
(٣) ٢٠/٩١ أغانى . ساسى (٤) ٤/٢٢١ لسان الميزان ، ٢/٢٣٣ ميزان الاعتدال
(٥) ١٣/٩٥ معجم الأدباء رفاعى .

عن الحسن بن محمد الأصبهانى عم أبى الفرج[١] وأن هناك شعراء قد رويت أكثر أخبارهم عن الحسن والقليل الباقى عن غيره من شيوخ الرواة[٢] .

وللحسن بصر بالشعر لاسيما من حيث المعانى أو من حيث أخذ الشعراء بعضهم عن بعض . يقول أبو الفرج أنشدت عمى رحمه الله أبياتا لابن دريد يمدح رجلا من أهل البصرة :

يامن يقبل كف كل مخرق ... هذا ابن يحى ليس بالمخراق
قبل أنامله فلسن أنامله ... لكنهن مفاتح الأرزاق

فقال يابنى هذا سرقة وابن الرومى جميعا من ابراهيم بن العباس . قال ابراهيم بن العباس يمدح الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد ... تقاصر عنها الأمل
فباطنها للنـــدى ... وظاهرهـا للقبل
وبسطتها للغنى ... وسطوتها للآجل

وسرقه ابن الرومى فقال :

أصبحت بين خصاصة ومذلة ... والحمد بينهما يموت هزيلا
فأمدد إلى يدا تعود بطنهـا ... بذل الندى وظهورها التقبيلا[٣]

وللحسن هوى مع ابراهيم بن العباس ولعل مبعثه تلك العاطفة التى كان يكنها محمد بن أحمد الأصبهانى والد الحسن وجد أبى الفرج لابراهيم فقد كان يراه كما سبق أن ذكرنا آدب وأعلم من محمد بن عبد الملك الزيات . وهذه العاطفة أو هذا الهوى يظهر من النص السابق كما يظهر من هذا الخبر الذى يقص فيه الحسن قصة هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات وابن برد الخيار. وهو « اخبرنى عمى قال اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن

---

(١) ١٠٦ — ٩/١١٢ ، ١٧ — ١٢/٢٤ أغانى .

(٢) راجع أخبار الصمة القشيرى ، عبد الله بن العباس الربيعى ، محمد بن بشير ، وعلى ابن الجهم ، ، ومنصور النمرى .

(٣) ٩/٢٨ أغانى . سامى .

برد الخيار فى مجلس عبيد الله بن سليمان قبل وفاته فجعل هارون ينشد من أشعار أبيه محاسنها ويفصلها ويقدمها فقال له ابن برد الخيار إن كان لأبيك مثل قول ابراهيم بن العباس :

أسد ضار إذا هيجته ... وأب بر إذا ما قدرا
يعرف الأبعد أن أثرى ولا ... يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

أو مثل قوله :

تلح السنون بيوتهم وترى لهم ... عن جار بيتهم أزورار مناكب
وتراهم بسيوفهم وشفارهم ... مستشرفين لراغب أو راهب
حامين أو قارين حيث لقيتهم ... نهب الصفاة ونهزة للراغب

فاذكروا فخر به وإلا فاقلل من الافتخار والتطاول بما لا طائل فيه فخجل هارون (١)

فاهتمام الحسن بشعر ابراهيم وروايته لما فيه من مزايا ولما له من فضل لا تفسر إلا بذلك الهوى الذى عرف للأب قبل الابن .

والحسن من أبناء سر من رأى الذين زاروا بغداد طلبا للعلم وترجم له الخطيب فيمن ترجم لهم من علمائها وزائريها(٢) . وهى ترجمة قصيرة كما سبق أن ذكرنا أول هذا الفصل . ثم هو من الكتاب ومن كبار الكتاب كما يذكر ابن حزم فى جمهرة النسب وكما سبق أن ذكرنا أيضا .

والشيوخ الذين يأخذ عنهم الحسن وأن يكن الكثير من مروياته عن شيوخ لا نعرف من أمرهم شيئا أو لا نعرف عنهم إلا جملة قد تكون غامضة مبهمة من أمثال محمد بن سعد الكرانى . وعبد الله بن أبى سعد الوراق . ومحمد بن القاسم بن مهرويه .

ويأخذ الحسن عن شيوخ بغداد وشيوخ سر من رأى وإن كان أثر الأخيرة أوضح وأبين من أثر الأولى لا بالنسبة إلى عدد المرويات فحسب بل بالنسبة إلى الشيوخ وإلى الأحداث فهو يروى عن هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات ويروى عن أبى العيناء وعن ابن برد الخيار وعن محمد

(١) ٩/٣١ المصدر السابق .
(٢) ٧/٤١٧ تاريخ بغداد .

ابن داود الجراح وعن عمر بن شبه وكل هؤلاء أقاموا بسر من رأى وتوفى الكثيرون منهم فيها ومعظم الأحداث التى يرويها عنهم — إن كانوا من مشاهديها — قد وقعت بسر من رأى ولعله لم يلق الثلاثة الأولين فى غيرها من المدن .

هؤلاء هم النفر الذين وقفنا على شىء من أخبارهم وكان لهم أثر فى حياة أبى الفرج من تلك الأسرة التى ينتسب إليها من جهة أبيه . ولعلنا أن نكون بعرض ما وصلنا من تاريخهم قد وقفنا إلى بيان شىء من الجو الذى كانت تعيش فيه هذه الأسرة ولاسيما الجو السياسى والجو الثقافى . واعتقد أنا قد وصلنا من ذلك إلى ما يمكن ومن هنا نستبيح لأنفسنا الانتقال إلى الأسرة الثانية التى أثرت فى أبى الفرج وهى أسرة أمه فلعل هذا الانتقال أن يوضح بعض الأمور ويفسر بعض الظاهرات .

(ب) وينتسب أبو الفرج من جهة أمه إلى آل ثوابه . فجده لأمه هو يحيى بن ثوابه[1] . وينفرد أبو الفرج بذكر هذه الحقيقة فلم نقع عليها فى غير كتاب الأغانى حتى لقد خيل إلينا أنه لم يلتفت أحد من قبل إلى هذه المسألة

ولولا أن أبا الفرج نفسه هو الذى يذكرها ولولا أنه كررها فى كثير من المواطن حتى أنه لم يذكر يحيى بن محمد بن ثوابه حين يذكر لنا أنه ينسخ من كتابه إلا وينص على أنه جده لأمه[2] . لولا كل هذا لكان لنا من هذه الحقيقة موقف آخر ولعله أن يكون موقف الإنكار .

والحديث عن آل ثوابه يتطلب شيئا غير قليل من الدقة والحذر ذلك لأن الصلة بين يحيى بن محمد بن ثوابه وبين شخصين آخرين باسمه هما أحمد بن محمد بن ثوابه وجعفر بن محمد بن ثوابه غير قائمة فى الكتب أو غير منصوص عليها من الأدباء والمؤرخين ولى نستثنى من ذلك أبا الفرج نفسه فهو أيضا

---

(١) ١٠/١٤٩ ، ١٣/٣٢ ، ١٥/١٠٦ . أغانى . ساسى

(٢) راجع إلى جانب ما تقدم ٨/٢٢ ، ١٣/٨ ، ١٧/١٢١ . المصدر السابق .

لم يذكر لنا شيئا عن هذه الصلة التى كان من الممكن أن توضح لنا المسألة فيما يخص أسرة أمه حتى تربط بين يحيى وبين الأخوين أحمد وجعفر .

على أن هذا الحذر وتلك الدقة قد يهونان لولا تلك المسألة التى تعقد الأمور وتزيدها غموضا وإبهاما وهى أن إسم يحيى بن محمد بن ثوابه لم يرد فيما نعلم فى غير كتاب الأغانى فلم يذكره ذاكر ممن قرأنا كتبهم ورجعنا إلى أخبارهم ممن تناول آل ثوابه بالتاريخ .

إن هؤلاء الثلاثة يحيى بن محمد بن ثوابه وأحمد بن محمد بن ثوابه وجعفر بن محمد بن ثوابه كانوا من الكتاب وكانوا فى عصر واحد وفى زمن واحد وتوفوا جميعا فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى .

كان أحمد من كتاب الديوان فى أيام المهتدى وله مع الخليفة ومع وزيره سليمان بن وهب أحداث يروى أخبارها أبو الفرج فى كتاب الأغانى(١) . ثم إنه كان واحدا من أولئك النفر الذين أباح المهتدى دماءهم الحسن بن مخلد وسليمان بن وهب وأحمد بن ثوابه وذلك سنة ست وخمسين ومائتين(٢) . وقد توفى أحمد هذا سنة سبع وسبعين ومائتين (٣) . أو سنة ثلاث وسبعين ومائتين(٤) على خلاف فى ذلك بين الصولى وابن النديم .

وكان جعفر متوليا لديوان الرسائل فى أيام عبيد الله بن سليمان(٥) وله إلى عبيدالله هذا رقعة هى السبب فى جعله واحدا من كتاب الديوان وهى رقعة روى أكثرها التنوخى فى كتاب نشوار المحاضرة(٦) وقد توفى جعفر بن محمد بن ثوابه بالرى سنة أربع وثمانين ومائتين(٧) .

أما يحيى بن محمد بن ثوابه فقد كان جد أبى الفرج لأمه وإذا كان أبو الفرج

---

(١) ٢٠/٦٩ أغانى ساسى (٢) ص١٨٣٢ المجلد الثالث ــ ٣ الطبرى . ط أوربا
(٣) ١٨٨ الفهرست لابن النديم . مصر
(٤) ٤/١٤٤ معجم الأدباء لياقوت . ط رفاعى (٥) ٤/١٤٦ المصدر السابق
(٦) ٨٣ ، ٨/٨٤ نشوار المحاضرة . دمشق
(٧) لوحة ٦٨ الوافى بالوفيات : مصورة رقم ١٢١٩ تاريخ . دار الكتب

قد ولد سنة أربع وثمانين ومائتين فليس من يعارض فى أنه كان من رجال القرن الثالث الهجرى . ثم كان من الكتاب ذلك هو الأمر الذى يدل عليه ذلك الخبر الذى يرويه عنه ابن مهرويه ويرويه عن ابن مهروية لأبى الفرج شيخه الحسن بن على . وهذا هو الخبر . « أخبرنى الحسن بن على قال حدثنا ابن مهرويه قال أبو على يحيى ابن محمد بن ثوابه الكاتب قال حدثنى دعبل قال كان لى صديق ... [1] » .

ولسنا ندرى متى وأين توفى يحيى بن محمد بن ثوابه على التحقيق ولكننا نستطيع أن نطمئن إلى أنه قد توفى قبل أن يبلغ أبو الفرج سناً تؤذن له بالتحمل وإلا لأخذ عنه مباشرة ولم ينسخ عن كتابه . ثم أنا نعلم أن أبا الفرج قد أخذ عن معاصرى جده لأمه مباشرة وروى عن نديمه أبى القاسم الشيرابكى بعض الأخبار [2] .

وقد كان يحيى يقيم بسر من رأى فى الغالب هذا هو الأمر الذى يشعر به أصهاره لأسرة محمد بن أحمد الأصبهانى المقيمة بسر من رأى فى القرن الثالث كما يشعر به حديثه إلى ابن مهرويه وقد كان ابن مهرويه من الرواة الذين روى عنهم كثيراً الحسن بن محمد عم أبى الفرج والمقيم بسر من رأى أيضا .

هذه الملابسات تدفعنا إلى الإحساس بأن يحيى بن محمد بن ثوابه كان أخا لأحمد بن محمد بن ثوابه وإن يكن الإحساس الذى لم يستقر بعد فى فكرة أو فى رأى .

هناك شىء آخر قد يقوى هذا الإحساس ويدفع به خطوة إلى الأمام هو تلك العاطفة التى نلمحها من بين ثنايا السطور وهى العاطفة التى يكنها أبو الفرج لأحمد بن محمد بن ثوابه ولإبنه العباس . فأبو الفرج يروى من أخبار آل ثوابه ما يزين ويسكت عما يشين مع أن مما يسكت عنه ما كان من جنس ما يعنى به لأنها الأقاصيص المرحة والنصوص الشعرية العذبة التى تصدر عن قوم لهم فى الفن قدم ثابتة يعرفها لهم أبو الفرج نفسه .

(١) ١٨/٤٣ . أغانى . ساسى (٢) ١٧/٢١ المصدر السابق

يروى أبو الفرج عن طريق العباس بن أحمد بن ثوابه أخبار البحترى . مع أحمد بن محمد بن ثوابه وكيف أن الشاعر قد بدأ بالهجاء ثم انتهى إلى المدح (١) . ولكنه لا يحاول أن يذكر لنا شيئا من شعر البحترى فى آل ثوابه لا عن طريق العباس ولا عن طريق غيره من الرواة وليس ذلك فيما نعتقد إلا لأن هذا الشعر يسيء إلى أبى الفرج كما يسيء إلى آل ثوابه فقد ذكرهم البحترى فى هجائه بتلك الصناعة التى كان يزاولها جدهم الأكبر وهى الحجامة (٢). وذكرهم بها فى شعر جميل رقيق (٣).

ولعل هذا الهجاء لآل ثوابه هو الذى دفع أبا الفرج إلى أن ينقد البحترى من حيث مذهبه فى الهجاء ويحكم عليه هذا الحكم القاسى وهو أنه لا يجيد هذا الفن فى كثير . جاء فى الأغانى بصدد حديثه عن البحترى مايلى (. . . شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقى الكلام كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء وله تصرف حسن فاضل نقى فى ضروب الشعر سوى الهجاء فأن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل وإن كان ابنه أبو الغوث يزعم أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضرته الوفاة دعا به وقال له أجمع كل شيء قلته فى الهجاء ففعل فأمره بإحراقه ثم قال له يابنى هذا شيء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحا فعل بى وقد انقضى إربى فى ذلك وإن بقى روى وللناس أعقاب يؤرثونهم العداوة والمودة وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء فى نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لى فيه . قال فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق على فأحرقته . أخبرنى بذلك على بن سليمان الأخفش عن أبى الغوث وهذا وإن كان كما قال أبو الغوث لا فائدة فيه لأن الذى وجدناه وبقى فى أيدى الناس من هجائه فأكثره ساقط مثل قوله فى ابن شيرزاد .

---

(١) ١٢٧ ، ١٨/١٧١ المصدر السابق (٢) ١٨٧ الفهرست لابن النديم

(٣) راجع ١١٨ ، ١١٩ ج ١ ، ١٠٨ ج ٢ ديوان البحترى . ط . الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ .

نفقت نفوق الحمار الذكر وبان ضراطك عنا فمر

ومثل قوله فى على بن الجهم :

ولو أعطاك . ربك ما تمنى لزادك منه فى غلظ الأيور

علام طفقت تهجونى مليا بما لفقت من كذب وزور

وأشباه لهذه الأبيات ومثلها لا تشاكل طبعه ولا تليق بمذهبه وتنبىء بركاكتها وغثاثة ألفاظها عن قلة حظه فى الهجاء ... (١) .

ولا يسكت أبو الفرج عن هجاء البحترى فقط لآل ثوابه وإنما يسكت أيضا عن كثير من الشعر الذى هجا به الشعراء آل ثوابه ويظهر أنهم كانوا هدفا حسنا للشعراء فى القرن الثالث فقد هجاهم أحمد بن على المادرائى وأبو سهل فى شعر فكه من أمثال الشعر الذى يعنى به أبو الفرج كما أطلق فيهم أبو العيناء لسانه (٢) .

ولعله من الغريب أن يسكت أبو الفرج عن كل هذه الأشياء مع أن رواتها من الذين يأخذ عنهم فهى فى الغالب مروية عن أستاذه الصولى أو صديقه التنوخى أو كانت مما جاء به أستاذه جحظه فى أماليه .

إن فى الأمر سراً وليس السر فيما نعتقد إلا هذه الصلة التى تربط بين أبى الفرج وآل ثوابه .

أما الصلة بين أبى الفرج والعباس بن ثوابه فيشهد بها ذلك اللقاء الذى كان يروى فيه أبو الفرج بعض الأخبار عن طريق العباس (٣) . وتشهد به تلك الكتب التى كان يدفع بها العباس إلى أبى الفرج وبخاصة كتاب إسحاق الموصلى ذلك الذى يصور ما كان بين إسحاق وإبراهيم بن المهدى من نقاش (٤) .

---

(١) ١٦٧ ، ١٨/١٦٨ أغاني ساسى

(٢) ١٥٤ — ٤/١٦٠ معجم الأدباء «طه» رفاعى .

(٣) ١٧٠ ، ١٨/١٧١ أغانى ساسى

(٤) ٩/٦٩ المصدر السابق .

أعتقد أن الأمر قد وضح بعض الشيء وأنا نستطيع أن ننتقل إلى الحديث عما ورث أبو الفرج عن هذه الأسرة من ميول ثقافية أو دينية .

لا نستطيع أن ندعي بأنه قد ورث عنها ميله إلى التاريخ وإلى رواية الأخبار وإن كنا نستطيع أن نقول أن أفراد هذه الأسرة يحى بن محمد ابن ثوابه وأبو الفضل العباس بن أحمد بن ثوابه قد نموا فيه ميله الموروث عن الأسرة الأولى أو أعانوه على الوقوف على بعض الأخبار أعانه جده لأمه يحيى بن محمد بذلك الكتاب الذى ينسخ عنه أبو الفرج بعض الأخبار التى تدور حول امرىء القيس والطرماح بن حكيم وابن قنبر وعبد الله بن الزبير وهى الأخبار التى أشرنا إلى صفحاتها من كتاب الأغانى عند حديثنا عن انتساب أبى الفرج إلى آل ثوابه أول هذه الفقرة .

وأعانه أحمد بن محمد بن ثوابه بذلك الكتاب الذى ينسخ عنه بعض الأخبار الخاصة بعبد الله بن العباس الربيعى[1] والخاصة بنويب ويذكر أبو الفرج فى صراحة أنه لم يقع له من أخبار هذا الشاعر اليمامى إلا ما وجده بخط أبى العباس بن ثوابه عن عبد الله بن شبيب فى أخبار رواها عنه[2] .

وأعانه أبو الفضل العباس بن أحمد بما سبق أن ذكرنا .

غير أن هذا العون ليس بشيء إذا قيس إلى جانب ذلك الميل الذى نستطيع أن نعده بحق ميراث أبى الفرج عن هذه الأسرة ذلك هو ميله إلى التشيع وجزيه على مذهب الزيدية الأمر الذى لم يقبله بعض المؤرخين فى يسر حتى لقد قال قائلهم ومن العجائب أن مروانيا يتشيع[3] .

لقد كان آل ثوابه من النصارى[4] . وحين أسلموا أصبحوا من غلاة الشيعة ومن الروافض[5] . ولقد ترجم لهم صاحب أعيان الشيعة فيمن ترجم لهم من أعيان هذه الطائفة[6] .

---

(١) ١٧/١٣٧ . أغانى ساسى
(٢) ٢٠/٧٩ المصدر السابق
(٣) ٣/١٩ شذرات الذهب لابن العماد
(٤) ١٨٧ الفهرست لابن النديم
(٥) ٤/١٤٨ معجم الآدباء «ط» رفاعى
(٦) ٩/٣٣٠ أعيان الشيعة

وهذا الميل الموروث عمل على تقويته وتنميته ، تلك الظروف السياسية التى كانت تحيط بأسرة الأب ، وهى الظروف التى دفعتها إلى مصادقة الطالبيين .

وتبقى بعد ذلك إشارة عابرة إلى أسرة يذكر لنا أبو الفرج أنه قد كان بينهم وبينهم نسب ومصاهرة . جاء فى الأغانى : سمعت أبا على بن المرزبان يحدث أبى رحمه الله بهذا على سبيل المذاكرة وكانت بيننا وبين آل المرزبان مودة قديمة وصهر (١) . وجاء أخبرنى عمى عن محمد بن المرزبان (٢).

أعتقد أنا نستطيع الآن أن نترك هذا الجو إلى جو آخر له آثاره فى نفس أبى الفرج وفى حياته وهو الجو المدرسى . وقبل أن نقوم بهذا الترك أو بهذه النقلة نعود فنذكر القارىء مرة ثانية بتلك البذور التى ألقت بها الأسر فى حياة أبى الفرج . وهى :

١ — البذور السياسية : وهى تلك التى عملت على أن تباعد بين أبى الفرج وبين الاشتغال بالسياسة أو الإهتمام بها من قريب أو من بعيد ، كما عملت على الحيلولة بينه وبين أن يكون من المؤدبين أو الندماء فى قصور الخلفاء العباسيين . ثم هى التى دفعت به إلى مصادقة أعداء العباسيين من الطالبيين أو العلويين .

٢ — البذور الثقافية : وهى التى أوجدت ثم نمت فى أبى الفرج ذلك الميل الشديد نحو رواية الأخبار أدبية وتاريخية ، ولعلها أن تكون هى التى دفعت به إلى الإشتغال بالكتابة .

٣ — البذور الدينية : وهى التى أوجدت فيه الميل نحو التشيع ولعلها التى دفعت به إلى أن يلج أبواب الثقافه الشيعيه وهو صغير ، وإلى أن يؤلف أول عهده بإخراج الكتب فى مقاتل الطالبيين .

---

(١) ١٠/١٣٢ . أغانى . ساسى (٢) ١٣/٢٣ المصدر السابق .

٤ — أمر أخير وهو شيء من الدعابة الخفيفة ومن الروح الفكهة المرحة التي نراها في أبي العباس بن ثوابه والتي قد تشهد بها صلاته بالشاعر المرح سعيد بن حميد تلك الصلات التي يصورها هذا النص من نصوص الأغاني ، أخبرني علي بن العباس بن أبي طلحة قال : حدثني بن أبي المدور قال : دخل سعيد بن حميد يوماً على أبي العباس بن ثوابه وكان أبو العباس يعاتبه على الشغف بالغلمان المرد فرأى على رأسه غلاماً أمرد حسن الوجه عليه منطقه وثياب حسان . فقال له يا أبا العباس :

أزعمت أنك لا تلوط فقل لنا هذا المقرطق قائما ما يصنع
شهدت ملاحته عليك بريبة وعلى المريب شواهد لا تدفع

فضحك أبو العباس وقال : خذه لا بورك لك فيه حتى نستريح من عتبك[1] .

---

(١) ١٧/٣ أغاني . سامي

الفصل الثالث

الجو المدرسى

للأساتذة على الطلاب تأثيراتهم الخاصة التى لا يستطيع أن ينكرها منكر أو يجادل عنها مجادل ، وهى تأثيرات قد لا تقف عند حد تربية العادات الفكرية أو تنمية الملكات الذهنية وإنما تعدوه إلى ماهو أكثر عمقا وأبعد غوراً من حيث تكوين الشخصيات العلمية والفنية فتعدوه إلى خلق المثل ورسم الأهداف وإلى دفع الطلاب إلى الإيمان بها إيماناً ثابتا قويا لا تستطيع أن تزعزعه العواصف أو تأتى عليه الأعاصير ، وعند ذلك يصبح الأمر أمر العواطف الثابتة الصادقة التى تمكن أصحابها من السير إلى الأهداف بخطى ثابتة مستقرة وقلوب هادئة مطمئنة .

وأبو الفرج الأصبهانى طالب من أولئك الطلاب الذين استجابت أنفسهم لبعض الأساتذة فآمنوا بهم واطمأنوا إليهم ومضوا فى الحياة على هديهم وسننهم فهم يسلكون مسلكهم فى التأليف ويذهبون مذهبهم فى التدوين ويلجأون إليهم كلما همهم أمر ، أو أحاطت بهم أنواء وأعاصير .

وشيوخ أبى الفرج الذين روى عنهم أو جلس منهم مجلس الطالب من الشيوخ كثيرون وكثيرون إلى الحد الذى لا يسمح لنا بدرسهم على أنهم شيوخ قام بينهم وبين طلابهم نوع من التجاوب النفسى الذى يدفع إلى الاستهواء فالتقليد والمحاكاة إلا بضروب من المشقة وألوان من العنت والعناء . وليس ذلك إلا لأنا لن نستطيع الوقوف فى سهولة ويسر على أولئك الذين نفثوا فى أبى الفرج من روحهم فضلا عن أن نقف على أسلوبهم فى التأثير وعلى مبلغ ماوصلوا إليه من نجاح .

إن هذه الكثرة الكاثرة من الشيوخ والرواة لم تؤثر ولا يمكن أن تؤثر

فى أبى الفرج بمقدار واحد أو تصل من نفسه إلى نتائج واحدة وإنما تفاوتت شخصيات الشيوخ فتفاوتت تأثيراتهم من حيث القوة والضعف واستجابت نفس أبى الفرج إلى كل منهم بمقدار ولعل استجابتها إلى البعض كانت من قبيل النفور والفرار .

والوقوف على أولئك الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم الخاص وتركوا فى مؤلفاته آثارهم لامن حيث هم شيوخ يأخذ عنهم أو يروى مايدور حولهم بل من حيث نفاذهم إلى نفسه واهتزاز عاطفته ذلك الإهتزاز الذى يدفع إلى الاستهواء . فالتقليد والمحاكاة أمر يحتاج إلى شىء غير قليل من اليقظة ذلك لأن الطريق إليه ملتوية وكثيرة المسارب بحيث يخشى الباحث على نفسه التيه والضلال . فنحن لا نستطيع مثلا أن نعتمد فى موقفنا هذا على تلك المرويات التى يحدد فيها المؤرخون شيوخ أبى الفرج ويذكرونهم لنا بأسمائهم لا لأن هذا التحديد ناقص فحسب ولا لأن هؤلاء لم يكونوا من جلة العلماء وكبار الشيوخ الذين يعقدون مجالس للإملاء يهرع إليها الطلاب وغير الطلاب ليسمعوا وليكتبوا فإنهم من ذلك يوفون بالغرض ، بل لأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون اختيارهم على وجهات نظر تختلف عن تلك التى يتطلبها الدرس الذى نريده فقد كان مؤرخو رجال الحديث يذكرون شيوخه من المحدثين وذلك من أمثال هؤلاء الشيوخ الذين يذكرهم الخطيب البغدادى[1] والذين يذكرهم الذهبى[2] .

وقد كان مؤرخو رجال الأدب يذكرون شيوخه من اللغويين ورواة الأشعار والأخبار وذلك من أمثال هؤلاء الشيوخ الذين يذكرهم ياقوت فى معجم الأدباء[3] . إذ لم يلحظ المؤرخون فى الاختيار لهؤلاء الأشخاص شروطا يقوم عليها الاستهواء وتتحقق بمقتضاها الدوافع التى يدفع إليها

---

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد .

(٢) لوحه ٢٧٥ ب تاريخ الإسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ المجلد العشرون.

(٣) ١٣/٩٥ معجم الأدباء «ط» رفاعى .

الاستهواء من تقليد ومحاكاة . ولعل هذا هو الواضح البين لو تتبعنا ما قام بين بعضهم وبين أبي الفرج من صلات . فرجال الحديث مثلا أولئك الذين ذكرهم الذهبي والخطيب لم يؤثروا فيه آثاراً تذكر بدليل انصرافه عن رواية الحديث إلى رواية الأخبار .

ثم إن بعضهم قد انتقل إلى رحمة ربه أول عهد أبي الفرج بطلب العلم ، وذلك من أمثال محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي ومحمد بن جعفر القتات فقد توفي الأول في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين [١] . وتوفي الثاني غرة جمادى الأولى سنة ثلاثمائة [٢] .

ورجال الأخبار واللغة أولئك الذين يذكرهم ياقوت لم يأخذ أبو الفرج عن بعضهم في الغالب إلا عن طريق المكاتبات التي تدور بينهم ، وذلك هو ما حدث فيما بينهم وبين أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحي فقد كان قاضيا بالبصرة وكان يجيز لأبي الفرج أن يروي عنه ما يكتب به إليه ولم يذهب أبو الفرج إلى البصرة إلا وهو كبير [٣] . وقد توفي الفضل وأبو الفرج في سن العشرين تقريبا إذ توفي سنة خمس وثلاثمائة [٤] . ومن هنا لا نستطيع أن نقول أنه قد طبع أبا الفرج بطابعه الخاص وقريب من هذا الموقف موقف أبي الفرج من ابن دريد فلم ينتقل ابن دريد إلى بغداد إلا بعد أن أسن وهرم ولم يلقه أبو الفرج إلا وقد بلغ من العمر مبلغا يجعله مستعصيا على التقليد ، فقد لقيه تقريبا بعد أن جاوز الثلاثين ، ومن هنا لا نجد له مرويات في الكتاب الذي أخرجه أبو الفرج في هذه السن وهو مقاتل الطالبيين .

وعلى العموم فاختيار المؤرخين لهؤلاء من شيوخ أبي الفرج الذين روى عنهم لا يقدم لنا ما نريد في هذا المقام .

---

(١) ٢/٢٢٦ شذرات الذهب ، ٣/٩٧ ميزان الاعتدال .

(٢) ٢/١٢٩ تاريخ بغداد .

(٣) ٣٣/١١٥ معجم الأدباء رفاعي . (٤) ١٦٥ الفهرست لابن النديم . مصر .

ولا نستطيع أيضاً أن نجعل سبيلنا إلى هؤلاء الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم إحصاء عدد المرويات فيكون أولئك الذين روى عنهم أبو الفرج كثيراً هم أقوى الشيوخ تأثيراً وأكثرهم نفاذا إلى عقله وقلبه فنحن نعلم أولا أن الإحصاء الدقيق لا سبيل إليه لأمر يسير هو أنا قد فقدنا معظم كتب أبى الفرج ونحن نعلم ثانيا أن الأحصاء العددى على فرض القدرة على تحقيقه لا يمكن أن يكون السبيل الصالحة لمثل هذا المطلب فكثرة المرويات وقلتها لا يجب أن ترتبط بقوة التأثير وضعفه ثم هى لا تتصل من قرب أو من بعد بتلك الأسس التى يقوم عليها التجاوب النفسى الذى يدفع إلى الاستهواء فالتقليد والمحاكاة فقد يأخذ الطالب عن الشيخ ويأخذ كثيرا ومع ذلك لا يترك الشيخ فى نفسه أى أثر فضلا عن أن يكون هذا الأثر موحيا اللهم إلا إذا عددنا حشد المعلومات فى ذاكرة الطلاب من الآثار التى تقوم عليها أستاذية نفسية وتلمذه .

ثم أن الأسلوب العلمى الذى يقوم على أساس النقل والرواية ليس بالأسلوب الصالح لتنمية الملكات وتكوين الشخصيات ولعل هذا هو الأمر الذى نراه كل يوم فأكثر الذين يعتمدون فى تربية الطلاب على النقـــل والاملاء والذين تقوم دروسهم على مجهودات بيذلها غيرهم لا تنمو ملكاتهم ولا تتكون شخصياتهم هم فضلا عن أن يبثوا هذه الأشياء أو يوجدوها فى أنفس الطلاب .

أن التجاوب النفسى إنما يقوم على أساس آخر هو الاحساس بقوة الشخصية ذلك الإحساس الذى يدفع الصغار إلى تقليد الكبار ويدفع الضعفاء إلى الاكبار للأقوياء ويدفع البشرية إلى الجرى خلف العباقرة والنابهين ومن هنا قد يؤثر الأموات فى الأحياء وقد يكون الأموات فى كثير من المواقف أقدر على قيادة الجماعة والأخذ بيدها من كثيرين من الأحياء ولذا فأنا لن نعجب حين نرى أساتذة أبى الفرج الحقيقيين من بين الذاهبين لا من الأحياء الذين سعى إليهم للأخذ عنهم ولقيهم ذلك اللقاء المادى .

أعتقد أنا وصلنا إلى شعاع نستطيع أن نجعله الضوء الذى نسير خلفه فى هذه الطريق الملتوية طريق شيوخ أبى الفرج الذين طبعوه بطابعهم وحددوا مستقبله العلمى فى هذه الحياة . وهذا الضوء ليس إلا عاطفة الاعجاب أو ظاهرة الاستهواء تلك التى تدفع إلى التقليد والمحاكاه .

هذه الظاهرة لها علاماتها وهى فى هذا الموقف المشاركة فى الظواهر العقلية والوجدانية فنحكم بالتأثير والتأثر حيث نجد ظواهر مشتركة فى حياة الأستاذ والطالب علمية كانت أو فنية عقلية أو وجدانية .

وقبل أن نبدأ بالحديث عن هؤلاء الذين شاركهم أبو الفرج فى بعض الظواهر والذين نميل نحن إلى أنهم كانوا أساتذته الحقيقيين أحب أن ألفت الذهن إلى أمر لا بد منه هو أن مجرد المشاركة لا يكفى فى الحكم على أخذ الطالب من أستاذه بعض الصفات العقليـــة فالواجب علينا أن نفرق بين نوعين من المشاركة الأول منهما ذلك الذى يصـدر عن إعجاب فاستهواء وهو مقصودنا فى هذا الدرس والثانى بعض تلك الظواهر العملية التى لا يلزم أن يكون الباعث عليها هو الاستهواء والاقتداء مثل تلك القذارة التى يذكرونها فى كل من أبى الفرج ونفطويه فنحن لا نستطيع أن نقول أن هذه القذارة التى كانت تبدو على أبى الفرج [1] . لم تكن إلا أثراً من تلك التى كانت فى أستاذه نفطويه [2] . وأعتقد أن ليس هناك من يشك فى أن بعض الظواهر تتكرر فى أفراد لأسباب مشتركة مهما تتباعد الأزمنة وتتناء الديار .

يجب أن نحذر التعميم وسرعة الأحكام وأن نجعل أساسنا فى الحكم بالتأثير والتأثر هو المشاركة التى يبعث عليها شىء من الاعجاب والاستهواء .

١ — والشخصية الأولى التى ملكت على أبى الفرج عقله وقلبه ودفعت به إلى لون معين من الفن هى شخصية اسحاق الموصلى فاسحاق هو ذلك الشخص الذى نال الأعجاب كله من أبى الفرج وهو الذى مضى أبو الفرج على سنته وسار على هديه فيما ألف من كتب أو خلف من آثار .

---

(١) ١٠١ ، ١٣/١٠٢ معجم الأدباء . رفاعي (٢) ١/٢٦٦ المصدر السابق

كان اسحاق فى حس أبى الفرج من النابغين الذين تنوعت فنونهم وتعمقوا فى ثقافتهم بل كان من العباقرة الذين يصلون بمجهوداتهم الخاصة إلى ما أفنى فيه الأوائل لاسيما الفلاسفة منهم الأعمار .

يقول أبو الفرج فى ترجمته لإسحاق (. . . وموضعه من العلم ومكانه من الأدب ومحله من الرواية وتقدمه فى الشعر ومنزلته فى سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه فأنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له فى هذا نظير فأنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقى وألحب للناس جميعا طريقة فأوضحها وسهل عليهم سبيله وأنارها فهو إمام أهل صناعته جميعاً ورأسهم ومعلمهم يعرف ذلك منه الخاص والعام ويشهد به الموافق والمفارق . . . وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده ولم يكن قديما تميزاً على هذا الجنس إنما كان يقال الثقيل وثقيل الثقيل . . . وهذا كله فعله اسحاق واستخرجه بتمييزه حتى أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل اقليدس ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتاب أو يعرفه [1]) .

وأعتقد أن ليس من حقك أن تعترض بأن بعض أجزاء هذه الصورة ليس من الصحة فى شىء وأنه ليس إلا من صنع الخيال فأنا وإن كنت أعلم هذا وأعلم إلى جانبه أنه ليس من اليسير أن يعيش اسحاق فى عصر الترجمة عصر الرشيد والمأمون وأن يكون على مثل ما يصفه به أبو الفرج من اتساع فى العلم والمعرفة وأن يصل إلى ما وصل إليه فى فن الغناء دون أن يتتلمذ فى ذلك على أحد ودون أن يقرأ هو ذلك فى كتاب . بل أنا أعلم أن من بين النصوص التى رواها أبو الفرج نفسه ما يثبت أن الترجمة فى أمور الغناء كانت قائمة وأن أمور الغناء على الأصول اليونانية كانت محل جدل ومناظرة فى عصر

(١) ٤٩ ، ٥/٥٠ الأغانى . ساسى

اسحاق وأن اسحاق نفسه كان فى بعض المواطن أحد طرفى الخصوم فى الجدل والمناظرة[١].

أعلم كل هذا وأعلم أن الحقائق لا تجعل من السهل تصديق ما يذهب إليه أبو الفرج ولكنى فى هذا الموقف إنما أبحث عن اسحاق الذى ترك آثاره فى نفس أبى الفرج وعقله وإسحاق التارك لهذه الآثار ليس إلا هذه الصورة الخيالية وليس هو اسحاق الذى كان فى هذه الحياه .

إن هذه الصورة التى يرسمها أبو الفرج بقوله « وإنما ذكرت هذا بتمام أخباره كلها ومحاسنه وفضائله لأنه من أعجب شىء يؤثر عنه أنه استخرج بطبعه علماً رسمته الأوائل لا يوصل إلى معرفته إلا بعد علم كتاب اقليدس الأول فى الهندسة ثم ما بعده من الكتب الموضوعة فى الموسيقى ثم تعلم ذلك وتوصل إليه واستنبطه بقريحته فوافق مارسمه أوائك ولم يشذ عنه شىء يحتاج إليه منه وهو لم يقرأه ولا له مدخل إليه ولا عرفه ثم يبين بعد هذا بما أذكره من أخباره ومعجزاته فى صناعته فضله على أهلها كلهم وتميزه عنهم وكونه سماءهم أرضها وبحراهم جداوله[٢] » هى التى كانت توحى إلى أبى الفرج ومن هنا يجب أن نقف عندها وأن نعنى بها إن أردنا حقا أن نبحث عن أثر الشيخ فى الطالب . وأعتقد أنك بعد ذلك قد رأيت أنه لا محل للوقوف عند هذا الاعتراض .

وعواطف أبى الفرج نحو اسحاق تظهر كلما سنحت لها الفرصة بالظهور فهى تظهر فى ترجمته لإسحاق وتظهر بصورة واضحة جلية عند ترجمته لإبراهيم ابن المهدى وبخاصة عندما يتحدث أبو الفرج عما كان بينهما من كيد وما كان يجرى بينهما من مناظرات إذ ترى حرصه الشديد على ألا يسىء إلى اسحاق ومن هنا يحاول ألا يروى بعض الأخبار التى تسىء إلى تلك الشخصية ويعلن أنها من الأخبار الكاذبة وأنه من أجل هذا لن يذكرها . مع أن مذهب أبى الفرج فى الرواية أن يروى الأكاذيب والمصنوعات كما سنرى فى الباب الثالث ان شاء الله .

(١) ٥٠/٥ المصدر السابق (٢) ٥٠/٥ المصدر السابق

إن دفاع أبي الفرج عن اسحاق وما فيه من صدق وحرارة لا يصدر إلا عن المعجبين الشديدى الإعجاب[١] .

وآ ثار إسحاق فى حياة أبى الفرج العلمية والفنية واضحة كل الوضوح ويتحدث عنها أبو الفرج نفسه ويذكرها فى صراحة لا ينقصها البيان فهو يقول فى مقدمة كتاب الأغانى أنه قد جرى فى تجنيسه للأغانى على مذهب إسحاق «كل ما ذكرنا فيه من نسب الأغانى إلى أجناسها فعلى مذهب اسحاق ابن ابراهيم الموصلى وأن كانت رواية النسبة عن غيره إذكان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل ابراهيم بن المهدى ، . . . ، . . .[٢]»

فأبو الفرج لا يكتفى فى التجنيس بذكر الروايات كما رويت وإنما يحيل ما كان منها على مذهب غير مذهب اسحاق إلى هذا المذهب .

وأبو الفرج يصرح أيضا بأن الذى بعثه على التأليف قول رئيس من الرؤساء الذين يميلون إلى هذا اللون من الفن والذين يرون أن كتاب الأغانى الذى بين أيدى الناس لا يمكن أن يسد الفراغ لأنه ليس لإسحاق ولأنه مع ذلك قليل الفائدة ، والذى بعثنى على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفنى جمعه وعرفنى أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى اسحاق مدفوع أن يكون من تأليفه وهو مع ذلك قليل الفائدة وأنه شاك فى نسبته لأن أكثر أصحاب اسحاق ينكرونه ولأن ابنه حماداً أعظم الناس إنكاراً لذلك وقد لعمرى صدق فيما ذكره وأصاب فيما أنكره »[٣] .

ولعل هذا الأثر يزداد بيانا وقوة إذا تنبهنا إلى أن مرويات اسحاق فى أخبار الغناء والمغنين هى التى اعتمد عليها أبو الفرج فى كتابه لا سيما فى الأصوات المائة حيث كان يروى عن طريق الحسين بن يحيى ومحمد بن مزيد أخبار اسحاق عن طريق حماد ولعلنا لم ننس بعد أمر ذلك الكتاب الذى

---

(١) ٧٢ ، ٩/٧٣ الأغانى ساسى (٢) ١/٣ المصدر السابق
(٣) ١/٣ المصدر السابق

دفع به أبو الفضل العباس بن ثوابه إلى أبي الفرج فلقد كان كما علمنا كتاب اسحاق ومخطه الذى يعرفه أبو الفرج (١) .

على أن أبا الفرج يحدثنا فى مرات أخرى عن كتب له أخرى لم يؤلفها إلا ليبين للناس أسرار الغناء وهو يذكرها دائما فى معرض أحاديثه عن اسحاق حتى لكأن الباعث على تأليفها هو الدفاع عن اسحاق أو تثبيت مذهبه وبيان فضله. يقول أبو الفرج « .. وهذا عمرو بن بانه وهو من تلاميذه ، اسحاق ، يقول فى كتابه الرمل الأول والرمل الثانى ثم لا يزيد فى ذكر الأصابع على الوسطى والبنصر ولا يعرف المجارى التى ذكرها اسحاق فى كتابه مثل ما ميز الأجناس فجعل الثقيل الأول أصنافا فبدأ فيه بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ثم تلاه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ثم ما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ثم جعل الثقيل الأول صنفين الصنف الأول منهما هذا الذى ذكرناه والصنف الثانى القدر الأوسط من الثقيل الأول وإجراه المجرى الذى تقدم من تمييز الأصابع والمجارى وألحق جميع الطرائق والأجناس بذلك وأجراها على هذا الترتيب. ثم لم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلا عن أن يصنفه فى كتاب فقد ألف جماعة من المغنين كتبا منهم يحيى المكى وكان شيخ الجماعة وأستاذهم وكلهم كان يفتقر إليه يأخذ عنه غناء الحجاز وله صنعة كثيرة حسنة متقدمة وقد كان ابراهيم الموصلى وابن جامع يضطران إلى الأخذ عنه ألف كتابا جمع فيه الغناء القديم وألحق فيه ابنه الغناء المحدث إلى آخر أيامه فأتيا فيه فى أمر الأصابع بتخليط عظيم حتى جعلا أكثر ماجنساه من ذلك مختلطا فاسدا وجعلا بعضه فيما زعما تشترك الأصابع كلها فيه . وهذا محال ولو اشتركت الأصابع لما احتيج إلى تمييز الأغانى وتصييرها مقسومة على صنفين الوسطى والبنصر والكلام فى هذا طويل ليس موضعه ههنا وقد ذكرته فى رسالة عملتها لبعض اخوانى ممن سألنى شرح هذا فأثبته واستقصيته استقصاء يستغنى به عن غيره . وهذا كله فعله اسحاق واستخرجه بتمييزه . . »(٢)

---

(١) ٩/٦٩ أغانى . ساسى. وراجع أيضا ٤٢/١١٣ (٢) ٤٩ ، ٥/٥٠ المصدر السابق
(٢) ٤٩ ، ٥/٥٠ أغانى . ساسى

ويقول (... وقد ذكرت قطعة من هذه الأخبار فى أخبار إسحاق وأنا أذكر ههنا منها ما لم أذكر هناك . ومما خالف إبراهيم بن المهدى ومن قال بقوله على إسحاق فيه الثقيلان وخفيفهما . . . وجرت بينهما فى ذلك مناظرات ومجادلات ومراسلة ومكاتبة ومشافهة وحضرهما الناس فلم يكن فيهم من يفى بفصل ما بينهما والحكم لأحدهما على صاحبه ... وعمل الناس على مذهب إسحاق لأنه كان أعلم الرجلين وأشهرهما وأوضح إسحاق أيضا لذلك وجوهاً فقال . . ولهما فى ذلك كلام كثير ومخاطبات قد ذكرتها فى أخبارهما وشرحت العلل مبسوطة فى كتاب ألفته فى النغم شرحا ليس هذا موضعه ولا يصلح فيه [1] ...)

إن إسحاق هو الأستاذ الأول لأبى الفرج وإنه الأستاذ الذى ظهرت آثاره واضحة فى حياة أبى الفرج العلمية والفنية لا من حيث ما أخذ أبو الفرج عنه من أخبار بأية طريقة من الطرق أو بأى إسناد من الأسانيد ولا من حيث تلك الأخبار الكثيرة التى كانت تدور حول إسحاق من حيث هى مادة من مواد كتاب الأغانى ففى هذين يستوى إسحاق وغيره بل من حيث أنه الشخصية التى استهوت أبا الفرج فامتلأ إعجاباً بها حتى دفعته إلى اختيار لون معين من العلوم والفنون ولم تقف المسألة عند حد الاختيار وإنما تعدته إلى التأليف والتصنيف وفى التأليف لم تقف المسأله عند حد المواد التى تجمع فتذكر وإنما تعدته إلى التصميم ونعتقد أن أمر أبى الفرج مع إسحاق لم يقف عند حد تحويل أجناس الغناء إلى مذهب إسحاق وإنما كان يجرى أبو الفرج على أسلوب إسحاق فى العرض ولعل هذا الخبر الذى يرويه الخطيب يصور لنا أسلوب إسحاق . جاء فى تاريخ بغداد (... وقال محمد أخبرنى الصولى قال حدثنى عبد الله بن المعتز حدثنى أبو عبد الله الهشامى قال اعتبر أهلنا على إسحاق بأن دعوه ومدوا ستاره وأقعدوا كاتبين

---

(١) ٤٦ ، ٤٧ / ٩ المصدر السابق

ضابطين بحيث لا يراهما إسحاق وقالوا كلما غنت الستارة صوتاً فتكلم عليه إسحاق فاكتبا الصوت واكتبا لفظه فيه وجعل إسحاق كلما سمع صوتاً أخبر بالشعر لمن هو ونسب الصوت وذكر جميع من تغنى فيه وخبرا أن كان له خبر . كتب ذلك كله وحفظ ثم دعوا إسحاق بعد مدة طويلة وضربوا ستارة وأمروا من خلفها أن يغنين بمثل ما كن غنين به فى ذلك اليوم ففعلن وابتدأ إسحق يتكلم فى الغناء بمثل ما كان يتكلم به ما خرم حرفا . قال فعلموا وعلم الناس أنه لا يقول إلا صوابا وحقا وعجبوا منه (١)).

إن طريقة إسحاق هذه هى الماثلة أمامنا فى كتاب الأغانى وإنها الدستور الذى جرى عليه أبو الفرج فى أخبار الأصوات والشعراء والمغنين . وإن الذى دفع أبا الفرج إلى أن يذكر الأجناس على مذهب إسحاق هو الذى جعله يجرى فى التأليف وأسلوب العرض على مذهب إسحاق أيضاً . وليس ذلك فيما نرى إلا الاعجاب بتلك الشخصية الفذة التى تعاون فى رسمها الواقع والخيال أنها شخصية إسحاق .

أعتقد أنا نستطيع الآن أن نترك هذه الشخصية إلى شخصية أخرى لها آثارها أيضاً وتظهر عواطف أبى الفرج نحوها ظهوراً قوياً واضحاً هى شخصية عبد الله بن المعتز .

٢ — والشخصية الثانية التى أثرت فى أبى الفرج وحازت منه بعض الإعجاب شخصية عبد الله بن المعتز وهى شخصية تجىء خلف شخصية إسحاق وتالية لها فلم يكن ابن المعتز وإسحاق عند أبى الفرج بمنزله سواء وإنما ذهب إسحاق بالاعجاب كله وظفر منه ابن المعتز بنصيب ومن هنا كانت صورة إسحاق فى ذهن أبى الفرج بعيدة عن الواقع وكانت صورة ابن المعتز من الواقع وجارية على سننه .

وعبد الله بن المعتز أثر فى أبى الفرج بنفس الوسيلة التى أثر فيه بها إسحاق وهى الكتب فقد كان عبد الله من الأموات حين اتصل به أبو الفرج .

---

(١) ٦/٣٤٠ تاريخ بغداد

وصورة عبد الله عند أبي الفرج هي التالية (ومن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبرع وتقدم . جميع أهل عصره فضلا وشرفا وأدباً وشعراً وظرفاً وتصرفاً فى سائر الآداب أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور فى فضائله وآدابه شهرة تشرك فى أكثر فضائله الخاص والعام وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فان فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء طريفة من أشعار الملوك. فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية .. وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه [1].)

وعواطف أبي الفرج نحو هذه الشخصية عواطف صادقة قوية ومن هنا كان دفاعه عنها حاراً وكان هجومه على خصوم عبد الله قويا عنيفا . يقول أبو الفرج بصدد هذا الدفاع (ولكن أقواما أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل وبعلو أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك إلا ضعة ولا يزداد الآخر إلا ارتفاعا ألا ترى إلى ابن المعتز قتل أسوأ قتلة ودرج فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسن أخباره وتصرفه فى كل فن من العلوم إلا رفعة وعلوا ولا نظر إلى أضداده كلما ازدادوا فى طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مثلهم فى ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطا وضعة وكلما وصفوا أشعارهم وقرظوا آدابهم زادوا بها ثقلا ومقتا فاذا وقع عليهم المحصل الموافق عدلوا عن ثلبه فى الآداب إلى التشنيع عليه بأمر الدين وهجاء آل أبي طالب [2] ...)

---

(١) ١٣٣ ، ٩/١٣٤ أغانى . ساسى (٢) ١٣٤ المصدر السابق

وتأثر أبي الفرج بابن المعتز سيظهر بوضوح عند حديثنا عن الفن الشعرى عند أبى الفرج وكيف كان يجرى على مذهب المحدثين ذلك المذهب الذى يصوره هو عند دفاعه عن ابن المعتز بقوله (فليس يمكن واصفاً لصبوح فى مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والينفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخـــدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشية وإلى وصف البيد والمهامه والظبى والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسىء ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط فى البعض وقصر فى اليسير . . .) [1]

ولعل أكبر مايعيننا على الوقوف ما كان بين أبى الفرج وبين ابن المعتز من صلات علمية وفنية ذلك النص الذى يقول فيه أبو الفرج « . . . ولقد قرأت بخط عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رقعة إليه بخطه وقد بعث إليه برسالة إلى ابن حمدون فى أنه يجوز ولا ينكر أن يغير الأنسان بعض نغم الغناء ويعدل بها إلى مايحسن فى حلقه ومذهبه وهى رسالة طويلة ويشاورة فيها فكتب إليه عبيد الله قرأت أيدك الله الرسالة الفاضلة البارعة الموفقة فأنا والله أقرؤها إلى آخرها ثم أعود إلى أولها مبتهجاً وأتأمل وأدعو مبتهلا وعين الله التى لا تنام عليك وعلى نعمه عندك فانها علم الله النعمة المعدومة المثل . . . ولا والله ما رأيت جداً فى هزل ولا هزلا فى جد يشبه هذا الكلام فى بلاغته وفصاحته وبيانه وإنارة برهانه وجزالة ألفاظه . . . ولو أن هذه الرسالة جبهت الإبراهيمين ابراهيم بن المهدى وابراهيم بن الموصلى وابنه إسحاق وهم مجتمعون لبهت منهم الناظر وأخرس الناطق ولأقروا لك بالفضل فى السبق وظهور حجة الصدق ثم كان قولك

(١) ٩/١٣٤ أغانى (ساسى) .

لهم فرقا بين الحق والباطل والخطأ والصواب ووالله ما تأخذ فى فن من الفنون إلا برزت فيه تبريز الجواد الرائع المغبر فى وجه كل حصان تابع عضد الله الشرف ببقائك وأحيا الأدب بحياتك وجعل الدنيا وأهلها بطول عمرك . (١)

فى هذا النص نرى صورة ابن المعتز فى ذهن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهى صورة قد رضى عنها أبو الفرج بدليل تعليقه عليها بقوله « هذا كلام العقلاء وذوى الفضل فى مثله لا كلام الثقلاء وذوى الجهالة » .

هذا الرضى من أبى الفرج يشعرنا بما كان يكنه لابن المعتز من عواطف وهى عواطف جديرة بأن تجره إلى التقليد والمحاكاة .

على أننا نرى صورة أخرى أقدر من السابقة على دفع أبى الفرج إلى أن يتأثر بابن المعتز وهى معالجة ابن المعتز لمسائل النغم فنحن نعلم أن هذه المسائل كان يجرى عليها الحوار والجدل بين اسحاق الموصلى وابراهيم بن المهدى كما نعلم أن أبا الفرج قد ألف فى النغم وعللها وأنه كان يهتم إلى حد كبير بما كان يجرى بين ابراهيم واسحاق ومن هنا يصبح من غير المعقول ألا يهتم أبو الفرج وألا يتأثر بما ترك ابن المعتز من كتب ورسائل تعالج هذه المسائل بالذات .

فإذا أضفنا إلى كل ماتقدم أن أبا الفرج كان يجعل مرويات ابن المعتز وأقواله مصدراً مهما من مصادره فينقل من كتابه أخباراً (٢) . ويروى أحكامه النقدية فى الغناء والمغنين (٣) . عرفنا أن ابن المعتز كان واحداً من أساتذة أبى الفرج الذين استجابت نفسه لهم فآمنت بهم واطمأنت اليهم ومضت فى الحياة على شىء من هديهم وسننهم .

نستطيع الآن أن ننتقل إلى الأحياء وأن ننتقل أولا وقبل كل شىء إلى جحظة البرمكى وأن تكون هذه النقلة بعد أن نلفت الذهن الى شخصيتين أعجب بهما أبو الفرج من الأموات إعجاباً دفعه إلى تقليد أحداهما لكن لا إلى آخر الشوط وتلك هى شخصية أبى تمام فلقد بدأ

(١) ١٣٤ ، ١/١٣٥ المصدر السابق
(٢) ١٨/١٧٧ أغانى . ساسى (٣) ٥/٩٢ المصدر السابق

أبو الفرج بتقليد أبى تمام والجرى على مذهبه فى البديع أو فى المجانس لكنه لم يمض فى التقليد إلى النهاية وإنما انصرف بعد أن بدأ الشوط وبعد أن جرى خلف صاحبه بضع جولات الأمر الذى سنشرحه عند حديثنا عن فن أبى الفرج الشعرى :

أما الثانية فقد كان حظ أبى الفرج منها الإعجاب لكن لا على أنها المثل الأعلى الذى يحتذيه وإنما على أنها الشخصية التى تمثل شخصية الإنسان المثقف كما يفهمه أبو الفرج وتلك هى شخصية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[١] . ولن نستطيع أن ننكر أن أبا الفرج قد أعجب بكتابه الآداب الرفيعة الذى ألفه فى النغم وعلل الأغانى[٢] وأنه قد استفاد منه حين كتب فى هذه الأشياء .

٣ — الشخصية الثالثة كما قلنا هى شخصية جحظه البرمكى وهو أحمد ابن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك . وحظ جحظه من تنوع الثقافات وتعدد ألوان المعرفة ليس أقل من حظ اسحاق وابن المعتز فقد كان جحظه أديباً شاعراً واخباريا عالما وكان من حذاق المغنين من الطنبوريين[٣] ويقول عنه الخطيب « كان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار متصرفاً فى فنون جمة عارفاً من العلوم بصناعة النجوم حافظا لأطراف من النحو واللغة مليح الشعر مقبول الألفاظ حاضر النادرة وأما صناعته فى الغناء فلم يلحقه فيها أحد »[٤] .

وحظ جحظه من عناية أبى الفرج بتدوين أخباره وجمع أشعاره أكبر من حظ كل من اسحاق وابن المعتز فقد ترجم أبو الفرج لكل واحد منهما فى فصل يخصه من كتاب الأغانى وترجم لجحظه فى كتاب خاص هو كتاب أخبار جحظه البرمكى وهو واحد من الكتب التى يحكى الثعالبى أنه رآها من بين كتب أبى الفرج[٥] .

---

(١) ٨/٤٢ المصدر السابق .
(٢) ٤٣ المصدر السابق
(٣) ٢٩٨ الفهرست لابن النديم
(٤) ٤/٦٥ تاريخ بغداد
(٥) ٢/٣٧٨ اليتيمة . دمشق

أما حظه من حيث الوسائل التى يعتمد عليها فى التأثر فقد كان كبيراً حقا ذلك لأن أبا الفرج قد لقى جحظه وجلس منه مجلس الطالب من الشيخ ولم يفارق جحظه الحيـــاة حتى بلغ أبو الفرج من العمر أربعين سنة قامت بينهما فيها صداقة قوية متينة تصورها هـذه القصة . قال أبو الفرج بلغ أبا الحسن جحظه أن مدرك بن محمد الشيبانى الشاعر ذكره بسوء فى مجلس كنت حاضره وكتب

أبا فرج أهجى لديك ويعتدى ... على فلا تحمى لذاك وتغضب
لعمرك ما أنصفتنى فى مودتى ... فكن معتبا إن الأكارم تعتب

قال أبو الفرج فكتبت إليه :

عجبت لما بلغت عنى باطلا ... وظنك بى فيه لعمرك أعجب
ثكلت إذا نفسى وعزى أسرتى ... بفقدى ولا أدركت ما كنت أطلب
فكيف بمن لا حظ لى فى لقائه ... وسيان عندى وصله والتجنب
فقق بأخ أصفاك محض مودة ... تشاكل منها ما بدا والتغيب[1]

كما كان أبو الفرج — على مايبدو — يذهب إليه سائلا أو مستفسراً كلما أشكلت عليه مسائل العلم أو قضاياه فهو يقول (سألت أحمد بن جعفر جحظه عن نسبه قلت له ان الناس يقولون ابن أمية ابن أبى أمية فقال هو محمد ابن أمية ابن أبى أمية قال وكان محمد[2] . .) . وهو يقول « حدثنى جحظه وجعفر بن قدامه وخبر جعفر أتم إلا أنى قرأته على جحظه فعرفه وذكر لى أنه سمعه »[3] .

ومعنى كل ما تقدم أن جحظه كان يؤثر بشخصيته الحية المتحركة إلى جانب تأثيره بكتبه الأمر الذى يشترك فيه مع كل من ابن المعتز واسحاق .

غير أن هذه الحظوظ التى يفوز منها جحظه بالنصيب الأكبر لم تكن لتجعل منه الشخص الذى يفوق صاحبيه من حيث القدرة على الإيحاء فلقد

---

(١) ١٢١ ، ١٣/١٢٢ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٢) ١١/٣٠ الأغانى . ساسى . (٣) ١٩/١٣٦ الأغانى . ساسى

كان جحظه أقل حظا من صاحبيه فى هذة الناحية ومن هنا لم نر أبا الفرج يحتفل بحكمه الفنى كما كان يحتفل بحكم اسحاق مثلا .

جاء فى الأغانى « كانت عبيدة من المحسنات المتقدمات فى الصنعة والآداب يشهد لها بذلك اسحاق وحسبها بشهادته . . . ذكرها جحظه فى كتاب الطنبوريين والطنبوريات وقرأت عليه خبرها فيه فقال كانت من المحسنات وكانت لا تخلو من عشق ولم يعرف فى الدنيا امرأة أعطر منها ، وكانت لها صنعة عجيبة [1] . . . »

ولعلنا نرى الأمر على العكس من هذا تماما فقد كان أبو الفرج يضيق أحيانا من جحظه ويظهر سخطه عليه وعلى مسلكه فى رواية الأخبار . جاء فى الأغانى : « النصيبى هو صاحب الأنصاب وأول من غنى بها وعنه أخذ النصب فى الغناء هو أحمد بن أسامة . . وذكره جحظه فى كتاب الطنبوريين فأتى من ذكره بشىء ليس من جنس أخباره ولا زمانه وثلبه فيما ذكره وكان مذهبه عفا الله عنا وعنه فى هذا الكتاب أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه وكان يجب عليه ضد هذا لأن من انتسب إلى صناعة ثم ذكر متقدمى أهلها كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وطريف قصصهم ومليح ما عرفه منهم لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم فكان فيما قرأت عليه من هذا الكتاب أخبار أحمد النصيبى وبه صدر كتابه » [2]

وجحظه مع كل هذا قد ترك آثاره فى نفس أبى الفرج وهى آثار لا نستطيع أن نثبتها بالنصوص القاطعة وإن كنا نستطيع أن ندلل عليها من شهادات الحال .

وأول الأمور التى نستطيع أن نقول أنها من آثار جحظه صناعة الموسيقى وفن الغناء فقد كان جحظه من الحذاق فيه كما سبق أن ذكرنا ويذكر لنا أبو الفرج أنه كان يعلم الجوارى الموسيقى والغناء [3] . وليس

(١) ١٣٤ ، ١٩/١٣٥ المصدر السابق . (٢) ٥/١٥٣ المصدر السابق .
(٣) ٥/٣٠ المصدر السابق ، ٢/٢٦٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى

من اليسير ونحن نعلم ميل أبي الفرج إلى الموسيقى والغناء ذلك الميل الذى أنتج أكثر من كتاب . أن نعتقد أن أبا الفرج لم يتأثر فى ذلك بجحظه مع أنه فيما نعلم الشيخ الوحيد من شيوخ أبي الفرج الذى يشهد له القدماء من أمثال ابن النديم والخطيب بالإجادة فى الموسيقى والإتقان فى الغناء .

وثانى هذه الأمور ذلك الفن الشعرى الذى يذهب فيه جحظه مذهب ابن المعتز . ولعل جحظه كان فى هذا السبيل التى سلكها أبو الفرج ليجرى فى فنه الشعرى على هذا المذهب لاسيما ونحن نعلم أن جحظه كان من المعجبين بابن المعتز وأن عبيد الله هو الذى سماه بهذا الاسم[1] .

أما أقوى الظواهر التى يشترك فيها الطالب والشيخ فتلك التى تتعلق بحياة اللهو فقد كان جحظه القدوة فى ذلك لأبى الفرج وهى قدوة لا نريد أن نقول أكانت حسنة أم سيئة ؟ ويكفينا أن نذكر بعض النصوص التى تشعرنا بهذا الجو الذى كان يعيش فيه الشيخ ويتربى فيه الطالب وأن نترك الباقى منها إلى الفصل التالى وهو الخاص بالخلطاء أو الأصدقاء فلقد كان جحظه أحدهم .

١ — حدث أبو الفرج الأصبهانى قال : دعانى محمد بن الشار يوماً ودعا جحظه وأطال حبس الطعام جداً ، وجاع جحظه فأخذ دواة وبياضاً وكتب :

مالى وللشار وأولاده لا قدس الوالد والوالده
قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائده

ورمى بها إلى فقرأتها ودفعتها إلى ابن الشار فقرأها ووثب مسرعاً فقدم المائدة فقاطعه جحظه فكان يجهد جهده أن يجيئه فلا يفعل وإذا عاتبناه قال والله حتى يحفظ تلك السورة [2]

---

(١) ٢/٢٤٢ معجم الأدباء . ط . رفاعى (٢) ٢٦٤ ، ٢٦٥ المصدر السابق .

٢ — وكتب إلى بعض الإخوان :

لنـــا يا أخى زلة وافرة وقدر معجـــــلة حاضرة
وراح تريك إذا صـفقت سـنا البرق فى الليلة الماطرة
ومسمعة لم يخنها الصواب وزامرة أيمـــا زامرة
وما شئت من خبر نادر ونادرة بعـــــدها نادرة
فآت ولو كنت يا ابن الكرا م وحاشاك من ذاك فى الآخرة [1]

٣ — وهى صوت كان يغنيه والصنعة له فيه كما يذكر غرس النعمة

إن بالحميرة قساً قد بجن فتن الرهبان فيهـــــا وافتتن
ترك الانجيـــل حيناً للصبا ورأى الدنيا مجوناً فركن [2]

* * *

أما الشخصية الرابعة فشخصية محمد بن العباس اليزيدى وقد كان أبو الفرج حسن الرأى فى محمد وحمل عنـه فيما يقول هو علماً جماً وهذا هو نص قوله فيه (وآخر من كان بقى من علماء أهل هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبى محمد وكان فاضلا عالما ثقة فيما يرويه منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعاً جما . . . [3])

ويبقى من أساتذة أبى الفرج كثيرون لم نقيين لهم آثاراً تذكر من حيث قوة الشخصية والقدرة على الإيحاء وإن كنا نعرف لهم آثارهم من حيث أخذ أبى الفرج عنهم وروايته لهم وهم من هذه الناحية ليسوا أكثر من شيوخ رواة وهؤلاء لهم مقامهم من هـذا البحث فى البـاب الثانى إن شاء الله .

---

(١) ٢٥٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٢) ٢٥٧/ المصدر السابق .
(٣) ١٨/٧٣ . أغانى سامى .

على أن هنـاك قوما كان أبو الفرج يتحدث عنهم باحترام وذلك من أمثال محمد بن الحسين الكندى ، فقد كان يقول عنه مرة أخبرنى محمد ابن الحسين الكندى مؤدبى[١] وكان يقول أخرى فسمعت بعض مشايخنا من الكوفيين يذكر وهو محمد بن الحسين الكندى[٢] . وكان يقول ثالثة أخبرنى محمد بن الحسين الكندى المؤدب[٣] . وكلها أقوال لا تفيد أكثر من أنه واحد من مشايخه الذين يكن لهم الاحترام والتقدير . أما النتائج التى تترتب على هذا من تفاعل عقلى أو تجاوب نفسى له آثاره من حيث الاشتراك فى بعض الظواهر العلمية أو الفنية القائمة على الاستهواء فالتقليد والمحاكاة فأمر لم نستطع الوقوف عليه فى واحدة من التراجم القصيرة التى يترجم لهبا المؤرخون[٤] .

ولعل الشخص الذى يجدر بنا ذكره فى هذا المقام هو أحمد بن عبيد الله ابن عمار فقد كان الرجل من شيوخ أبى الفرج وله كتاب يتفق فى اسمه وموضوعه مع كتاب من كتب أبى الفرج وذلك هو مقاتل الطالبيين[٥] . إذ ليس من المستبعد أن يكون أبو الفرج قد صنف كتابه هذا تقليداً لأستاذه وجرياً على هديه وسنته .

هذا هو الجو المدرسى بالمعنى الذى نفهمه من أستاذية وتلمذة أما ذلك الجو المدرسى الذى يقوم على اللقاء المادى وعلى التلقين وعلى حشد الذهن بالمعلومات فله مكانه الخاص من الباب الثانى حيث نبدأ مع أبى الفرج وهو وليد وحيث نسير معه فى البيئتين الثقافيتين اللتين لعبتا الدور الأكبر

---

(١) ١٣/٩ المصدر السابق (٢) ٦٤٥ مقاتل الطالبيين . مصر
(٣) ١٠٩/ ١٢ . أغانى ساسى
(٤) ٢/٢٣٤ تاريخ بغداد ، ٢/٢٧١ شذرات الذهب .
(٥) ٤/٢٠٢ تاريخ بغداد .

فى تكوينه وهما البيئة الكوفية والبيئة البغدادية .

وهناك أيضا نستطيع أن نعرف إلى أى حد كان التفاعل بين أبى الفرج وبين ما كان يحيط به من ثقافات مختلفة الأنواع وعديدة الألوان .

إنا هنا إنما نبحث فقط أمر هؤلاء الذين اتخذ منهم أبو الفرج مثله الأعلى وجعلهم القدوة الصالحة التى ينسج على منوالها فى الألوان الفنية والأدبية التى دفعت به إليها الظروف والضرورات وأعتقد أنى قد وضحت ذلك وبينت منه ما يمكن الوقوف عليه أو الوصول إليه .

الفصل الرابع

الخلطاء

وهذا الجو جو الخلطاء الذين كان أبو الفرج يعيش بينهم حيث يألفهم ويألفونه يعيننا على فهم أمرين نفسيين يتعلقان بأسس اختيار الأخبار والأقاصيص والنوادر والأشعار وتفضيل بعضها دون بعض أو ترجيح رواية منها على أخرى .

وأول الأمرين أن هذا الجو يلقي ضوءا يعيننا على الوقوف على نفسية أبي الفرج ويعرفنا بخلقه الشخصي ومزاجه الفني وكل تلك مؤثرات لها خطرها في عوامل الاختيار والتفضيل والترجيح .

وثاني الأمرين أن من هؤلاء الخلطاء من كان يكتب له أبو الفرج أدبه من شعر ونثر وكتبه من أقاصيص ونوادر وأخبار وفي كل ذلك كان أبو الفرج يراعي الخلق الشخصي والمزاج الفني لهؤلاء الذين يكتب لهم ولعله كان في بعض الأحيان يخالف ذوقه هو ومزاجه هو ليرضي أذواق هؤلاء وأمزجتهم وليدخل السرور على أنفسهم وعلى قلوبهم ومن هنا يصبح هذا الجو نافعا للدارس من حيث أنه يفسر لنا بعض أسس الاختيار وبعض عوامل الترجيح .

هذا القول الذي نقوله لا نصدر فيه عن فروض نظرية يفرضها الدارس وإنما عن تتبع للعادات الفكرية التي كان يجري عليها أبو الفرج في انشائه للفن الأدبي وفي تأليفه للكتب تاريخية أو أدبية وهي عادات سنتناولها بالشرح المفصل في الباب الثاني إن شاء الله ونستطيع أن نكتفي هنا بإجمال لهذه العادات حتى نصل إليها هناك .

لقد كان من عادات أبي الفرج الفكرية أن يقف في مقدمات الكتب

ليفسر لنا البواعث التى دفعته إلى التأليف وليبين لنا الأغراض العلمية أو الأدبية التى يريد تحقيقها بل لقد كان أحيانا يمضى إلى أبعد من هذا فيصور لنا السبل التى سلكها فى التأليف والعقبات التى صادفها فتخطاها أو دارحولها ليسلم له الطريق . وهـذا واضح كل الوضوح من مقدمة كتابيه الأغانى ومقاتل الطالبيين .

وكان من عادات أبى الفرج أيضا أن يقف فى الفترات المتفاوتة لينبه القارىء إلى أنه لم يخرج على ما رسم لنفسه من سبل وليحثه من خطط فهو يختار مواد الكتب على أساس أنها المواد التى تفى بالأغراض أو تحقق المقاصد فهو حين يذكر خبرا أو قصة لا يذكرها إلا على هـذا الأسـاس وليس يعنيه فيما نرى أن يكون هذا الخبر صحيحا أو غير صحيح وأن تكون هذه القصة من واقع التاريخ والحياة أو من نسج الخيال أن القيم الذاتية لا تعنيه وإنما الذى يعنيه هو تحقيق المقاصد والوفاء بالأغراض .

نعم نحن لا نستطيع أن ننكر أن الظروف كانت تضطر الرجل أحيانا إلى الخروج عن هذه السبل ولـكننا نشهد الله على أن الرجل كان يتمهل فى مثل هذه المواقف ليفسر الضرورات وليعتذر عن التقصير .

وإذا كانت مقدمة كتاب الأغانى تفصح عن بعض مقاصد أبى الفرج حين تنص على أنه قد راعى فى اختياره لغير الأصوات المختارة من قبل . هذه المسائل (.... ثم بسائر الغناء الذى عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن إذ ليس لكل الأغانى خبر ولا فى كل ما له خبر فائدة ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع [1]) كان من الحتم علينا أن نقف عند هؤلاء الذين تصورهم أبو الفرج من الناظرين والسامعين لنعرف ما يروقهم وما يلبيهم وأعتقد أن ليس منا من يرى أن أصدقاء أبى الفرج ليسوا بالصورة المصغرة لهؤلاء إن لم يكونوا هم لا سيما ونحن نعلم أن أبا الفرج قد صرح فى مقدمة كتاب الأغانى أن الذى بعثه على تأليف هذا

(١) ص ١ . ج ١ . أغانى ساسى .

الكتاب رئيس من الرؤساء . فقد جاء فى هذه المقدمة (والذى بعثنى على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفنى جمعه له وعرفنى أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى اسحق مدفوع أن يكون من تأليفه . . . [١]) .

وخلطاء أبى الفرج الذين نستطيع أن نجعلهم الصورة المصغرة لهذا المجتمع الذى يريد أبو الفرج أن يروقه وأن يليهه هم أولئك الذين كانوا يجتمعون عند الوزير المهلبى فيقص عليهم أبو الفرج الأخبار والنوادر ويحكى لهم الأقاصيص وأشهر هؤلاء وأكثرهم صلة بأبى الفرج التنوخى والأيذجى فله معهم دعابات يصورها فنه ولهم فيه شهادات تصور كثرة حفظه وما كان يجتمع إليه أحيانا من قص الغرائب والمحالات انتقاما لنفسه أو لفنه من الدخلاء [٢] .

وأعتقد أنه من المستحسن أن نبدأ بقطب الرحى أو بالرجل الذى كان أبو الفرج نديما له وهو الحسن بن محمد المهلبى وزير معز الدولة البويهى فقد كان أبو الفرج فيما يحكى الثعالبى « منقطعا إلى المهلبى الوزير كثير المدح له مختصا به [٣] » .

أن التاريخ السياسى لهذه الشخصية لن يفيدنا تسجيله أو تصويره فى هذا الموقف فلسنا بصدد الحديث عن أخلاق المهلبى السياسية وكيف كان يسوس ومدى ما بلغه من انتصار على الأعداء والمنافسين فى وقت الحروب والغزوات وفى غيرهما الأمر الذى صوره آدم متز فأحسن وصفه وتصويره [٤] . وإنما نحن بصدد تلك الأحاديث والأقاصيص التى تروق الناظر والتى يطرب لها السامع والتى على أساس ذيوعها وانتشارها وإدخالها السرور على النفوس اختارها أبو الفرج وجعلها المواد التى أقام عليها كتبه

---

(١) ص ٣ المصدر السابق . (٢) ١٣/١٢٤ معجم الأدباء . ط . رفاعى

(٣) ١/١٧٨ يتيمة الدهر . ط . دمشق .

(٤) ١٦٨ـ١/١٧١ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ترجمة أبو ريده . ط . لجنه التأليف .

الأدبية كالأغانى وغيره والتاريخان الاجتماعى والأدبى هما اللذان يفيداننا فى هذا الموقف لأنهما اللذان أثرا فى عوامل الاختيار .

كان المهلبى فقيرا معدما قبل أن يتصل بالسلطان وكان من الرجال الذين يألمون من الفقر ومما يسببه الفقر من حرمان ويقول الثعالبى رواية عن أشياخه « وكانت حالة المهلبى الوزير قبل الاتصال بالسلطان حال ضعف وقلة وكان يقاسى منها قذى عينه وشجى صدره [1] » .

وكان المهلبى من الأدباء الذين يقولون الشعر ويكتبون النثر وكانت صوره الأدبية هى التعويض الوحيد الذى يمده به الفن ليخفف عنه أثقال هذه الحياة ولعل الأبيات التالية تصور لنا نفسية المهلبى المعدم والمهلبى الأديب .

ألا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى ... يخلصنى من العيش الكريه
إذا أبصرت قبرا من بعيد ... وددت لو أننى مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر ... تصدق بالوفاة على أخيه [2]

بل لعل القصة التالية التى يحكيها المهلبى نفسه أن تكون أدق فى الدلالة على هذه النفسية « وحدث أبو محمد المهلبى قال . كنت أيام حداثتى وقصر حالى وصغر تصرفى أسكن دارا لطيفة ونفسى مع ذلك تنازع الأمور العظيمة إلا أن الجد قاعد والمقدور غير مساعد فأصبحت يوما وقد جاء المطر وازدادت الحجرة إظلاما وصدرى بها ضيقا فقلت :

أنا فى حجرة تجل عن الوص ... ف ويعمى البصير فيها نهارا
هى فى الصيح كالظلام وفى الليـ ... ـل يولى الأنام عنها فرارا
أنا منها كأننى جوف بئر ... أتقى عقربا وأحذر فارا
وإذا ما الرياح هبت رخاء ... خلت حيطانها تميد انهيارا

---

(١) ٢/٨ يتيمة الدهر . ط دمشق .
(٢) ٨ ، ٢/٩ يتيمة الدهر . ط . دمشق .

رب عجل خرابها وأرخى من حذارى فقد مللت الحذارا [١]

هذه الحال لم تدم فقد أسعد المهلبى الحظ وواتته الأقدار فاتصل بالسلطان حتى وصل إلى رتبة الوزارة وأصبح من الأغنياء الموسرين الذين لا يصدهم عن طلب اللذائذ العجز عن حصول المال وأعتقد أن المهلبى لم يكد يصل إلى هذه الحال حتى اندفع فى طلب اللذائذ ، واندفع إلى غير حد . ولعله قد طلب من الأيسار والغنى أن يكفرا عن الحال السابقة حالة العسر والأملاق . وهذه الصور التى نضعها بين يديك تريك إلى أى حد بلغ الترف بهذا الرجل الذى لم يكن يجد ما يتبلغ به فيما مضى حتى طلب لنفسه الموت ولداره الخراب .

جاء فى معجم الأدباء نقلا عن كتاب أخبار الوزير المهلبى صورة لهذا الوزير وهو على مائدة الطعام هى « وكان من ظرفه فى فعله ونظافته فى ماكله أنه كان إذا أراد أكل شىء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا وكان يستعمله كثيراً فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية [٢] » . وهى صورة إن دلت على شىء فإنما على حالة الاندفاع التى يصل إليها الكثيرون ممن أيسروا من بعد عسر .

وجاء فيه أيضا « وحدث القاضى أبو على التنوخى قال شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتيع له فى ثلاثة أيام ورد بألف دينار فرش به مجالس وطرحه فى بركة عظيمة كانت فى داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد فى مائها وينفضه وبعد شربه عليه وبلوغه ما أراده منه أنهبه [٣] » .

وهى كالسابقة فى الدلالة على نفسية ذلك الرجل الذى يريد أن يصل

---

(١) ١٣٥ ، ٩/١٣٦ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ١٠٢ ، ١٣/١٠٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٣) ٩/١٣٨ المصدر السابق .

من اللذائذ إلى آخرها بعد أن وصل من الحرمان إلى أبعد غاياته حتى تمنى لنفسه الموت ولداره الخراب .

ولعل أبيات المهلبي التالية — مع ما فى الأول منها من اضطراب لم نهتد ولم يهتد الناشر إلى صحته — تصور لنا ذلك المثل الذى يطلبه الرجل لنفسه . قال رحمه الله :

إذا تكامل لى ما قد ظفرت به ... من طيب مسمعه وصوت رنان
وقهوة لو تراها خلت رقتها ... دينى ومن حاجز إن شئت أغنانى
فما أبالى بما لاقى الخليفة من ... بغى الخصى وعصيان ابن حمدان[1]

وهو مثل مما لا يحمد للرجال وبخاصة الوزراء منهم إذ كيف لا يبالى وزير بالحرب وبالثورة على الخلافة فى الوقت الذى ينصرف فيه إلى الخلاعة والمجون : ولكنها شخصية المهلبى التى يتحدث أبو الفرج نفسه عنها وعما كانت تصل إليه فى الخطاب من فحش فى القول وأدب عار مكشوف فيفصح عن هذه الشخصية ويبين .[2]

إن الثراء الضخم الذى يجىء بعد العدم والفقر والإملاق هو السبب فى كل تلك الصور الزاهية التى نراها فى حياة المهلبى وليس هو التعقيد فى الحضارة كما يقال . وأن الأدب العارى المكشوف هو الذى يرضى هذه البيئة الصغيرة المسرفة فى اللذائذ لأنه الذى يصور واقعها اليوم بعد أن كان يصور خيالها فيما مضى من الأيام . والأخبار التى يسردها المهلبى نفسه والأشعار التى يستعين بها أصحابها على قضاء حوائجهم تحمل هى الأخرى طابع تلك الشخصية المستهترة أو الشخصية الماجنة العابثة شخصية المهلبى ولقد كان من دأب الرجل أن يكثر من الحديث على الطعام وأن يكثر من المزح فى الخلوات .

حدث أبو على التنوخى قال : كان أبو محمد المهلبى يكثر الحديث على

---

(١) ١٤٢ / ٩ المصدر السابق .
(٢) ١٠٨ ، ١٠٩ / ١٣ المصدر السابق

طعامه وكان طيب الحديث وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتاب والندماء . (١)

وحدث ابراهيم بن هلال قال : كان أبو محمد المهلبي يناصف العشرة أوقات خلوته ويبسطنا فى المزح إلى أبعد غاية . (٢)

وهما حديثان يصوران دأب الرجل وعادته أما ألوان القصص التى يحكيها أو تحكى له فنستطيع أن نضع بين يديك منها هذه الصور .

قال أبو على سمعت أبا محمد المهلبى يتحدث وهو وزير فى مجلس أنس أن رجلا كان ينادم بعض الكتاب الظراف وأحسبه قال ابن المدبر قال : كنت عنده ذات يوم فرجع غلام له أنفذه فى شىء لا أدرى ما هو فقال له رب الدار ما صنعت فقال ذهبت ولم يكن فقام يجيء فجاء فلم يجيء فجئت . قال فتبينت فى رب الدار تغيراً وهما ولم يقل للغلام شيئا فعجبت من ذلك ثم أخذ بيدى وقال قد ضيق صدرى ما جاء به هذا الغلام فقم حتى ندور فى البستان الذى فى دارنا ونتفرج فلعله يخفف مانى فقلت والله لقد توهمت أن صدرك قد ضاق بانقلاب كلام الغلام عليك وقد فهمته وهو ظريف . فقال إن هذا الغلام من أحصف وأظرف غلام يكون وذاك أنى ممتحن بعشق غلام أمرد وهو ابن نجار فى جيراننا والغلام يساعدنى عليه وأبوه يغار عليه ويمنعه منى فوجهت هذا الغلام وقلت إن لم يكن أبوه هناك فقل له يصير إلينا فرجع فلما رآك عندى قدر أنى لم أطلعك على الأمر فرد هذا الجواب الظريف الذى سمعته فقلت أعده أنت لأفهمه فقال إنه يقول ذهبت إلى الغلام ولم يكن أبوه هناك فقام الغلام يجيء فجاء أبوه فلم يجيء الغلام فجئت أنا فقلت له هذا الغلام يجب أن يكون أخاً وصديقا لا غلاما . (٣)

---

(١) ٩/١٤٣ معجم الأدباء «ط» رفاعى .
(٢) ١٣٣ المصدر السابق
(٣) ١/١٢٩ معجم الأدباء . ط . رفاعى

وقال هلال ابن المحسن وحدثنى أبو إسحاق جدى قال حضر الصاحب أبو القاسم بن عباد دار الوزير المهلبى عند وروده إلى بغداد مع مؤيد الدولة فحجب عنه لشغل كان فيه وجلس طويلا فلما تأخر الإذن كتب إلى رقعة لطيفة فيها :

وأترك محجوبا على الباب كالخصى ويدخل غيرى كالأيور ويخرج

فأقر أنها الوزير المهلبى فأمر بإدخاله . (١)

وحكى أبو إسحاق الصابى فى الكتاب الناجى فقال كان لمعز الدولة أبى الحسين غلام تركى يدعى تكين الجامدار أمرد وضىء الوجه منهمك فى الشراب لايعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة إعجابه به جعله رئيس سرية جردها لحرب بعض بنى حمدان وكان المهلبى يستظرفه ويستحسن صورته ويرى أنه من عدد الهوى لامن عدد الوغى فمن قوله فيه :

ظبى يرق الماء فى وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفا ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده (٢)

ولعل من الإنصاف لأنفسنا وللمهلبى أن نقول أن ذلك العبث كان يأخذ مكانه بين جدران أربعة حيث يسكن الرجل وحيث يتخذ من الليل ستاراً . أما المهلبى فى حياته الظاهرة التى تجرى فى وضح النهار فقد كان الوزير القدير والرجل الخطير الذى يأخذه الجد وتبدو عليه سمات الوقار فتغمره من قمة الرأس إلى أخمص القدم . يصفه ابراهيم بن هلال فيقول : « . . فاذا جلس للعمل كان امرءاً وقوراً ومهيباً محذوراً آخذاً فى الجد

---

(١) ٦/ ٣٠٦ المصدر السابق
(٢) ٩ ، ١٠ / ١ يتيمة الدهر ط . دمشق :

الذى لا يتخوفه نقص ولا يتداخله ضعف . . . »[1]

ولسنا بحاجة إلى تعليل أو تفسير لهذه الظاهرة التى تأخذ مكانها فى كل مجتمع والتى سنراها عند شخصيتين أخريين هما التنوخى والأيذجى وهما كما قلنا من أصدقاء أبى الفرج كما أنهما من ندماء الوزير المهلبى وذلك لأن النفاق الاجتماعى هو الضريبة التى تتحملها أنفس البارزين الظاهرين حينما يريدون التوفيق بين ما يرضى المجتمع ومايرضى الأهواء والغرائز وحاجات الحس والشعور . إنهم يحيون حياتين إحداهما لأنفسهم والثانية للناس . والأولى تجرى على أساس الانطلاق من القيود والانفلات من العادات والتقاليد والثانية تجرى على قواعد العرف وما يفرضه الدين .

هذه صورة المهلبى وقفنا منها عند الملامح التى نحتاجها فى دراسة أبى الفرج فلنتركها إلى ما نحتاجه من صور الخلطاء الآخرين .

والتنوخى واحد من أولئك الآخرين وهو أبو القاسم على بن محمد بن داوود بن فهم ويقول عنه الثعالبى أنه من أعيان أهل العلم وأن المهلبى الوزير وغيره من وزراء العراق كانوا يميلون إليه جداً ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء ونارنج الظرفاء ولعل الحكاية التالية أو الصورة التى تصور بها الثعالبى هذا الرجل تغنينا عن غيرها فى الدلالة على خلق الرجل ومزاجه وأنه ليس إلا صورة أخرى من صور المهلبى فى هذه النواحى جاء فى اليتيمة « ويحكى أنه كان فى جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على إطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى الايذجى وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها وكذلك كان الوزير المهلبى فاذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا فى أعطاف العيش بين الخفة والطيش ووضع فى يد

---

(١) ٩/١٣٣ معجم الأدباء رفاعى .

كل واحد منهم طاس ذهب من ألف مثقال إلى مادونها مملوء شرابا قطربليا أو عكبريا فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنشور ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر وإياهم عنى السرى بقوله :

مجالس ترقص القضـــاة بها ... إذا انتشوا فى مخانق البرم
وصاحب يخلط المجون لنا ... بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شيبه عبثا ... أنامل مثل حمرة العنم
حتى تخال العيون شيبته ... شيبـة قـد مزجتها بدم

فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء [١]

إنه النفاق الاجتماعى وأنه اللهو والعبث إرضاء للنفس البشرية ومماركبت عليه من عواطف أولية وغرائز حيوانية وأنه التزمت والتوقر إرضاء للمجتمع وحفظا للتقاليد .

والأيذجى صديق ثالث وهو أيضا من القضاة وهو مثل السابقين فى الخلق والمزاج ومن هنا كان يألفهم وكانوا يألفونه ويعجبه من الأقاصيص والنوادر ما يعجبهم وليس يعجبهم إلا ما هو داعر فاجر . جاء فى معجم الأدباء : « حدث أبو على التنوخى حدثنى أبو على الحسين بن سهل بن عبدالله الايذجى وكان يخلف أبا على على القضاء بأيذج ورامهرمز ثم لم يزل على الحكم ونادم أبا محمد المهلبى فى وزارته فغلب عليه وعلا محله عنده وتخالع وتهتك فيما لا يجوز للقضاة . . . » [٢]

والقاضى الايذجى هو الذى يهجوه أبو الفرج ويرميه بأقبح القبائح حين يقول فيه :

---

(١) ١٠٥ — ٢/١٠٧ يتيمة الدهر : ط . دمشق
(٢) ٢١٠ ، ١٦/٢١١ معجم الأدباء «ط» رفاعى .

اسمع حديثى تسمع قصة عجباً لاشىء أظرف منها تبهر القصصا
طلبت عكازة للوحل تحملنى ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكنت أحسبه يهوى عصاعصب ولم أكن خلته صبا بكل عصا (١)

تلك هى الصورة التى كان يطالعها أبو الفرج كل يوم تقريبا . وتلك هى الشخصيات التى كان يجلس اليها أبو الفرج مسامراً ونديما والتى كان يعجبها من القصص ما يثير الانفعال ويرضى الغرائز والعواطف ولو بواسطة الخيال .

وأعتقد أنا لم ننس بعد تلك الصداقة التى قامت بين أبى الفرج وبين أستاذه جحظة والتى كان لها فضل السبق فى توجيه مزاج أبى الفرج نحو الفن اللاهى العابث إن كان السبق فى مثل هذا الموقف أو فى مثل هذا التوجيه يعد فضلا ولعل صورة جحظة السابقة تكفى فى الدلالة على المراد من حيث التوجيه الذى قام به الشيخ واستجاب له الطالب وأعانت عليه ظروف الحياة .

هذه صورة المجتمع القريب الذى كان يعيش فيه أبو الفرج وهى صورة سنرى مثيلاتها فى أبى الفرج فى الباب الثانى إن شاء الله . سنرى أن روحه من روحهم ومزاجه من مزاجهم وخلقه الشخصى من أخلاقهم وعاداتهم فلننتظر حتى نلتقى هناك إن شاء الله .

---

(١) ١٣/١٣٤ المصدر السابق

الفصل الخامس

رجال السياسة

ورجال السياسة الذين يعقد بعض المؤرخين بينهم وبين أبي الفرج ألوانا من الصلات هم فيما عدا المهلبي سيف الدولة الحمداني والصاحب بن عباد ثم ابن العميد وركن الدولة ثم الراضي وابن البريدي . هذا في بيئة المشرق أما في الأندلس فيعقدون هذه الصلة بينه وبين المستنصر .

(١) ونستطيع أن نبدأ من كل هؤلاء بسيف الدولة الحمداني ذلك لأن الصلات التي يعقدها بعض المؤرخين فيما بينه وبين أبي الفرج إنما تقوم على إهداء أبي الفرج له كتاب الأغاني . ولسنا بحاجة إلى أن ندل على قيمة هذا الكتاب وأثره في الحياة الأدبية لا سيما ونحن نعلم أن بحثنا هذا إنما هو عن أبي الفرج الراوية .

ومسألة إهداء الأغاني لسيف الدولة مسألة يجب أن نقف عندها طويلا ذلك لأنها كانت مثار تعليقات من القدماء من أمثال المهلبي وابن عباد ولأنها تكاد تكون المحور الذي تدور حوله أحاديثنا عن الرجل الذي ألف له كتاب الأغاني وعن السياسيين ثم لأنها أخيراً لا تثبت أمام البحث التاريخي الدقيق .

وتتلخص مسألة الكتاب في أن أبا الفرج قد حمل كتابه إلى سيف الدولة ابن حمدان وأن سيف الدولة أعطاه ألف دينار واعتذر إليه[1] وأن الصاحب بن عباد حينما بلغه هذا الصنيع علق عليه بما يؤذن بلوم سيف الدولة لأنه قصر في حق أبي الفرج لأن الكتاب يستأهل أضعافها[2] . وينقل

---

(١) ٤٦٣ وفيات الأعيان ط . باريس سنة ١٨٣٨

(٢) ٤٧٦ عيون التواريخ لابن شاكر . مخطوطة رقم ١٤٩٧ تاريخ . دار الكتب

ياقوت عن أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة أنه قال : وقال أبو محمد المهلبي سألت أبا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب؟ فقال في خمسين سنة . قال وأنه كتبه مرة واحدة في عمره وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة[1] .

ولن نستطيع نحن المضي وراء هذه الأقوال دون تثبت ذلك لأنا نعلم أن أبا الفرج قد كتب في مقدمة الأغاني أن الذي بعثه على تأليفه رئيس من الرؤساء[2] ونحن نعلم أن سيف الدولة الحمداني لم يكن رئيسا لأبي الفرج في يوم ما حتى يكلفه جمع كتاب في الأغاني .

على أن طباع سيف الدولة لم تكن فيما نعتقد لتألف هذا النوع من القصص والأخبار فقد كان الرجل رب قلم ورب سيف وقد شغل الرجل نفسه بالحروب مدة من الزمن والذي يعجبه فيما نرى شعر الفخر والحماسة وقصص الأبطال والبطولة وأخبار المعارك والحروب . وهذه الجوانب جميعها هي التي نراها ماثلة في شعر الشعراء الذين كانوا يعيشون في ظله ويحيون في بلاطه من أمثال المتنبي . أما مافي الأغاني من قصص يدور حول المغنين والغناء ومن حكايات تدور حول الشعر والشعراء من كل ما هو داعر فاجر فأولى به أن يرضي مزاج رجل من أمثال الوزير المهلبي أو الصاحب بن عباد وخاصة الأول وقد رأينا فيما مضى خلقه ومزاجه ثم هو الذي ينطبق عليه وصف أبي الفرج له بالرياسة .

نعم نحن نعلم أن ما يذكره الأغاني في المقدمة لا يتعارض وهذا الرأي فمن الجائز أن يكون أبو الفرج قد أهدى كتابه لغير الشخص الذي بعثه على تأليفه وكلفه جمعه وعند ذلك يكون من الجائز وقوع مثل هذه المسألة وأن يكون أبو الفرج قد أهدى حقا وأن يكون سيف الدولة قد أجاز وقد اعتذر .

---

(١) ١٣/٩٨ معجم الأدباء . ط رفاعي.
(٢) ١/٣ أغاني . ساسي

نعم يجوز كل هذا ولكنا نعلم أن هناك أموراً أخرى تضعف هذا الجائز وترجح منه جانب عدم الوقوع .

هناك مثلا ذلك القول الذى يقوله محمد بن قاسم بن محمد بن عبدالواحد ابن زاكور عند شرحه لقلائد العقيان فإنا نراه يقول « والصاحب لقب اسماعيل بن عباد الوزير البليغ الذى ألف له أبو الفرج الأصبهانى كتاب الأغانى[1] » وهو قول قد يكون أكثر انسجاما من القول السابق مع ما كتبه أبو الفرج فى المقدمة من أن الذى بعثه على التأليف رئيس من الرؤساء ثم لأن مزاج الصاحب وخلقه يتلاءمان مع ما فى الأغانى من قصص وأخبار .

ثم أن هذا القول من ابن زاكور يجعلنا نفكر فى هذه الأقوال التى رواها ياقوت من أن الصاحب قد قال حين بلغه أن سيف الدولة قد أعطى أبا الفـــرج ألف دينار فقط « لقد قصر سيف الدولة وأنه يستأهل أضعافها[2] » ومن أن عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة قد قال عن أبى الفرج والكتاب « وأنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة[3] » ذلك لأن مضمون هذه الفقرة الأخيرة أن أبا الفرج كتب الأغانى مرة واحدة هى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة وأن سيف الدولة أجازه وأن بن عباد أحس بتقصير سيف الدولة وعبر عن ذلك بجملته تلك . ومضمون قول ابن زاكور أن الكتاب إنما كتب للصاحب بن عباد . وبينهما من الاختلاف ما لست فى حاجة إلى أن ندلك عليه .

---

(١) تزيين قلائد العقيان بفرائد البيان . مخطوط ٣١٣ تاريخ تيموريه .
(٢) ١٣/٩٧ معجم الأدباء . ط . رفاعى (٣) ٩٨ المصدر السابق

ثم هناك هذه العداوة بين الحمدانيين فى حلب والبويهيين فى بغداد وهى العداوة التى أشار إليها مسكويه فى حديثه عن حوادث سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وماتلاها كما أشار إليها المهلبى نفسه فى شعر له ذكرناه فى الفصل السابق عند حديثنا عن الخلطاء . وليس يخفى أن التنافس العلمى بين حلب وبغداد فى ذلك الوقت كان عظيما وأن إهداء أبى الفرج كتابه إلى عدو المهلبى وعدو معز الدولة يعتبر بعيداً عن المألوف لا سيما ونحن نعلم أن أبا الفرج كان مختصا بالمهلبى يعيش فى كنفه ويستظل بحمايته وأن هذا الإهداء قد يعرضه لشر مستطير .

ولعل هذه المسألة تزداد وضوحا وبياناً لو تأملنا فيما صنعه المتنبى حين قدومه بغداد من إعراضه عن مدح المهلبى ومن وقوف الحاتمى منه ومن تصوير الحاتمى لمسألة التنافس بين البلاطين بقوله : « وتخيل أبو محمد المهلبى أن أحداً لا يقدر على مساجلته (المتنبى) ومجاراته ولا يقوم لتتبعه بشىء من مطاعنه وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون فى مملكته أحد يماثله فى صناعته ويساويه فى منزلته نهدت حينئذ متثبطاً عواره . . . إلى أن يقول : وتشاغلت بقية يومى بشغل عنّ لى تأخرت معه عن حضرة المهلبى وانتهى إليه الخبر وأتتنى رسله ليلا فأتيته فأخبرته بالقصة على الحال فكان من سروره وابتهاجه بما جرى ما بعثه على مباكرة معز الدولة قائلا له أعلمت ما كان من فلان والمتنبى قال نعم قد شفا منه صدورنا [١] . إذ كل هذه أمور تدفع بالقارىء إلى أن يتريث وأن يقف موقف الحذر فلا يندفع إلى الايمان بأن أبا الفرج قد أهدى الأغانى إلى سيف الدولة حقاً لا سيما ومن المؤرخين من يذكر أن أبا الفرج كان بحضرة المهلبى حين قدم المتنبى إلى بغداد وأنه قد كان بينه وبينه لون من الجدل والنقاش . [٢]

المسألة كما ترى غير واضحة ومن هنا كان لابد لنا من الرجوع إلى

---

(١) ١٦٠ — ١٨/١٧٩ معجم الأدباء . ط . رفاعى

(٢) ١/٣٨٥ خزانة الأدب . ط . الأولى ببولاق

قاعدتنا تلك القائلة بأن تاريخ المسألة جزء مهم من حلها فلعل هذا التاريخ أن يوضح المبهم ويظهر الخفي ويزيح الشك عن أنفسنا .

ليس لهذه المسألة وجود فى كتاب الفهرست لابن النديم وابن النديم معاصر لأبى الفرج وتوفى بعده بزمن قصير ولا نريد فى هذا الموطن أن نستنتج من ذلك أن إهداء أبى الفرج كتابه لسيف الدولة لم يكن لأنا نعلم أن من عادة ابن النديم أن يستغنى فى كثير عن الشائعات أو المشهور المتداول ثم أن الرجل لم يكن يهتم كثيراً بمسألة المنح والجوائز فلقد كان الذى يعنيه مسألة الكتب وموضوعاتها لأنه من الوراقين .

وليس لهذه المسألة وجود فى يتيمة الدهر للثعالبى لا فى حديثه عن أبى الفرج ولا فى حديثه عن سيف الدولة ولن نستطيع أن نقول هنا ما قلناه فى ابن النديم فنحن نعرف أن صاحب اليتيمة كان معجباً بسيف الدولة معنياً بأمره وأنه قد عقد فصلا خاصا لهذه المنح التى تعطى للشعراء عنوانه « فصل فى انفجار ينابيع جوده على الشعراء » وأنه قد ذكر فى هذا الفصل أن سيف الدولة كان قد أمر بضرب دنانير للصلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته [1] ومن هنا يكون من الحتم أن نحاول تعليل هذا السكوت من الثعالبى لاسيما ونحن نعلم أن الثعالبى قد ذكر من الشعراء من هو أقل من أبى الفرج قدرة فى الميدان الأدبى بل نعلم أنه ذكر فى هذا الفصل أسماء الوافدين من الأعراب .

لقد ولد الثعالبى فى حياة كل من سيف الدولة وأبى الفرج وعاصر بعض من يعرف عن الرجلين أخبارهما واهتم بالتاريخ لهما وذكر عن كل منهما ماهو من جنس هذه المسألة فان تكن قد حدثت وسكت فلا بد من التعليل وإلا كان الوضع لهذه النصوص القائلة بأن أبا الفرج قد أهدى كتابه لسيف الدولة هو الأمر القائم .

---

(١) ١١ — ١٣ ج١ يتيمة الدهر . ط . دمشق .

كذلك يسكت كل من الخطيب البغدادى[١] والذهبى[٢] وسكوتهما يضاعف من قيمة شكنا وارتيابنا فى تلك الأقوال الذاهبة إلى إقامة الصلة بين كل من سيف الدولة وأبى الفرج .

على أنا لو رجعنا إلى تلك الكتب التى جمعت من أخبار سيف الدولة الأدبية والتاريخية الأمور الكثيرة فانا لن نجد لهذه المسألة ظلا فى النصوص المنقولة عن كتب الأقدمين مع عناية أصحاب هذه الكتب بما هو من جنس هذه المسألة [٣]

المسألة كما قلت فى حاجة إلى وقفة طويلة ومن هنا يحسن بنا أن نترك هذه الكتب الصامتة إلى الكتب الناطقة فلعلها أن تكون هى الهادية المرشدة .

إن أقدم كتاب وقفنا على هذه المسألة فيه هو معجم الأدباء لياقوت وذكر ياقوت لها لايدل عليها فى صراحة ذلك لأن الرجل لم يعبر عن رأيه وإنما ذكر لنا نصوصا وجدها فى مقدمة كتاب وهى نصوص لابد من ذكرها فى هذا الموطن لنتدبر الأمر سوياً ولنعرف كيف نشأت هذه المسألة مسألة إهداء أبى الفرج كتاب الأغانى لسيف الدولة وكيف مضت فى الكتب حتى عصرنا الحاضر .

جاء فى معجم الأدباء (وقال الوزير أبو القاسم ، الحسين بن على بن الحسين ، المغربى فى مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغانى إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار وبلغ ذلك الصاحب أبا القاسم بن عباد فقال لقد قصر سيف الدولة وأنه يستأهل أضعافها ووصف الكتاب فأطنب ثم قال

---

(١) ٣٩٨ ـ ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد

(٢) لوحات ١٧٥ب ، ١٧٦ أ تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤١ تاريخ دار الكتب .

(٣) راجع (أ) نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة الحمدانى للمربوس كنار الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر . ط . الجزائر سنة ١٩٣٤

(ب) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . ط . العلمية بحلب سنة ١٩٢٣

ولقد اشتملت خزائنى على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميرى غيره ولا راقنى منها سواه .

قال وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة لم يكن كتاب الأغانى يفارق عضد الدولة فى سفره ولا حضره وأنه كان جليسه الذى يأنس إليه وخدينه الذى يرتاح نحوه .

قال وقال أبو محمد المهلبى سألت أبا الفرج فى كم جمعت هذا الكتاب فقال فى خمسين سنة .

قال وأنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة .

قال المؤلف لعمرى أن هذا الكتاب . . . (١)

إن المعنى الحرفى لهذا النص هو فيما نرى أن الحسين بن على بن الحسين المغربى قد انتخب من كتاب الأغانى وأنه انتخب ذلك لسيف الدولة وأن سيف الدولة أعطاه ألف دينار وأنه كتب ذلك وكتب تعليقات مشاهير الأدباء فى ذلك العصر من أمثال المهلبى والصاحب بن عباد وعبد العزيز بن يوسف فى المقدمة .

نعم إن النص مضطرب وغير مستقيم ولا يدل على هذا الأمر بوضوح وجلاء . ثم نعم أن الوزير المغربى لم يدرك سيف الدولة فقد توفى سيف الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة (٢) . وولد الوزير المغربى سنة سبعين وثلاثمائة (٣) ولكن هذا النص على ما فيه من عدم الصحة وعدم الدقة كان الباعث لياقوت على أن يذهب إلى ما ذهب إليه من أن أبا الفرج قد أهدى كتابه الأغانى لسيف الدولة ومما ساعده على هذا الفهم هذه التعليقات التى ذكرت آنفا عن كل من المهلبى والصاحب وعبد العزيز بن يوسف فان

---

(١) ٩٧ ، ١٣/٩٨ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ٦/٢٣٩ تجارب الأمم ط التمدن سنة ١٩١٥
(٣) ٨٠ / ١٠ معجم الأدباء . ط . رفاعي

ذكرها باعد بين ياقوت وبين الفهم الدقيق والتحرى الصادق لهذا النص .

على أن من جاء بعد ياقوت قد أخرج من النص شيئين الأول أن أبا الفرج قد أهدى كتابه لسيف الدولة وأن سيف الدولة أعطاه جائزة قدرها ألف دينار . والثانى أن الوزير المغربى قد اختصر كتاب الأغانى ومن الواضح أن من ذهب إلى هذا قد فطن إلى أن الوزير المغربى لم يدرك سيف الدولة وأن النص لا يستقيم على هذا التفسير .(١)

إن فى المسألة سراً لابد من إدراكه والكشف عنه ولعل هذا السر أن يكون فى تلك المقدمة التى نقل عنها ياقوت هذا النص . فأين هو هذا الكتاب ؟ ولمن يكون ؟ أيكون للحسين بن على بن الحسين الوزير المغربى أم يكون لغيره ؟ وإذا كان لغيره فمن هو هذا الغير ؟ .

هذا هو السؤال الذى لا بد من الإجابة عنه لنفهم هذه المسألة ونبين الرأى الصحيح .

إن الذين ترجموا للوزير المغربى من القدماء وبخاصة أولئك الذين يعدونه شيخاً لهم من أمثال أبى العباس أحمد بن على بن أحمد بن العباس النجاشى لم يذكروا لنا انتخاب الوزير لكتاب الأغانى وإنما ذكروا لنا من المختارات الأدبية اختيار شعر أبى تمام واختيار شعر البحترى واختيار شعر المتنبى والطعن عليه وذلك كله إلى جانب كتب له أخرى يذكرها النجاشى تلميذ الوزير المغربى (٢) . وحتى ياقوت نفسه لم يذكر هذا الكتاب للوزير المغربى (٣) . وليس وراء ذلك كله إلا الشك والاتهام فى هذه الأقوال السابقة التى نقلها ياقوت عن مقدمة كتاب يرى أنه للحسين بن على بن الحسين الوزير المغربى وأنه كان منتخباً لسيف الدولة الحمدانى .

لنقرأ سوياً هذا النص عن ابن الخازن البغدادى المتوفى سنة اثنتين وخمسمائة فلعله أن ينير أمامنا السبيل .

---

(١) راجع مقدمة الأغانى . ط . دار الكتب وهى المقدمة التى كتبها الناشرون .
(٢) ٥١ رجال النجاشى . ظ . الهند سنة ١٣١٧هـ .
(٣) ٧٩ — ١٠/٩٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

والحسين بن على بن الحسين أبو الفوارس الكاتب صاحب الخط المشهور المعروف بالجودة والحسن وكان فريد عصره فى الكتابة . قال ابن خلكان وغيره كتب فيما كتب خمسمائة نسخة من كتاب الله عز وجل ما بين جامع وربعه . وقال غير ابن خلكان وكتب من الأغانى الكبير ثلاث نسخ وجعل احداها لسيف الدولة ونهبت من خزانته فجمع ببغداد منها ستة عشر مجلداً . (١)

أعتقد أن هذا النص هو الخيط الذى يجب أن نمسك به لنهتدى إلى الطريق ذلك لأن اسم المغربى واسم ابن الخازن يتفقان أو يتشابهان إلى حد كبير فهذا الحسين بن على بن الحسين وذاك أيضاً الحسين بن على بن الحسين . وكل منهما كان حسن الخط ولقد قال ياقوت عن الوزير المغربى فى ترجمته له . وكان حسن الخط سريع البديهة (٢) وقد كتب اسم ابن الخازن فيما نتوقع وكما هى العادة على نسخة الأغانى التى انتهبت من خزائن سيف الدولة كما كتب اسم سيف الدولة وهنا يصح لنا أن نذهب إلى أن هذه النسخة هى التى وقعت فى يد ياقوت ويرجح ذلك أن صاحب معجم الأدباء يشعرنا من حديثه عن كتاب الأغانى بأن النسخة التى وقعت له كانت مضطربة وأنه ينقصها شىء (٣) . وأنه لتشابه الأسماء المغربى وابن الخازن وسيف الدولة وسيف الدولة وأنه لجودة خط كل من ابن الخازن والمغربى وأنه لصلة والد الوزير المغربى وأهله بسيف الدولة الحمدانى (٤) الحمدانى . ذهب ياقوت إلى ماذهب إليه وجاء من بعده فجروا خلفه حتى تجىء دائرة المعارف الإسلامية فتعبر عن أبى الفرج بهذه العبارة، ونال رعاية سيف الدولة الحمدانى، ويجىء من بعدها من المحدثين فينقلون العبارة فى كتبهم أو مقالاتهم من أمثال

---

(١) لوحة ٣٢ ج١ ابن الفرات ـ تاريخ الدول والملوك ـ مصور رقم ٣١٩٧ . تاريخ دار الكتب .

(٢) ٨٠ / ١٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

(٣) ١٣/٩٩،٩٨ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

(٤) ج٣ ص١٥٥ وما بعدها خطط المقريزى .

الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ظهر الإسلام والأستاذ سيد صقر فى مقدمة كتاب مقاتل الطالبيين والأستاذ محمد بك كرد على فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ولجنة دار الكتب فى مقدمة كتاب الأغانى .

أعتقد أن الأمر ما شرحت وأن اللبس أو التفسير الذى قام به ياقوت هو أساس المسألة كما جاءت فى كتب الأدباء والمؤرخين .

ويبقى بعد ذلك أن نعرف من هو سيف الدولة هذا الذى كتب له ابن الخازن نسخة من كتاب الأغانى فلعل هذه المعرفة أن تزيدك اقتناعا أو تزيد المسألة فى ذهنك وضوحاً وبيانا .

سيف الدولة هذا هو أبو الحسن صدقه الذى يقول عنه ابن خلكان « كان يقال له ملك العرب وكان ذا بأس وسطوة وهيبـــة [1] ، وهو أبو الحسن صدقه الملقب فخر الدين بن بهاء الدولة أبى كامل منصور بن دبيس بن على بن مزيد الأسدى صاحب الحلة السيفية . وله نظم الشريف أبو يعلى محمد بن الهبارية كتاب الصادح والباغم [2] . ويقول عنه ابن الأثير (وكان له من الكتب المنسوبة الخط شىء كثير ألوف مجلدات وكان يحسن يقرأ ولا يكتب وكان جواداً حليما صدوقا كثير البر والإحسان ما برح ملجأ لكل ملهوف يلتى من يقصده بالبر والتفضل يبسط قاصديه ويزورهم وكان عادلا والرعايا معه فى أمن ودعة وكان عفيفا لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها فما ظنك بغير هذا . ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة وكان أصحابه يودعون أموالهم فى خزانته ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له وكان متواضعا محتملا يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله لقد كان من محاسن الدنيا [3]) .

---

(١) ، (٢) ٣٢٤، ٣٢٥/١ ابن خلـكان . ط. الأميرية .

(٣) ١٠/١٥٨ الـكامل لابن الأثير ـ حوادث سنة احدى وخمسمائة .

وتوفى سيف الدولة هذا سنة إحدى وخمسماية .

الصلة التى يعقدها بعض المؤرخين بين سيف الدولة الحمدانى وأبى الفرج على أساس إهداء الكتاب وإجازة أبى الفرج عليه غير ثابتة ولا تقوم من هذه المقدمة التى ذكر ياقوت ما فيها من أقوال . كما لم ترقيامها من نصوص أخرى أو من فن أبى الفرج نفسه وهذا هو المعقول لو وضعنا نصب أعيننا ماذكرناه سابقا من أمور تلك العداوة وذلك التنافس بين الحمدانيين والبويهيين ولسنا فى حاجة إلى أن ندل على مركز أبى الفرج من تلك العداوة التى كانت تستتبع حروباً وذلك التنافس الذى دعا إلى الكيد للمتنبى ببغداد فلقد يكفى أن نذكر القارىء بأن أبا الفرج كان مختصا بالمهلبى الوزير البويهى ومنقطعا له وأنه كان من الذين يكيدون للمتنبى بحضرة هذا الوزير .

أما تلك النصوص أو هذه التعليقات التى جمعها الجامع فى المقدمة فلم تكن إلا لتعلى من قـــدر الكتاب حتى يكثر الطلب فيكثر النسخ وأعتقد أنها نصوص موضوعه وليست بمجموعة وأن الذى وضعها هو ابن الخازن نفسه ذلك لأن هذه النصوص لم تكن فيما يبدو على فرض جمعها إلا بعد وفاة أبى الفرج ولقد توفى أبو الفرج بعد سيف الدولة الحمدانى وبعد الوزير المهلبى .

إن ابن الخازن هو صاحب المصلحة فى هذا وهو الذى وضع هذه النصوص فيما أعتقد ومن هنا نراه يوزعها على ألسنة كبار الكتاب فى ذلك العصر : المهلبى والصاحب وعبد العزيز بن يوسف وينص على أن أبا الفرج لم يترك إلا نسخة واحدة هى تلك التى أهداها لسيف الدولة وكأنه يريد أن يقول أنه يملك هذه النسخة فليسرع إلى الحصول على صورة منها من يريد .

هذا هو الرأى الذى أميل إليه فى هذه المسألة وهو رأى لا أستطيع القطع به وإنما أقول بترجيحه لما قدمت من قرائن .

(٢) والصاحب بن عباد هو الشخصية التى تجىء بعد شخصية سيف الدولة وليس ذلك إلا لأنه يشترك وإياه فى مسألة كتاب الأغانى فكل منهما هو

الشخص الذى ألف من أجله أبو الفرج هـــذا الكتاب عند بعض الإخباريين أو بعض الرواة .

والنصوص التى يرد فيها اسم الصاحب مرتبطا بأبى الفرج هى النصوص التى أشرنا إليها قبلا من تعليق الصاحب عند سماعه بخبر جائزة سيف الدولة لأبى الفرج حين أهداه الكتاب ومن وصفه للكتاب وإطنابه فى هذا الوصف وقوله « ولقد اشتملت خزائنى على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ماهو سميرى غيره ولا راقنى منها سواه [1] ومن قول ابن زاكور فى شرح قلائد العقيان من أن الصاحب بن عباد هو الذى عمل له أبو الفرج كتاب الأغانى .

وحديث الصاحب عن الجائزة وعن كتاب الأغانى مستبعد من هذا الميدان وليس ذلك اعتماداً منا على ماسبق أن رجحناه من أن مسألة إهداء كتاب الأغانى لسيف الدولة الحمدانى غير ثابتة وأنها نتجت من التباس بين الأسماء وخطأ فى تفسيرها وإنما لسبب آخر هو أن هذا الحديث لا يثبت صلة مابين أبى الفرج وبين الوزير الأديب الصاحب بن عباد فلقد يكون هذا القول مع صحة ثبوته ممن لم يتصل بأبى الفرج فهو لا يعدو أن يكون تعليقا من رجل يهتم بالعلم والأدب على حادثة سمع بها وليس من اللازم أن يكون صاحب هذه التعليقة ممن يعرفون المهدى والمجيز .

أما قول ابن زاكور فهو الذى يجب أن نقف عنده ذلك لأنه يثير أمامنا مسائل جديرة بالبحث فيما يخص هذا الكتاب .

وأول هذه المسائل أنا لو نظرنا إلى خلق الصاحب ومزاجه وإلى مكانته العلمية والاجتماعية فى هذا الوقت لما استبعدنا أن يكون أبو الفرج قد ألف له هذا الكتاب فلقد كان الصاحب من الذين يحبون العلم والأدب ومن الذين يعطفون على الشعراء والعلماء . ولقد كانت مجالســـة منتدى

---

(١) ١٣/٩٧ معجم الأدباء ط . رفاعى

الكثيرين منهم وكان يعطيهم عن سعة حتى ليقال أنه أنفق أمواله على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد وأنه مدح بمائة ألف قصيدة مابين عربية وفارسية [١] . ولقد كان أبو الفرج يقول الشعر ويؤلف الكتب سعيا وراء المال .

ولو نظرنا إلى الصلات القائمة بين الصاحب وبين الوزارة والإمارة فى بغداد لما وجدنا هذه الخصومات التى كانت تشوب الموقف فيما بين بغداد وحلب . ولعل الأمر أن يكون على العكس فانها الدعابات الحلوة التى تكون بين الأصدقاء والخلان ولعلنا لم نفس بعد أمر تلك الرقعة التى دفع بها الصاحب إلى أبى إسحاق الصابى ليوصلها إلى المهلبى والتى كان فيها :

وأترك محجوباً على الباب كالخصى ويدخل غيرى كالأيور ويخرج[٢]

فانها رقعة تدل على حسن الصلات وتدل من جانب آخر على عدم الحرج فى أن يعمل أبو الفرج كتاب الأغانى للصاحب الأمر الذى لا نشعر به فى مسألة إهداء الكتاب لسيف الدولة الحمدانى .

لا تستبعد المسألة من حيث هذه النواحى وانما نقيم استبعادنا لها على أمور أخرى هى :

أولا : أنها لم تظهر إلا متأخرة وذلك وإن لم يكن سببا كافيا للاستبعاد إلا أنه سبب قوى لبدء الاتهام .

ثانيا : إن تصوير التواريخ للمسألة يدفع إلى استبعادها ذلك لأنا نعلم أن أبا الفرج قد نص فى مقدمة كتاب الأغانى على أن الذى بعثه على تأليف هذا الكتاب رئيس من الرؤساء ولن نستطيع أن نتصور أن ابن عباد كان رئيسا قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر فلقد كان فى بدء أمره كما يقول ياقوت من صغار الكتاب وكان يخدم أبا الفضل ابن العميد ثم ترقت به الحال فكتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة [٣] وهو أمير وظل هكذا حتى مات

---

(١) ٦/٢٦٣ معجم الإدباء . ط . رفاعى (٢) ٣٠٦ المصدر السابق
(٣) ١٧٢ ، ١٧٣ المصدر السابق

ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصفهان وتلك النواحى فأبقى على ابن العميد حتى قتل وعند ذلك استوزر الصاحب وذلك فى سنة ستين وثلاثمائة [١] ويقال أنه قد اشتغل فى بدء أمره معلما فى قرية[٢] . وإذا كان هذا هو المسطور من أمر الصاحب فان مضمونه أن يكون الصاحب قد طلب ذلك وهو رئيس أى فى سنة ستين وثلاثمائة وأن يكون أبو الفرج قد بدأ يجمع كتاب الأغانى فى هذه السنة وليس يخفى أن أبا الفرج قد توفى بحسب الرواية الشائعة التى صححها الخطيب البغدادى سنة ست وخمسين وثلاثمائة .

وإذا ماوضعنا إلى جانب التصوير السابق ما يشير إليه ياقوت من أن هذا الكتاب قد أخرج والمملى على قيد الحياة تبين لنا إلى أى حد تصبح هذه الروايات متضاربة وبعيدة عن الواقع لأن المملى قد توفى فى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة . [٣]

ثالثا — أن أمر إخفاء اسم هذا الرئيس فى المقدمة يجعله غير الصاحب فلقد توفى أبو الفرج والصاحب فى عز مجده وسلطانه وكان يسعد أبا الفرج فيما نعتقد أن يهدى الكتاب للصاحب وأن يذكره فى مقدمة الكتاب باسمه لا بصفته تلك التى يفسرها بالرياسة .

إنا نرى أن أبا الفرج لم يخف اسم هذا الرئيس إلا اتقاء لغضب أو خوفا من مكروه وأن هذا الرئيس كان من المغضوب عليهم يوم أن أخرج أبو الفرج هذا الكتاب للناس . ذلك هو ما نميل إليه فى أمر هذا الرئيس وهو ماسنناله بالشرح بعد لحظات .

أعتقد أنا نستطيع أن نقول أنه ليس لدينا من النصوص مانقيم به صلة بين أبى الفرج وبين الصاحب وإن كنا لا نستطيع أن نستبعد قيام هذه الصلة من حيث مكانة الصاحب الاجتماعية والأدبية وأنه كان موئل العلماء ومقصد الشعراء أو الأدباء .

---

(١) ٦/٢٧٤ تجارب الأمم . ط . التمدن سنة ١٩١٥ .

(٢) ١/١٧١ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز . ط . لجنة التأليف.

(٣) ٦/١٩٧ تجارب الأمم . ط . التمدن سنة ١٩١٥ .

كما أنه ليس لدينا مما بقى من فن أبى الفرج نفسه ما يثبت هـــذه الصلة الأدبية وهو الأمر الذى يدعونا إلى التوقف ويدفعنا إلى الحذر والحيطة من تصديق كل ما يقال .

(٣) والشخصية الثالثة أو الشخصيتان الثالثة والرابعة هما شخصية ابن العميد ومخدومه ركن الدولة بن بويه . وياقوت هو الذى يذكر هذه المسألة حين يقول « قرأت بخط هلال بن المظفر الكاتب الزنجانى . حدثنى الأستاذ أبو المظفر عبدالغفار بن غنيمة قال كان أبو الفرج الكاتب الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى كاتبا لركن الدولة حظيا عنده محتشما لديه وكان يتوقع من الرئيس أبى الفضل بن العميد أن يكرمه ويبجله ويتوقر عليه فى دخوله وخروجه وعدم ذلك منه فقال .

مالك مـــوفور فما باله ... أكسبك التيه على المعدم
ولم إذا جئت نهضنا وإن ... جئنا تطاولت ولم تُتمِم
وإن خرجنا لم تقل مثل ما ... نقول قدم طرفه قدم
وإن كنت ذا علم فمن ذا الذ ... ى مثل الذى تعلم لم يعـــلم
ولست فى الغارب من دولة ... ونحن من دونك فى المنسم
وقد ولينا وعزلنـــا كما ... أنت فلم تصغر ولم تعظم
تكافأت أحـــوالنا كلها ... فصل على الأنصاف أو فاصرم[1]

وقد روى أبو حيان فى كتاب الوزيرين من تصنيفه من خبر هذه الأبيات غير هذا والشخصية التى يشير إليها أبو حيان هى شخصية رجل آخر له مثل الاسم والكنية . وهى شخصية على بن الحسين بن هندو . وكنيته أبو الفرج ولعل هذا التشابه فى الأسماء هو الذى أوقع الكاتب الزنجانى فى الخطأ[2] .

على أن مسألة الارتياب فى صلة هذه الأبيات بصاحب الأغانى لا تقف

---

(١) ١١٠ ، ١١١ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) راجع ٢٧٩ / ٦ مسكويه ١٣٦ / ١٣ معجم الأدباء

عند ذلك الحد بل تعدوه إلى ما أورده ابن خلكان من أن هذه الحادثة وهذا الشعر إنما كان من أبي الفرج أحمد بن محمد الكاتب (١) .

ولعلنا لو فكرنا في المسألة من حيث دلالة الأبيات نفسها . وما فيها من عزل وتولية ومن حيث المدة التي كان فيها أبو الفضل بن العميد وزيراً وأنها هي عينها تلك التي كان فيها المهلبي وزيراً ببغداد وأن أبا الفرج كان في ذلك الوقت منقطعا إليه ومختصا به لوقفنا من هذه الأبيات ومن هذه الحادثة موقف من لا يرى فيها خيراً من حيث دلالتها على صلة صاحب الأغاني برجال السياسة والسلطان .

نتوقف هنا كما توقفنا فيما مضى ونقول هنا ما قلناه آنفا من أنه لم يثبت لدينا ما يقيم الصلات بين كل من سيف الدولة الحمداني وأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وبين أبي الفرج صاحب الأغاني . ونحترس هنا أيضا فنقول إنا لا نستبعد قيام هذه الصلات وإنما نستبعد فقط أن تكون هذه النصوص التي تروى صحيحة وأن تكون هي الدالة على هذه الصلات .

(٤) ويبقى بعد ذلك من الشخصيات السياسية بالمشرق شخصيات يثبت فن أبي الفرج نفسه قيام الصلة بينه وبينها وهذه الشخصيات هي شخصيات أبي عبد الله البريدي وأبي محمد الوزير المهلبي .

أما البريدي فقد كان من رجال السياسة الذين أقلقوا بال الخلفاء وثاروا عليهم أكثر من مرة وجمعوا الجموع وتغلبوا على جند الخلافة في بعض المواقع وكان الخلفاء يخشون بأسه ويريدون مصالحته إتقاء لشره ودفعا لخطره وكانت هذه المصالحة تقليد البريدي الوزارة وكان ذلك فيما يحكي مسكويه سنة سبع وعشرين وثلاثمائة (٢) . وهنا قال أبو الفرج قصيدة يهجو فيها البريدي الوزير . ويشير إلى أن مصالحته بتقليده الوزارة ليست من الأمور التي تحمد للخليفة وأنها لن ترد عن الخلافة كيد هذا الوزير .

---

(١) ٨٥ / ٢ وفيات الأعيان . ط . الأميرية

(٢) ٤٠٩ /٦ تجارب الأمم التمدن .

ويذكر ياقوت أن أبيات هذه القصيدة قد بلغت المائة (١) .

وقبل أن نضع بين يدى القارىء ما تبقى من أبيات هذه القصيدة نحب أن نثير فى ذهنه مسألة قد تعيننا على الوقوف على اللون الفنى الذى يسود هذه القصيدة وهل هى من الشعر السياسى أو من شعر الهجاء ؟ وهذه المسألة هى : لماذا اهتم أبو الفرج بهذه الحادثة دون غيرها من الأحداث ؟ لقد وقعت فى أيام أبى الفرج أحداث أحالت الدولة إلى دويلات ووقع فيها من العسف والظلم والاضطهاد ما ينطق الصم البكم فضلا عن الأدباء فلماذا لاذ بالصمت ولماذا لم يصور غير هذه الحادثة من الأحداث ؟

لا نستطيع الذهاب إلى أنه قد فعل وأن هذا الشعر قد ضاع فليست حادثة البريدى أعز على الرواة والإخباريين من غيرها من الأحداث حتى يحفظوا ما قيل فيها من شعر ويتركوا ما قيل فى غيرها من الأحداث . إن اللون الفنى فى هذه القصيدة هو فيما نعتقد الذى سيشرح لنا موقف أبى الفرج ومقصده وهل قصد إلى السياسة أو إلى الهجاء ؟

هذه هى الأبيات التى وردت فى كل من الفخرى ومعجم الأدباء .

يا سماء اسقطى ويا أرض ميدى ... قد تولى الوزارة ابن البريدى

جل خطب وحل أمر عضال ... وبلاء أشاب رأس الوليد

هد ركن الإسلام وانهتك الملـــك وحيت آثاره فهو مودى

ويقول :

وتوهمت أن سيخدعه ذا ... ك فيغتاله اصطياد الصيود

هو أزنى مما تقـــدر أما ... ليس ممن يصاد بالتقليد (٢)

كما جاء فيها :

يالقومى لحر صدرى وعولى ... وغليلى وقلبى المعمود

حين سار الخميس يوم خميس ... بالبريدى فى ثياب ســـود

---

(١) ١٢٧/ ١٣ معجم الأدباء . رفاعى

(٢) ١٢٧ ، ١٢٨ معجم الأدباء : ط . رفاعى

قد حباه بها الإمام اصطفاه واعتماداً منه لغير عميـــد
خلع تخلع العـــلا ولواء عقده حل عقدة المعقود[1]

وهى أبيات وإن تكن قليلة إلا أنها تصور لنا رأى أبى الفرج فى الموقف وفى ابن البريدى بصفة خاصة فأبو الفرج يرى أن هذا التقليد شر على الإسلام والمسلمين وهو يرى أن الخليفة قد جرى على غير الطريق المستقيم وأنه لا يعرف خلق البريدى وطبعه وهو يدلنا على أن هذا التقليد قد آلمه هو بصفة خاصة . لماذا ؟ ذلك هو السر الذى نريد أن نعرفه وهو السر الذى سيفسر لنا اهتمام أبى الفرج بهذه الحادثة خاصة .

إن أبا الفرج يرى أن طبع البريدى من الطباع السيئة ويعبر عن ذلك بعبارة مؤلمة قاسية فالبريدى فى طباعه الأم وأخبث مما يقدر الخليفة هو ابن زناء ولن يفيد فيه معروف ولن يكسب منه الخليفة خيراً . ولكن هل هذا هو الذى دفع أبا الفرج إلى هذه القصيدة ؟ أو أن أبا الفرج كما أشار هو أراد أن يشفى نفسه مما تجد ؟

أعتقد أن هناك شيئا آخر هو الذى ملأ نفس أبى الفرج بعواطف السخط على البريدى وأنه انتهز هذه الفرصة فرصة التقليد ليشفى نفسه من هذه العواطف . وأعتقد أن هذا الشىء لم يكن إلا الجوار فلقد كان أبو الفرج جارا للبريدى يسكن وهذه العائلة فى درب واحد من دروب بغداد وكانت داره ملاصقة لدار البريدى [2] . فهل كان هذا الجوار هو السبب فى كل هذا وأنه الذى ملأ قلب أبى الفرج موجده على هذه العائلة وأنه وجد المتنفس فى هذه الحادثة ؟ أعتقد هذا ويزيدنى إيمانا بهذا الاعتقاد حرص أبى الفرج على الابتعاد عن خضم السياسة وما تثيره من مشكلات وهو حرص أشرنا إلى بعض أسبابه عند حديثنا عن الأسرة وسنزيده إيضاحا فى الباب الثانى إن شاء الله

---

(١) ٢٥١ ، ٢٥٢ الفخرى فى الآداب السلطانية الطبعة الثانية المعارف .
(٢) ١٠٤ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

صلة أبى الفرج بالبريدى صلة عداء وفنه فيه هو فن الهجاء ولعله أن يكون من المستحسن أن نذكر هنا ما قاله البريدى حين انتهت إليه هذه القصيدة وما فعله حين سمع هذا البيت .

هو أزنى مما تقدر أما ليس ممن يصاد بالتقليد

فيقال إنه حين سمع هذا البيت ضحك وضرب بيديه ورجليه وقال . لو عرف أبو الفرج ما فى نفسى وأزال الوحشة وصار إلى لبالغت فى صلته والأفضال عليه من أجل هذا البيت [١] .

وأما المهلبى فقد قدمنا فى الفصل السابق عن صلة أبى الفرج به الشىء الكثير وقد يكفى فى هذا الموقف أن نشير إلى أنا نعتقد أنه الشخصية التى ألف أبو الفرج لها كتاب الأغانى وأنه الرئيس الذى أشار إليه فى مقدمة الكتاب فقد كان أبو الفرج منقطعا للمهلبى مختصا به [٢] . وكان المهلبى يختاره فى كل شىء مريح وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها وظل هكذا إلى أن فرق بينهما الموت [٣] . وكان أبو الفرج يؤلف له الكتب ومن ذلك مناجيب الخصيان [٤] . وأن أبى الفرج لم يذكر إسم المهلبى واكتفى بصفة الرياسة لأن الرجل قد مات مغضوبا عليه من معز الدولة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ولعله من أجل هذا الغضب نفسه سكت أبو الفرج عن أن يقول فى المهلبى شيئا من الرثاء .

ذلك فهم أفهمه وهو ينتهى بى إلى فرض إلا أنى أطمئن إليه وأشعر أنه أقرب الفروض فى هذه المسألة إلى الصواب .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى علاقة أبى الفرج برجال السياسة من خلفاء الأندلس وأنه كان يهدى إليهم كتبه ويجيئه الأنعام عليها سراً [٥] . ويذكر ابن خلدون كما يذكر صاحب نفح الطيب عن المستنصر ما يلى (وكان

---

(١) ١٢٨ معجم الأدباء . ط . رفاعي (٢) ٢/٢٧٨ اليتيمة . ط. دمشق
(٣) ١٣/١٠٥ معجم الأدباء . ط . رفاعى . (٤) ١٠٠ المصدر السابق
(٥) ١١/٣٩٨ الخطيب ، ١٣/١٠٠ معجم الأدباء .

يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه وبعث فى كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى وكان نسبة فى بنى أمية وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق (١).

لقد اتصل أبو الفرج بالمهلبى وخلفاء بنى أمية بالأندلس ولكنه الاتصال الأدبى الذى يقوم على تأليف الكتب ونيل الجوائز عليها . أما ماعدا ذلك من أمور السياسة والسلطان فليس لدينا من النصوص ما يثبته . وقد يكفى ما قدمنا من أحاديث لبيان موقف أبى الفرج من رجال السياسة الذين يصلهم به أقوال بعض المؤرخين من القدماء .

(١) ٤/١٤٦ تاريخ ابن خلدون ، ١/١٨٠ نفح الطيب .

الباب الثانى

حياة أبى الفرج

الفصل الأول

أصبهان وسر من رأى

نستطيع الآن بعد أن شرحنا بعض العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج من حيث هو إنسان ، وحققنا بعض المسائل المتعلقة بتاريخه أن نعمد إلى هذه الحياة فنرسم لها صورة وأن نضع هذه الصورة فى إطارات من الحدود الزمانية والمكانية . تلك التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول من الباب الأول نضعها فى هذه الإطارات حتى نتبين شخصية أبى الفرج ونقف على الجوانب المهمة من حياته وعند ذلك نستطيع الوقوف عند هذه الجوانب لنتعرف عليها واحداً واحدا ونصوره الصورة التى تجعله من الأسس الصالحة لبيان ما كان يجرى عليه أبو الفرج فى مروياته من خصائص أو تقاليد .

وأول الإطارات فيما نرى إطار أصبهان ثم إطار سر من رأى وحديثنا عن هذين أو عن هاتين المدينتين يتطلب منا الوقوف فى حذر واحتياط — إن لم يكن فى دقة واتقان — على ما لعبته كل من المدينتين من دور فى حياة أبى الفرج وذلك لأن المواد التى سنعتمد عليها فى بيان هذا الدور ليست إلا القرائن التى لم تصل بعد إلى مرتبة الأدلة التى تدفع إلى الإقناع واليقين .

(١) والدور الذى لعبته أصبهان فى حياة أبى الفرج إنما يرجع فى الغالب إلى حياة الأسرة وأرجو ألا نكون قد نسينا ما قلناه فى الفصلين الأول

والثانى من الباب الأول من أن كثيرين من أسرة أبى الفرج لأبيه كانوا ينتسبون إلى هذه البلدة وأن منهم جده وعمه وعم أبيه وابن عمه وأن نسبة أبى الفرج إليها إنما كانت عن طريق الوراثة حيث لم يثبت لدينا أنها كانت عن طريق المولد .

ويرجع هذا الدور من حياة الأسرة إلى عهد قديم إلى ماقبل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سنرى بعد لحظات قصار أى إلى ما قبل مولد أبى الفرج بأكثر من خمسين سنة الأمر الذى يدفعنا إلى أن نسقط من حسابنا أثرها فى حياة أبى الفرج وأن نقف من هذا الأثر عند حياة أسرته لأبيه .

هذا الدور الذى لعبته أصبهان فى حياة أسرة الأب غير واضح الحدود أو بين المعالم ولن نستطيع أن نقول أكثر من أن هذه البلدة كانت من المواطن التى استقر فيها بعض الأمويين من نسل الخلفاء عند اضمحلال هذه الدولة وبعد انحلالها وأنها أيضا كانت من المواطن التى لأهلها تعلق بالأمويين ومحبة لهم .

جاء فى الأغانى عند حديث أبى الفرج عن عبدالله بن معاوية بن عبدالله ابن جعفر بن أبى طالب وخروجه بالكوفة فى آخر أيام الدولة الأموية وانتقاله إلى نواحى الجبل ومقامه بأصبهان قبل انتقاله إلى خراسان ما يلى (وقال ابن أبى خيثمة عن مصعب . وقصده وجوه قريش من بنى أمية وغيرهم فمن قصده من بنى أمية سليمان بن هشام بن عبد الملك وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان فمن أراد منهم عملا قلده ومن أراد منهم صلة وصله فلم يزل مقيما فى هذه النواحى حتى ولى مروان بن محمد الذى يقال له مروان الحمار فوجه إليه عامر بن صبارة فى عسكر كثيف فسار إليه حتى إذا قرب من أصبهان ندب له ابن معاوية أصحابه وحضهم على الخروج إليه فلم يفعلوا ولا أجابوه فخرج على دهش هو وأخوته قاصدين لخراسان وقد ظهر

أبو مسلم فيها ...)[١] وهو نص يثبت فيما نرى أمرين الأول ذهاب بعض الأمويين إلى أصبهان عند اضطراب الأمور وانحلال الخلافة والثانى شيء من الولاء بين الطالبيين والأمويين .

وفى صفحة من صفحات أخبار أصبهان لأبى نعيم نجد هذا النص (محمد ابن الوليد الأموى الخياط المدينى روى عن ابن أبى عيينة وهشام بن سليمان حكى ابنه عنه أنه قال أنا من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ولا تخبر به احداً فإنى رجل خياط وإياك أن يسمع منك أحد[٢]) . وهو نص يثبت أيضا أمرين الأول إقامة بعض الأمويين من سلالة الخلفاء فى أصبهان فى عصر أبى الفرج وفى عصر قريب منه حيث يروى هذا عن ابن أبى عيينة المعاصر لدعبل واسحاق بن ابراهيم وغيرهم ممن عاشوا فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى[٣] . والثانى أن هؤلاء الأفراد كانوا من الصناع وممن يشتغلون بالعلم وأنهم كانوا يكتمون أمورهم مخافة أن يعرف عنهم أنهم من نسل خلفاء بنى أمية فينالهم الأذى من أعوان السلطان .

أما المقدسى فيذهب بنا إلى أبعد من هذا حيث يذكر لنا أن فى أهل أصفهان بله وغلو فى حب معاوية[٤] .

هذا كل مانستطيع قوله فى هذه المسألة وهو قول يأذن لنا فى أن نقول أنه من الجائز أن يكون أحد أجداد أبى الفرج قد أقام بهذه البلدة وأنه هاجر منها إلى غيرها من مدن العراق وأن هذه الهجرة هى التى جاءت بالنسبة إلى الأسرة فكان محمد بن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج وعبد العزيز بن أحمد الأصبهانى عم أبيه والحسن بن محمد الأصبهانى عمه وأبو عبد الله أحمد ابن الحسن بن محمد الأصبهانى ابن عمه .

---

(١) ١١/٧٠ أغانى . ساسى (٢) ٢/١٨٢ أخبار أصبهان لأبى نعيم
(٣) ٨ ــ ١٨/٢٩ أغانى . ساسى
(٤) ٣٩٩ أحسن التقاسيم للمقدسى

أما من هو هذا الجد ؟ وما هى تلك المدينة ؟ فهى الأمور التى نرجو أن تستقيين ولو بعض الشيء عند حديثنا عن المدينة الثانية مدينة سر من رأى .

(ب) والدور الذى لعبته سر من رأى أوضح وأبين من ذلك الذى لعبته أصبهان ويحيئه الوضوح والبيان من أمرين الأول أن النصوص التى تثبت لنا هذا المقام وتوضح لنا أشياء من حياة الأسرة ومنزلتها الاجتماعية كثيرة ودالة . الثانى أن هذه المدينة لم تكن مقام أسرة أبيه فحسب وإنما كانت مقام أسرة أمه أيضا . بل كانت مقام كثيرين من الذين ينتسبون إلى الوزارة والكتابة ولهم أثر فى حياة أبى الفرج أو فى حياة الأسرتين .

والأشخاص الذين نلتقى بهم من أسرة الأب فى سر من رأى هم الحسن ابن محمد الأصبهانى عم أبى الفرج وعبد العزيز بن أحمد عم أبيه وأحمد بن الهيثم جد أبيه ومحمد بن أحمد الأصبهانى جده .

أما الحسن فنراه مع ابن برد الخيار وهارون بن محمد بن عبد الملك الزيات فى مجلس عبيد الله بن سليمان[١] . كما نراه يرقب حركات أبى العبر الهاشمى[٢] . ثم نراه واحدا من الكتاب فى أيام المتوكل .

وأما عبد العزيز بن أحمد فنراه حيث نرى ابن أخيه الحسن بن محمد الأصبهانى نراه مع أبى العبر فى سر من رأى ونراه على أنه أحد الكتاب بسر من رأى فى عصر المتوكل[٣] .

أما أحمد بن الهيثم جد أبيه فنراه فى منزله بسر من رأى ونرى معه اسحاق ابن ابراهيم الموصلى وجماعة من الصحب والخلان ينعمون بالشراب وسماع الغناء الشهى من اسحاق وأبو الفرج نفسه هو الذى يهيء لنا هذا اللقاء حيث نراه يقول :

أخبرنى على بن صالح بن الهيثم الأنبارى قال حدثنى أحمد بن الهيثم —

---

(١) ٩/٣١ الأغانى . ساسى (٢) ٢٠/٩١ المصدر السابق
(٣) راجع ص ٩٨ ، ٩٩ من جمهرة النسب لابن حزم

يعني جد أبي رحمه الله — قال كنت ذات يوم جالسا في منزلي بسر من رأى وعندي اخوان لي وكان طريق اسحاق في مضيه إلى دار الخلافة ورجوعه منها علي . . .الخ)[١].

وأما محمد بن أحمد الأصبهاني جد أبي الفرج فنراه في مواطن كثيرة وفي مواقف خالدة . فنراه مرة مع عبيد الله بن سليمان بعد توليه الوزارة . نراه ويقص عليه هذا بعض أخبار المعتضد مع بدر[٢] ومعنى ذلك أنا نراه بعد سنة تسع وسبعين ومائتين وهي السنة التي ولي فيها عبيدالله الوزارة للمعتضد [٣] وهو حين يتحدث عن عبيدالله لا ينسى أن يقص علينا اتفاقهما في النشأة فهو تربه الذي شهدت سر من رأى طفولته معه .

ثم نراه في منزله يجتمع فيه العلية من القوم من طالبيين وعباسيين فنراه ونرى معه الحسين بن الحسين بن زيد بن علي . ومحمد بن علي بن حمزة العلوي العباسي وأبو هاشم داوود بن القاسم الجعفري . ونراه يدير دفة القول والقوم يسمعون له فيثير كلامه في أنفسهم ما يثير[٤] . كل ذلك في سر من رأى وفي عصر المتوكل كما يشهد بذلك حديث راوي الخبر عن معاشرة زيد بن الحسين لأولاد المتوكل وكيف أن هذه المعاشرة كانت تحمل الحسين نفقات باهظة .

ثم نراه أخيراً مع إبراهيم بن العباس الصولي ومحمد بن عبدالملك الزيات وهو يريد أن يتثبت من صحة حكم هذا الأخير في أبي تمام . ولا ينسى محمد بن أحمد الأصبهاني أن يذكر لنا في هذا الموطن أنه كان يقوم من إبراهيم مقام الولد من الوالد[٥]

---

(١) ٢١/٢ أغاني . ساسي (٢) ٣٢ ، ٩/٣٣ المصدر السابق
(٣) ٨/١٦٣ الكامل لابن الأثير (٤) ٦٩٨ ، ٦٩٩ مقاتل الطالبيين . ط . مصر
(٥) ٩٦ ، ١٥/٩٧ أغاني . ساسي

وإذا أردنا أن نؤرخ للأسرة بهذه المدينة كانت حياة محمد بن أحمد الأصبهانى بها أوضح السبل إلى هذا التاريخ لأنها تدلنا على أنه كان بسر من رأى قبل مقتل محمد بن عبد الملك الزيات أى قبل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين [١] ثم كان بها طفلا يلهو مع عبيد الله بن سليمان ومضمون هذا أنه كان بهذه المدينة مع بعض الأهل أو مع أبيه .

وإذا كنا نعلم أن المعتصم قد بدأ بإنشاء هذه المدينة سنة إحدى وعشرين ومائتين وبدأ بها على أنها معسكر للجيش ثم بنى له وللوزراء والقواد والكتاب القصور وأنه استقدم لها الأهالى من كل إقليم وطلب إلى أهل كل إقليم أن يعمروا عمارة إقليمهم [٢] . إذا كنا نعلم كل هذا جاز لنا أن نقول أن أسرة أبى الفرج لأبيه كانت من الأسر التى عمرت سر من رأى أول عهدها بالحياة . وأن أول جد هبط هذه المدينة كان أحمد بن الهيثم والد محمد ابن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج ولا يمكن أن يكون هذا الهابط جداً قبله فيما تؤذن ظروف الحال .

هذه صلة أسرة الأب بسر من رأى . أما صلتها بأسرة الأم فتتلخص فى أنها كانت مقامهم أيضا يوم أن كان أفرادها يشتغلون بالكتابة فى قصور الخلفاء أو فى دواوين الوزراء فأحمد بن محمد بن ثوابه كان من كتاب الديوان فى أيام المهتدى وله مع الخليفة ومع وزيره سليمان بن وهب أحداث يرويها أبو الفرج نفسه [٣] . ثم أنه كان من الذين أباح المهتدى دمهم مع الحسين ابن مخلد وسليمان بن وهب سنة ست وخمسين ومائتين [٤] . وليس يخفى أن سر من رأى كانت مقر الوزراء والكتاب فى ذلك الحين .

---

(١) ٧/١٤ ابن الأثير . ط . ١٩٠ ا هـ
(٢) ٣/١٩٩ اليعقوبى . ط . النجف سنة ١٣٥٨
(٣) ٣٠/٦٩ أغانى . ساسى
(٤) ص ١٨٣ — المجلد الثالث الطبرى ط . أوربا

ولقد كان يحيى بن محمد بن ثوابه جد أبي الفرج لأمه أيضا [١] من الكتاب وكان من الذين يقيمون بسر من رأى كما هو الواضح من حديث محمد ابن القاسم بن مهروبه السابق ومحمد من شيوخ سر من رأى في ذلك الوقت.

كانت أسرة الأب تقيم بسر من رأى وكانت أسرة الأم تقيم أيضا بسر من رأى وكل واحدة من الأسرتين قد جاءت من أقليم غير ذلك الذى جاءت منه الأخرى فجاءت أسرة الأب من أصبهان كما تؤذن بذلك نسبتها إليها وجاءت أسرة الأم من قرية النيل تلك التى خلدها البحترى فى شعره حين هجا آل ثوابه [٢] . أفلا يؤذن ذلك كله بشيء؟ إنه يؤذن فيما أعتقد بالقول بأن المصاهرة بين الأسرتين قد تمت بسر من رأى . كما يؤذن بالقول بأن سر من رأى قد كانت موطن الميلاد ولست أريد الاسترسال فأقول بأن أبا الفرج حين سكن بغداد منذ الصبى [٣] . قد جاءها من سر من رأى فقد يكون غيرها طريق أبي الفرج إلى بغداد .

أما مقام أبي الفرج أو مقام أبيه بسر من رأى فهو الأمر الذى لا نعلم عنه شيئا فليس بين أيدينا من النصوص ما يشير ولو عن بعد إلى الحالات التى كان عليها المقام .

نعم نحن نعلم أن سر من رأى قد أثرت فى أبي الفرج بثقافتها أثرت فيه لا من حيث أنها موطن مهم من مواطن القصور التى كانت تقع فيها الأحداث ويقوم فيها الغناء فهى من هذه الناحية قد لا تمتاز عن دمشق وبغداد . ولا من حيث أن الأصوات المائة التى دار حولها الكلام فى الأجزاء الأولى من كتاب الأغانى قد اختيرت للواثق والواثق من خلفاء العباسيين الذين كلفوا بالغناء وبرعوا فيه [٤] . ومن الذين كانت عاصمة

---

(١) ١٨/٤٣ أغانى . ساسى

(٢) راجع ١١٨، ١١٩ جـ ١، ١٠٨ جـ ٢ ديوان البحترى . ط . الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ

(٣) لوحة ٢٧٥ ب، ٢٧٦ أ تاريخ الاسلام الكبير للذهبى

(٤) ١٠٦ — ٨/١٦٩ الأغانى . ساسى

ملكهم سر من رأى . فقد يستطيع أبو الفرج أيضا أن يقوم بعملية التاريخ وجمع الأخبار حول الغناء والمغنين ولو لم يذهب إلى سر من رأى فقد كانت هذه الأخبار من الميادين التى يجول فيها العلماء ويصولون ونظرة واحدة إلى ماكتبه ابن النديم عن هذه الحركة تثبت صحة ما نقول [١] .

نعم نحن لا ننكر أن هذه الحركة الغنائية كانت شديدة فى سر من رأى حتى لقد كان القوم أحزابا منهم من هو مع عريب ومنهم من هو مع شاريه لا يدخل أصحاب هذه فى هؤلاء ولا أصحاب هذه فى هؤلاء [٢] ولكننا نعلم أيضا أن هذه الحركة كانت قد خفتت بسر من رأى فى عصر أبى الفرج وأنها كانت قد انتقلت فى ذلك الوقت مع الخلفاء والوزراء والكتاب إلى بغداد ومن هنا كان الذين علموا أبا الفرج فن الغناء من البغداديين كما سنرى فى الفصل الثالث إن شاء الله .

إنما أثرت سر من رأى فى أبى الفرج عن طريق شيوخها الذين أخذ عنهم من أمثال عمه الحسن بن محمد الأصبهانى ومن أمثال حبيب بن نصر المهلبى واحمد بن عبد العزيز الجوهرى ولن نستطيع أن نقول متى أخذ عن هؤلاء فتاريخهم مجهول لا نعرف منه إلا الجمل القصيرة التى لا تحدد لنا تاريخ الوفاة الأمر الذى يمكن الاعتماد عليه فى تحديد الزمن الذى تلقى فيه أبو الفرج العلم عن شيوخ سر من رأى .

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج قد روى لهم فى كتابه الذى أخرجه للناس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وهو كتاب مقاتل الطالبيين ويدل هذا على أنه قد أخذ عنهم حتما قبل ذلك التاريخ ولكن ذلك لا يفيدنا فى الحديث عن النشأة أو التربية الأولى وأن أفادنا فى الحديث عن أثرهم فى أبى الفرج أو تأثر أبى الفرج بهم فقد يكون أبو الفرج قد أخذ عنهم وهو كبير وقد يكون أبو الفرج قد التقى بهم وأخذ عنهم فى بغداد كما هو الظاهر من حال الحسن

---

(١) ١٠١ — ١٢٢ الفهرست لابن النديم . مصر
(٢) ١٤/١٠٩ ، ١٣/٢٩ أغانى . ساسى

ابن محمد الأصبهانى عمه فقد ترجم له الخطيب على أنه ممن زاروا بغداد وأخذ عنهم أبو الفرج [١] وقد يكون أبو الفرج قد أخذ عنهم عن طريق الاجازات والمكاتبات .

ليس لدينا من النصوص ما يثبت زمن هذا الأخذ ولا حتى محله وكل ما نعتمد عليه ليست إلا القرائن التى تثبت هـذا الأثر والتى تقف منه عند حد الإثبات .

لقد كان حبيب بن نصر المهلبى وأحمد بن عبد العزيز الجوهرى من الذين يأخذ عنهم أبو الفرج أخباراً رووها عن الشيوخ الذين ألموا بسر من رأى أو أقاموا فيها من أمثال أبى العيناء وعمر بن شبه ومحمد بن داود الجراح وهارون بن محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم ولقد كان هؤلاء من الذين لم يترجم لهم الخطيب أو غيره ومن هنا عجزنا عن القطع فى إثبات أمر غير الأخذ عنهم ولعل من العقبات التى تحول بيننا وبين الاعتقاد بأن أبا الفرج قد أخذ عنهم فى الصغر أنا سنرى فى الفصل التالى أن نشأة أبى الفرج الأولى كانت بالكوفة وأنه لم يثبت لدينا ولو حتى عن طريق اللفتـــة العابرة أو الإشارة الغامضة أنها كانت بسر من رأى أو بأصبهان .

وقد يكون من الخير أن نعترف فى هذا الموطن بأنا لم نعثر على آثار الحسين بن محمد الأصبهانى والد أبى الفرج فى سر من رأى وأنا لم نلقه أول لقاء إلا فى بغداد الأمر الذى سنشير إليه فى الفصل الثالث إن شاء الله .

هذه آثار سر من رأى فى الأسرة وفى أبى الفرج صورناها كما أمدتنا بذلك المعلومات التاريخية التى وقفنا عليها وليس يسعنا إلا تركها والانتقال إلى غيرها من المدن التى قد تلقى ضوءا على حياة أبى الفرج تلك الحياة التى ظلت غامضة حتى على المحدثين من الباحثين والأدباء .

---

(١) ٧/٤١٧ الخطيب البغدادى

الفصل الثانى

الكوفة

وتمتاز الكوفة عن كل من أصبهان وسر من رأى بأمور . تمتاز أولا بأن إقامة أبى الفرج بها ثابتة ولقد نص هو نفسه على ذلك كما سبق أن رأينا عند حديثنا عن الحدود المكانية فى الفصل الأول من الباب الأول . ومن هنا لم نحتج إلى شىء من الفروض النظرية لنصل إلى ما هو الجائز أو المحتمل .

وتمتاز ثانيا بأنها مدينة النشأة والتربية الأولى فيما نعتقد يدفعنا إلى ذلك حديث الأقدمين من المؤرخين عن شيوخه لا سيما المحدثين منهم ونصهم على أن أكثر هؤلاء من الكوفيين [1] . وأن أقدمهم محمد بن عبدالله بن سليمان الحضرمى ومحمد بن جعفر القتات [2] كما يدفعنا إليه حديث أبى الفرج نفسه عن محمد بن الحسين الكندى الذى يصفه بأنه مؤدبه [3] والذى يصرح فى مواطن كثيرة بوصفه بأنه خطيب مسجد القادسية [4] .

يضاف إلى ذلك أن الكتاب الذى أخرجه أبو الفرج للناس ولم يبلغ الثلاثين من العمر وهو مقاتل الطالبيين إنما يقوم على الثقافه الكوفية ويأخذ فيه أبو الفرج عن الشيوخ الكوفيين من أمثال احمد بن محمد بن سعيد الهمذانى ومحمد بن الحسين الكندى وعلى بن العباس المقانعى واحمد بن عيسى بن أبى موسى العجلى والحسين بن الطيب بن الشجاعى البلخى ومحمد بن على بن مهدى

---

(١) لوحة ٢٧٥ ب تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب

(٢) ٢/٢٢٣ ميزان الاعتدال

(٣) ١٣/٩ أغانى . ساسى ، ١٣/١٠ بولاق وسيرد النص بتمامه فى هذا الفصل

(٤) ١٤/٨٥ ، ٢١/٣٩ أغانى . ساسى

وكثير غيرهم ممن نص أبو الفرج نفسه على أنه قد أخذ عنهم بالكوفة [١] . وفى ذلك من الدلالة على أنه قد تثقف بالثقافة الكوفية أولا مافيه . وهذه الأمور مجتمعة هى التى دفعتنا إلى أن نجعل الحديث عن أبى الفرج بالكوفة قبل الحديث عنه فى بغداد .

وتمتاز ثالثاً بأن التحديد الزمنى لهذه الاقامة يكاد يكون معروفاً معرفة واضحة فأبو الفرج قد أخرج كتاب المقاتل الذى يحمل بين طياته الثقافة الكوفية سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة كما يذكر هو فى المقدمة ومعنى ذلك أنه كان بالكوفة يتلقى العلم قبل أن يجلس للاملاء ببغداد .

وأبو الفرج أيضاً يحدثنا بأنه كان مع أبيه ببغداد بعد سنة ثلاثمائة حين زارها أبو الفياض سوار بن أبى شراعه [٢] الشاعر الأخبارى البصرى ومعنى ذلك أن مقام أبى الفرج بالكوفة لم يتأخر إلى ما بعد سنة ثلاثمائة بكثير .

وتمتاز رابعاً بأن الألوان الثقافية التى كان يأخذها أبو الفرج بها تكاد تكون معروفة كما تكاد تكون معروفة أيضاً العلل والأسباب التى دفعت بأبى الفرج إلى هذه الألوان وإلى الكوفة نفسها .

والأسباب نستطيع أن نلتمسها من حياة الأسرة ومما ذكرناه فى الفصل الثالث من الباب الأول فقد ذكرنا هناك أن أسرة الأب كانت على صلات حسنة بالطالبيين وأن منزل جده محمد بن أحمد الأصبهانى كان الندوة التى يجتمع فيها هؤلاء فى بعض الأحايين وفسرنا الحب بين الأمويين والطالبيين بأنه الحب الذى ينشأ أولا من الضرورات السياسية ثم يصبح بعد ذلك من الأمور التى لا تثير ما فى النفوس من إحن وعداوات . وأن موقف كل من الطالبيين والأمويين من العباسيين هو الذى قرب بينهما وجعلهما فى منزلة الأصدقاء والأحباء .

---

(١) ٣٤ ، ٦٩ / ١٣ ثم ٦٨ / ١٧ ثم ١٦٢ / ١٨ المصدر السابق . وراجع أيضا ١٣٨ مقاتل الطالبين (٢) ٢٠/٣٥ أغانى . سامى .

ولقد ذكرنا هناك أيضاً أن أسرة أبي الفرج لأمة كانت من الأسر الشيعية التي نالها الاضطهاد لتشيعها ووقع على بعض أفرادها أذى من الخلفاء وأن أبا الفرج قد ورث تشيعه عن أسرة أمه وعاون على هذا ذلك الميل الذي وجد في أسرة أبيه . وإذا فقد كان من المعقول أن تتدخل هذه العوامل في اختيار البيئة الثقافية وأن يقع الاختيار على الكوفة لأنها البيئة الشيعية الأولى ولأنها مقر الطالبيين .

ونستطيع أن نضم إلى ذلك أيضاً أن الكوفة أقرب البيئات الثقافية إلى قرية النيل وهي قرية آل ثوابه تلك التي خلدها البحتري في شعره كما سبق أن أشرنا . وليس يخفى أن آل ثوابه هم أسرة الأم .

هذه هي العوامل التي تفسر لنا الاختيار — إن كان قد وقع — وترشح له .

والألوان الثقافيـــة التي أخذها أبو الفرج بالكوفة هي الأحاديث النبوية والأخبار الدينية المذهبية التي تدور في الغالب حول مقاتل الطالبيين .

أما الحديث فقد كان محصول أبي الفرج منه قليلا ولعله من هنا لم يترك لنا كتاباً في الحديث ويذكر ابن حجر أن ما رواه الدار قطني في غرائب مالك عن أبي الفرج الأصبهاني كان عدة أحاديث [1] . على أن هذه الثقافة قد أفادت أبا الفرج من جانب آخر فلقد مكنت له من أن يجري على طريقة المحدثين في رواية الأخبار الأمر الذي سنقف عنده طويلا في الباب الثالث إن شاء الله .

وأما الأخبار التي أخذها أبو الفرج عن الكوفة والكوفيين فيغلب عليها طابع الجد وذلك هو الواضح من المرويات التي يرويها أبو الفرج عن شيوخ الكوفة لا بالنسبة إلى ما أورده في كتاب المقاتل بل بالنسبة إلى ما أورده في كتابه الذي يحرص فيه كل الحرص على الأخبار العابثة المستهترة

---

(١) ٢٢١ / ٤ لسان الميزان .

وهو كتاب الأغانى ونستطيع أن نعرض عليك بعض مروياته التى أخذها عن الكوفيين والتى أوردها فى كتابه الأخير .

حدثنى الحسين بن الطيب الشجاعى البلخى بالكوفة قال حدثنا أيوب بن محمد الطلحى قال حدثنا عبد القاهر بن السرى السلمى قال حدثنا عبد الله بن كنانة عن عباس بن مرداس أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشية عرفة قال فأجيت لهم بالمغفرة إلا ما كان من مظالم العباد بعضهم لبعض قال فإنى آخذ للمظلوم من الظالم قال أى رب إن شئت أعطيت للمظلوم من الجنة وغفرت للظالم فلم يجب فى حينه فلما أصبح فى المزدلفة أعاد الدعاء فأجيب لهم بما سأل فضحك النبى صلى الله عليه وسلم أو تبسم فقال أبو بكر رضى الله عنه بأبى أنت وأمى أن هذه الساعة ما كنت تضحك فيها أو تبسم فقال أن إبليس لما علم أن الله غفر لأمتى جعل يحثو التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور فضحكت من جزعه (١) .

حدثنا الحسين بن الطيب البلخى قال حدثنى أبو غسابه قال بلغنى أن أول من أخذ بعينه فى الاسلام عمرو بن عثمان بن عفان أتاه عبد الله بن الزبير الأسدى فرأى عمرو تحت ثيابه ثوبا رثا فدعا وكيله وقال اقترض لنا مالا فقال هيهات ما يعطينا التجار قال فأربحهم ما شاءوا فاقترض له أولا ثمانية آلاف درهم وثانيا عشرة آلاف فوجه بها اليه مع تخت ثياب فقال عبد الله ابن الزبير فى ذلك :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى ... أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتى من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلت (٢)

أخبرنى محمد بن الحسين الكندى مؤدبى قال حدثنى على بن محمد النوفلى قال حدثنى عمى قال دخل الحكم بن قنبر على عمى وكان صديقا له فبش به

(١) ٦٩ / ١٣ الأغانى . ساسى .
(٢) ٣٣ الأغانى . ساسى

ورفع مجلسه وأظهر له الأنس والسرور ثم قال أنشدنى أبياتك التى أقسمت فيها بما فى قلبك فأنشده :

وحق الذى فى القلب منك فأنه ... عظيم لقد حصنت سرك فى صدرى
ولكنما أفشاه دمعى وربما ... أتى المرء ما يخشاه من حيث لا يدرى
فهب لى ذنوب الدمع إنى أظنه ... بما منه يبدو إنما يبتغى ضرى
ولو يبتغى نفعى لخلى ضمائرى ... ترد على أسرار مكنونها سرى

فقال لى يابنى اكتبها واحفظها ففعلت وحفظتها يومئذ وأنا غلام (١) .

أخبرنى محمد بن الحسين الكندى خطيب مسجد القادسية قال حدثنى الرياشى قال حدثنى الأصمعى قال كان أهل الجاهلية يسمون الغنوى طفيل الخيل لشدة وصفه الخيل (٢).

أخبرنى أحمد بن عيسى العجلى بالكوفة قال حدثنا سليمان بن الربيعى البرجمى قال حدثنا نصر بن مزاحم عن عمرو بن مسعده عن أبى مخنف عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود ، وأخبرنى . . . . أن المختار بن أبى عبيد خطب الناس يوماً على المنبر فقال لتنزلن نار من السماء تسوقها ريح حالكة دهماء حتى تحرق دار أسماء وآل أسماء .

وكان لأسماء بن خارجة بالكوفة ذكر قبيح عند الشيعة يعدونه فى قتلة الحسين عليه السلام (٣).

حدثنى أحمد بن عيسى العجلى الكوفى المعروف بابن أبى موسى قال حدثنا الحسين بن نصر بن مزاحم قال حدثنى أبى قال حدثنى عمر بن شبه عن جابر الجعفى قال سمعت ابن جذيم التاجى يقول لما استقام لمعاوية أمره لم يكن شىء أحب إليه من لقاء أبى الطفيل عامر بن وائله فلم يزل يكاتبه ويلطف له حتى أتاه فلما قدم عليه جعل يسائله عن أمر الجاهلية ودخل عليه عمرو بن

---

(١) ٩ ، ١٠ المصدر السابق
(٢) ١٤/٨٥ المصدر السابق
(٣) ١٣/٣٥ الأغانى . ساسى

العاص ونفرمعه فقال لهم معاوية . أما تعرفون هذا ؟ هذا خليل أبي الحسن ثم قال يا أبا الطفيل ما بلغ حبك لعلى ؟ قال حب أم موسى . قال فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال بكاء العجوز الثكلى والشيخ الرقوب وإلى الله أشكو التقصير . قال معاوية إن أصحابي هؤلاء لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فى ما قلت فى صاحبك . قالوا إذاً والله لا نقول الباطل . قال لهم معاوية . لا والله ولا الحق تقولون[١]

لقد تعمدت أن أسرد لكل واحد منهم خبرين ولقد تعمدت أن تكون المرويات كلها من جزء واحد من أجزاء الأغانى اللهم إلا خبر محمد ابن الحسين الكندى الأخير ولقد حرصت على أن تكون الكوفة واضحة فى النسبة وليس ذلك إلا لتكون الأخبار صادقة الدلالة على ما نذهب إليه من أن طابع الجد هو الذى يغلب فى المرويات التى يأخذها أبو الفرج عن شيوخه من الكوفيين .

اما كيف كان يعيش أبو الفرج بالكوفة فهو الأمر الذى لم نجد من الأقدمين من يذكره بل لم نجـــد منهم من يذكر أن تربيته الأولى كانت بالكوفة ولعل لهم عذراً فى ذلك فقد كانت المدة قصيرة إذ انتقل أبو الفرج إلى بغداد حوالى سنة ثلاثمائة أو بعدها بقليل كما يدل عليه حديثه عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعه الذى أشرنا إليه سابقاً والذى يقول فيه (وابنه أبو الفياض سوار بن أبى شراعه أحد الشعراء الرواة قدم علينا بمدينة السلام بعد سنة ثلاثمائة [٢]) . وإذا كان أبو الفرج قد ولد عام أربع وثمانين ومائتين فان الذى يفهم أنه قد انتقل إلى بغداد وأنه فى سن السابعة عشرة تقريباً وأنه لم يكن قد لفت إليه الأذهان وهو بالكوفة ومن هنا لم تكن للناس عنه ذكريات وليس يخفى أن أمثال هذه الذكريات إنما تكون الدعامة الأولى لمن يريد الحديث عنه أو تاريخ حياته فى المدة التى قضاها

---

(١) ١٥٩ ، ١٦٠ المصدر السابق

(٢) ٢٠/٣٥ المصدر السابق

بتلك المدينة بل لعل أبا الفرج لم يلفت إليه الذهن حتى فى بغداد إلا بعد أن كبر وجلس بمجلس الشيوخ الذين يأخذ عنهم الطلاب ولعل هذا هو السر فى خلو كتب التاريخ عن كل ما يصف حياته الأولى يوم أن كان يطلب العلم فى المساجد وفى المجالس وفى بيوت بعض الكتاب والشعراء .

لم نعثر على نصوص تصور لنا كيف كان يعيش أبو الفرج بالكوفة ولكن ليس معنى ذلك أنا سنقف أمام هذه المسألة مكتوفى الأيدى فعندنا التصوير التاريخى للحالات التى كان يكون عليها الطلاب حين يغتربون فى سبيل العلم ويرحلون من إقليم إلى إقليم وهو تصوير إن لم يضع أيدينا على صورة المعيشة الحقيقية لأبى الفرج بالذات فانه سيقرب صورة هذه المعيشة إلى الأفهام .

فى تراجم ياقوت للعلماء والأدباء كثير من النصوص التى تصور هذه المعيشة فى عصر أبى الفرج وغيره ونستطيع أن نقتصر منها على تلك التى تعرفنا بالمدارس أو دور العلم فى عصر أبى الفرج وكيف كان يعيش الطلاب إذ ذاك . ولعل مما يتمم هذه الصورة أن نذكر طرفاً من أخبار العلماء والمؤدبين فى ذلك العصر وموقفهم من أمثال هؤلاء الطلاب .

يذكر ياقوت بصدد حديثه عن جعفر بن محمد الموصلى المتوفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة مايأتى « وكانت له ببلده دار علم قدجعل فيهاخزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يمنع من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب وإن كان معسراً أعطاه ورقا وورقا تفتح فى كل يوم ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته مثل الباهر وغيره من مصنفاته الحسان ثم يملى من حفظه من الحكايات المستطابة وشيئا من النوادر المؤلفة وطرفا من الفقه وما يتعلق به [1] .

---

(٢) ١٦٣ ، ٧ معجم الأدباء : ط . رفاعى

وجاء بصدد ترجمته لعلي بن يحيى المنجم المتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين (كان بكركر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى[١]).

في هذين النصين نرى لونين من دور العلم في ذلك العصر الذي ولد فيه أبو الفرج. اللون الأول وهو أقدمها لون خزانة الكتب تلك التي كان يقيمها الأغنياء في قصورهم وفاء بحق الثقافة وبحق الشعب. وهذا اللون لا نجد فيه من يقوم بالدرس والإملاء وذلك هو الواضح من مثل علي بن يحيى المنجم وخزانة الحكمة.

أما اللون الثاني فهو لون دور العلم ويمتاز عن اللون الأول بأنه يكاد يكون مدرسة وهذا اللون هو اللون الواضح من صنع جعفر بن محمد الموصلي؟

هذان اللونان يجعلان الحياة الثقافية سهلة يسيرة ويحببان العلم إلى طلابه ويدفعانهم إلى المزيد فهي حياة لا يشقى فيها الطالب إلا بالتحصيل تحصيل العلم بدون كلفة ولا مؤونة فلله در هؤلاء الأغنياء وعليه أجرهم.

هذا حق الشعب أوجبه الأغنياء الموسرون على أنفسهم وفاء بحق الإنسانية وإحساسا بالأخوة. وهناك حق آخر أوجبه العلماء على أنفسهم لهذا الشعب وهو التعليم بالمجان وترى ذلك بصورة جلية من حياة العالم الكبير محمد بن جرير الطبري أستاذ أبي الفرج وشيخ المؤرخين والمفسرين. ولعل هذه القصة تصور ما نريد أبلغ تصوير يقول ياقوت (وكان يختلف إليه أبو الفرج بن أبي العباس الأصبهاني وأخذ يقرأ عليه كتبه فالتمس أبو جعفر حصيراً لصفة له صغيرة فدخل أبو الفرج الأصبهاني وأخذ مقدار

---

(١) ١٠٧/ ١٥ معجم الأدباء «ط» رفاعي.

الصفة واستعمل له الحصير متقربا بذلك له وجاءه به وقد وقع موقعه فلما خرج دعا ابنه ودفع إليه أربعة دنانير فأبى أن يأخذها وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصير إلا بها[1].

كما نراه من حياة أبى عبد الله المرزبانى قرين أبى الفرج فقد قال القاضى الحسين بن على الصيمرى سمعت المرزبانى يقول كان فى دارى خمسون مابين لحاف ودواج معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندى[2].

فى هذا الجو العلمى كان يعيش الطلاب من أمثال أبى الفرج . أفنخشى عليه شيئاً ونشفق من ارساله إلى الكوفة ليقيم فيها وحده ؟ إن سبل العلم لينة وطرقه ميسرة أوجب الأغنياء على أنفسهم فيها شيئاً وأخذ العلماء على عاتقهم الباقى .

لكنى مع كل هذا أخشى منك ما خشيته من نفسى وهو أن نذهب إلى أنه ليس من المعقول أن تكون على مثل هذه الصورة جميع الحالات التى يكون عليها الطلاب لاسيما ونحن نعلم أن أبا الفرج كان يصف محمد بن الحسين الكندى بالمؤدب أو مؤدبه كما نعلم أن أمثال هؤلاء المؤدبين لا يعفون الطلاب من الأجر وليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الفرج وهذه حاله مع محمد بن الحسين الكندى ممن يدفعون الأجور .

ذلك أمر لا نستطيع إنكاره وقد يكون من الخير لكلينا ولأبى الفرج نفسه أن نقف على صورة من تلك الصور التى يأخذ فيها المعلمون من الطلاب أجراً . حدث الزجاج قال كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه وكان لا يعلم مجاناً ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها . فقال لى أى شىء صناعتك قلت أخرط الزجاج وكسبى فى كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف وأريد أن تبالغ فى تعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهما

---

(١) ١٨/٨٧ المصدر السابق

(٢) ٢٦٨ ، ٢٦٩ معجم الأدباء طبعة رفاعى

وأشرط لك أن أعطيك إياه أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا [١] . . وجاء في الأغاني . . . . قال الزبير قال الموصلي وكان بن أبي عبيدة يملي شعر كثير بثلاثين دينارا [٢]

ولسنا بحاجة وقد عرفنا أحوال الأسرة إلى حد ما بسر من رأى إلى أن نقول إنها كانت بحيث تستطيع أن تدفع مثل هذه الأجور .

هذه صورة تقريبية لحياة أبي الفرج بالكوفة تصور لنا المعيشة التي كان من الممكن أن يعيشها في وقت كان يسكن فيه الطلاب في دور العلم أو في بيوت الأساتذة وقصور الأغنياء . كما تصور لنا ألوان المعرفة التي كان يطلبها أبو الفرج بالكوفة وأنها كانت المعرفة الدينية أو علوم الحديث والأخبار .

والآن نريد أن نترك هذه الصورة إلى أخرى هي حياة أبي الفرج ببغداد . وقبل هذا الترك نوضح أمراً نعتقد أنه من الخطورة بمكان . ذلك لأنا لا نستطيع أن نمضي على أن ما أخذه أبو الفرج من الكوفة هو العلم الجاد لا سيما ونحن نعلم أن الكوفة كانت بيئة المجان والخلعاء من المغنين والشعراء وأن الغناء قد استقر فيها قبل أن يستقر ببغداد وأن عمر بن أبي ربيعة كان يلم بها ليسمع غناء قينتين حاذقتين لصاحب ابليس عبد الله ابن هلال [٣] وأن إسحاق الموصلي حين هم بتأليف كتاب في الأغاني أرسل كتاباً إلى علي بن هشام القائد ينبئه أن في هذا الكتاب أحاديث قيان الحجاز والكوفة [٤] . وأن بالكوفة نشأ الحمادون الثلاث وأنها قامت في بقعة تسلم بها الأديرة من كل طرف وإذا ذكرنا الأديرة فقد ذكرنا الخمارين والخمارات وما يتبع ذلك من لهو وعبث ومن زندقة وإلحاد . نعلم ذلك كله عن هذه البيئة فهل يصح لنا والحالة هذه أن نسلم أبا الفرج منها وأن نمضي على أنه لم يأخذ من البيئة الكوفية إلا كل ما هو جاد ؟ .

---

(١) ١٣١ / ١ المصدر السابق (٢) ٢٦ / ٨ أغاني . ساسي .
(٣) ١٥٣ / ١ . أغاني دار الكتب .
(٤) ٤٩ / ٦ معجم الأدباء . ط . رفاعي

لا سبيل إلى انكار أن هذه البيئة قد أثرت أثرها وفعلت فعلتها فى نفس أبى الفرج ولعل كتابه الديارات لم يكن إلا عن وحى هذه البيئة . ولكننا مع كل هذا لن نقف عندها فى هذا الموطن لسبب بسيط هو أنا نعلم أن أبا الفرج قد انتقل إلى بغداد وهو صغير وأن سنه إذ ذاك لم تكن لتسمح لمثل هذه الآثار بالظهور وأن ما أخذه عن الكوفة من هذا الجانب ليس إلا الصور التى استحالت إلى رواسب وظلت كامنة فى نفسه حتى شب عن الطوق وحتى وجدت ما يستثيرها من الحياة فى بغداد . وإذ كنا قد مضينا على ألا نذكر من عوامل البيئة ومؤثراتها شيئاً إلا أن تكون آثاره واضحة وبارزه للعيان فأنا سنرجىء الحديث عن هذه الرواسب التى استقرت فى نفس أبى الفرج من هذه الحياة الكوفية حتى نصل إلى آثارها البارزة فى حياته العقلية أو فى حياته الخلقية وعند ذلك نعلل منها ما يظهر لنا أن علله الحقيقية إنما ترجع إلى هذه الحياة الكوفية وما فيها من عبث ومجون قد استقرت صوره فى نفس أبى الفرج وظلت حبيسة فيها لصغره أو لتزمت شيوخه من رجال الحديث والأخبار من الكوفيين .

الفصل الثالث

بغداد

وحياة أبي الفرج الطالب ببغداد أكثر وضوحا وأقل خفاء وليس يرجع ذلك إلى أن أبا الفرج الطالب كان من نضج العقل وقوة التفكير بحيث يدير الجدل والحوار حول مسائل العلم وقضاياه وبحيث يترك في أنفس الشيوخ والأقران ذكريات تردد صداها الأيام وتكون اللبنات التي يعتمد عليها الباحث في الكشف عن حياته ورسم صورة حية نابضة له . فلم يكن ابو الفرج من ذلك في شيء فيما نعتقد . وإنما كان طالباً همه الأول والأخير تقييد العلم . تقييد ما يمليه الأساتذة على الطلاب وتقييد ما يدفع به الشيوخ إلى الطلاب من كتب يحملونهم إياها ليبلغوها عنهم إلى غيرهم وتقييد كل ما يطرق سمعه ولو عن غير شيخ وكل ما يقع تحت بصره من مكتوب حتى ولو كان إهذا المكتوب غير مسمى الصانع على حد تعبيره هو وكما سنرى في الفصل الخاص بمرحلة التحمل من الباب الثالث إن شاء الله . ومن هنا أومن الحرص على هذا التقييد كان أبو الفرج من الرواة الممتازين ولم يكن من العلماء النابهين . ولعله من هنا أيضاً أعرض التاريخ عن أبي الفرج أو كاد ولولا أن قيض الله له ذلك النساخ الذي أراد أن يأكل الخبز من وراء كتاب الأغاني في ذلك الوقت الذي ذهبت فيه الأحداث بالكثير من الكتب التي اعتمد عليها أبو الفرج عند التقييد والتدوين لما شاع ذكره وعلا صيته .

إن الوضوح إنما يأتي حياة أبي الفرج الطالب ببغداد من أمور أخرى غير ذاته .

(١) يأتيها أولا من أنه أصبح ببغداد وبغداد عاصمة الدولة ومقر الخلفاء تتوجه اليها الأبصـــار والأسماع ويعنى بها الباحثون وينصت اليها التاريخ . وينصت إلى أكثر ما يقال ولذلك سجل الأقدمون أن أبا الفرج قد سكن بغداد منذ صباه[١] . وقال الأقدمون إنه نشأ وتربى هناك[٢] . ونستطيع نحن أن نمضى أكثر من الأقدمين خطوة أوخطوات فنحدد أيام الطلب بالسنوات ونعترف منذ الآن بأنه لن يكون التحديد الذى يسجل فى دقة سنوات البدء والختام وإنما سيكون التحـــديد التقريبى وأنه الذى يمكن أن يقال .

نستطيع أن نجعل سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة حد الختام ذلك لأنا نعلم أن أبا الفرج قد ألف كتابه مقاتل الطالبيين فى هذه السنة وأنه أشار إلى ذلك أكثر من مرة فأشار اليه فى المقدمة وأشار اليه فى الخاتمة [٣] .

ونستطيع أن نجعل حد البدء سنة ثلاثمائة أو قبلها بقليل ذلك لأنا نعلم أنه قد أخذ عن يحيى بن على بن يحيى وهذا قد توفى سنة ثلاثمائة [٤] . ولعل هذا هو الذى دفع ابن حجر إلى أن يقول وكان طلبه فى حدود الثلاثمائة[٥] .

(٢) ويأتى الوضوح ثانياً حياة أبى الفرج من أنا نعلم أنه كان يقيم إلى جوار أبيه ببغداد وأنه هو نفسه الذى يدلنا على هذا فى ترجمته لأبى شراعة حين يقول (وابنه أبو الفياض سوار بن أبى شراعه أحد الشعراء الرواة قدم علينا بمدينة السلام بعد سنه ثلاثمائة فكتب عنه أصحابنا قطعات الأخبار واللغة وفاتنى فلم ألقه وكتب إلى والى أبى رحمه الله بأجازة وأخبرنا بأخبار على يد بعض إخواننا . .)[٦] وعلى هذا نستطيع أن نتصور أن هذا الأب هو الذى كان يتحمل أثقال الحياة وأنه قد خلى بين ابنه وبين

---

(١) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب
(٢) ٢/٢٧٨ اليتيمة ، ١/١٨٤ مفتاح السعاده لطاشكبرى زاده
(٣) ٤ ، ٧٢١ مقاتل الطالبيين . ط . مصر
(٤) ٢٠٦ الفهرست لابن النديم ط . مصر
(٥) ٤/٢٢١ لسان الميزان
(٦) ٢٠/٣٥ أغانى . ساسى

العلم يطلبه ولعله من أجل هذا انتهى أبو الفرج من طلب العلم مبكراً وجلس للتأليف قبل أن يبلغ الثلاثين .

(٣) ويأتى الوضوح هذه الحياة من أمر آخر لعله أن يكون أهم من كل ما تقدم ذلك هو وضوح حياة شيوخه من البغداديين فأنا نستطيع الاعتماد على هذه الحياة الواضحة لهؤلاء الشيوخ فى أن نعرف من أمر أبى الفرج الطالب هذه المسائل .

١ — المواد التى كان يتعلمها
٢ — الأمكنة التى كان يتلقى فيها العلم .
٣ — الأسلوب أو الطريقة التى كان يجرى عليها التعليم

وقبل البدء بالكشف عن هذه الجوانب نلفت ذهن القارىء إلى أمور .

الأول أن ليس كل شيخ أخذ عنه أبو الفرج قد كان من العلماء الشيوخ فنحن نعلم أن منهم الأصدقاء والقرناء وأن منهم الكتاب والندماء وأن منهم الورّاقين والمغنين الأمر الذى سنشرحه فى الباب الثالث إن شاء الله .

الثانى أن ليس كل شيخ حمل عنه أبو الفرج وبلغ بلفظ أخبرنا كان من الشيوخ الذين لقيهم وجلس منهم بمجلس الطالب من الشيخ فنحن نعلم أن أبا الفرج وغيره كانوا يبلغون بلفظ أخبرنا عن الاجازات والمكاتبات كما سنرى فى الباب الثالث أيضا ويكفى أن نذكر هنا أن هذا كان صنيع أبى الفرج مع كل من أبى الفضل الخليفة بن الحباب الجمحى وأبى الفياض سوار بن أبى شراعة الذى ذكر هو عنه أنه لم يلقه ببغداد وأنه أخذ عنه الأخبار على يد بعض الأخوان . وليس يخفى أن أمثال هؤلاء الشيوخ لن يؤثروا فى أبى الفرج بذواتهم وإنما بكتبهم فأن كان همه النقل عنهم والنقل ليس غير فأنا لن نتوقع منهم أن يكشفوا لنا عن بعض الجوانب من حياة أبى الفرج الطالب وسيكون حظهم مثل حظ سابقيهم من أنهم من الشيوخ الذين تحمل عنهم وليسوا من الشيوخ الذين علموه

والذين حاولوا أن يؤثروا فيه أو يطبعوه بطابعهم ومن هنا نخرجهم أيضا من هذا الميدان .

الثالث أن شيوخ أبى الفرج الذين كان يجلس اليهم للكتابة عنهم أو للقراءة عليهم كانوا من الكثرة بحيث لا يحصون عدداً . وكانوا مختلفين لا من حيث المواد التى يعلمونها الطلاب فحسب بل من حيث المذاهب التى تقوم عليها المعرفة بحيث يدعونا إلى التريث قبل إصدار الأحكام .

نعم نحن نعلم أن هذه الكثرة وهذا الاختلاف لهما آثارهما الحميدة من حيث الجمع والاستقصاء ومن حيث عرض وجهات النظر المختلفة فى المسألة الواحدة أو فى الموضوع الواحد لكننا نعلم أيضا من جانب آخر أنهما يعوقان عملية الايحاء ويحولان بين الأستاذ وبين الايحاء السريع المنتج .

وإذا ما ضممنا إلى ما تقدم أن هذا الاختلاف المذهبى دينيا كان أو غير دينى قد دفع إلى التحاسد والتباغض وقد دفع إلى شىء من الهجاء كما وقع بين ابن الرومى والأخفش [١] . وبين نفطويه وابن دريد [٢] وبين حرمى بن أبى العلاء وجحظة . [٣] وبين ابن الرومى وأبى العباس بن عمار [٤] . من شيوخ أبى الفرج الذين تتلمذ عليهم قدرنا لماذا كان شيوخ أبى الفرج الحقيقيين من بين الأموات لا من الأحياء .

أن أمثال هذه الحالات بين الشيوخ والأساتذة إنما تمكننا من الآثار المادية ولا تمكننا من الوقوف فى دقة على الآثار المعنوية من أنفس الطلاب ومن هنا كانت العناصر المميزة لحياة أبى الفرج الطالب ببغداد هى العناصر السابقة ! مواد الدراسة . وأمكنة الدراسة والطرق والوسائل التى يتبعها الشيوخ ، أما الآثار النفسية والعقلية فسنحصرها فى يقظة وحذر ولن ندعى أن هذه كانت نتيجة حتمية لتلك ما دمنا نعرف ما كان بين هؤلاء الشيوخ من اختلاف وما دمنا لم نقع على صورة من التلازم القوى بين

---

(١) ١٣/٢٥٥ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٢) ١/٢٦٤ المصدر السابق
(٣) ١/٢٦٢ المصدر السابق
(٤) ٣/٢٣٩ المصدر السابق

أبى الفرج و بين واحد من هؤلاء الشيوخ اللهم إلا أن كان جحظه و بعض الكتاب كما سنرى بعد لحظات .

والمواد العلمية التى كان أبو الفرج يتعلمها قد ذكرها القدماء فى إجمال حينما صوروا لنا ثقافة أبى الفرج . فقد قال عنه الخطيب « وكان عالما بأيام الناس والأنساب والسيرة وكان شاعرا محسنا والغالب عليه رواية الأخبار والآداب[١] » وقال عنه التنوخى (ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهانى . كان يحفظ من الشعر والأغانى والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازى ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة)[٢] وغير ذلك كما قال صاحب لسان الميزان (كان إليه المنتهى فى معرفة الأخبار وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات يأتى بأعاجيب بحدثنا وأخبرنا)[٣] . وهى ألوان من الثقافة تشهد بها كتب أبى الفرج التى بأيدينا . ونستطيع أن نردها فى سهولة ويسر إلى بيئات ثقافية أو إلى مدارس بعينها ذلك لأننا نستطيع أن نميز بين نوعين منفصلين من الثقافة عند أبى الفرج . أولهما ثقافة الكتاب ، وقد كان ابو الفرج منهم[٤] . وثانيهما ثقافة الندماء والعالمين بالغناء وقد كان أبو الفرج أيضا واحدا منهم[٥] . وليس أدل على ذلك من كتبه ورسائله فى الأغانى والغناء وعلله .

أما اللون الأول فكانت الثقافة فيه تقوم على الأخذ من كل شىء

---

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد للخطيب (٢) ٤٦٢ وفيات الأعيان . ط . باريس

(٣) ٤/٢٢١ لسان الميزان

(٤) ٢/٢٢ تاريخ أصبهان لأبى نعيم ١٣/١٠٥ معجم الأدباء . ط . رفاعى

(٥) لأبى الفرج كتب ورسائل فى الأغانى ذكرها فى كتاب الأغانى الكبير منها فى المقدمة كتاب مجرد الأغانى ومنها رساله فى النغم والعلل ذكرناها عند حديثنا عن اسحاق الموصلى فى الباب الأول .

بطرف ومن هنا كثر ترداد أبى الفرج على الشيوخ من المحدثين واللغويين والكتاب والشعراء ومن الأخباريين والورّاقين . ونستطيع أن نقف هنا لنرى أمكنة الدراســـة ونقف على الأساليب التى كان يجرى عليها العلماء والمدرسون .

من السهل أن نجمع فى هذا الحديث بين المحدثين واللغويين ذلك لأنا نعلم أن اللغويين إلى هذا العصر كانوا يقلدون المحدثين . كانوا يسلكون مسلكهم فى الاملاء أو فى القراءة على الشيخ ويتخذون من المساجد دوراً للعلم كما كان يفعل هؤلاء ولقد كان آخر من أملى من اللغويين فيما يذكر السيوطى أبو القاسم الزجاج المتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة[١] .

ثم لأنا نعلم أن شيوخ أبى الفرج من الذين عدهم الخطيب من المحدثين البغداديين من أمثال محمد بن العباس اليزيدى[٢] . كانوا من اللغويين وكانوا من الذين نص أبو الفرج نفسه على أنه كان يأخذ عنهم اللغة والأدب فقد جاء فى كتاب الأغانى بصدد ترجمته لأبى محمد اليزيدى ما يلى ، وكان أبو محمد عالماً باللغة والنحو راوية للشعر منصرفا فى علوم العرب آخذا عن أبى عمرو بن العلاء وجوّد قراءته ورواها عنه وهى المعول عليها فى هذا الوقت . وكان بنوه جميعاً فى مثل منزلته من العلم والمعرفة باللغة وحسن التصرف فى علوم العرب ولسائرهم علم جيد ... وآخر من كان بقى من علماء أهل هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبى محمد وكان فاضلا عالماً ثقة فيما يرويه منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعاً جماً . »[٣] .

---

(١) ٢/١٩٩ المزهر السيوطي . ط . سنة ١٣٣٥
(٢) ١١/٣٩ الخطيب فى تاريخ بغداد
(٣) ١٨/٧٣ أغانى . ساسى

ثم لأنا نعتقد أن أبا الفرج ببغداد كان قد بدأ يتحول عن دراسة الحديث إلى دراسة اللغة والأدب وفن الغناء .

واللغويون من شيوخ أبي الفرج ببغداد كثيرون . نرى منهم فى كتاب الأغانى إبراهيم بن عرفة وأبا جعفر بن رستم الطبرى ومحمد بن العباس اليزيدى ومحمد بن القاسم الأنبارى ومحمد بن مزيد بن أبي الأزهر ومحمد بن جعفر الصيدلانى ومحمد بن الحسن بن دريد وعبدالله بن مالك وعلى بن سليمان الأخفش . وكلهم قد أخذ عنه أبو الفرج وأكثر . وكلهم قد أخذ عنه أبو الفرج بصرف النظر عن مذهبه اللغوى أو مذهبه الدينى أو صلته برجال الحكم والسياسة إذ لم يكن من هم أبي الفرج إلا الجمع والاستقصاء والتوسع فى الرواية وعرض وجهات النظر المختلفة التى تبصر القارىء بالحقيقة وتجعله فى أمن من التصديق فى سهولة ويسر الأمر الذى ينكره العلم ويحذر منه العلماء .

ومواد هؤلاء الدراسية تكاد تكون واحدة فى جملتها ويصورها هذا النص من ياقوت (كان أبو بكر الأنبارى يملى كتبه المصنفة ومجالسه المشتملة على الحديث والتفسير والأخبار والأشعار [١]) . فقد كانت هذه هى المواد التى يدرسها هؤلاء وإن وقع الاختلاف فى أجزاء هذه المواد أحياناً أو فى أمورها التفصيلية من حيث الألوان الأدبية والتاريخية . . . إلخ .

وأماكن الدراسة والمساجد والدور . أما المساجد فقد كانت من نصيب ابن الأنبارى فقد كان يملى فى ناحية من المسجد وأبوه فى ناحية أخرى [٢] . وقد كان المسجد الذى يملى فيه يسمى باسمه واسم أبيه إذ كان يعرف بمسجد الأنباريين وذلك هو الواضح من حديث ابن النديم عن ابراهيم بن عرفة نفطويه فلقد كان هو الآخر من الذين يتخذون من المساجد

---

(١) ١٨/٣٠٨ معجم الأدباء . ط. رفاعى

(٢) ٣٠٧ المصدر السابق

بمجالسهم العلمية[١]. وليس ذلك بالأمر الغريب فلقد كانت سنة العصر أن تسمى المساجـــد باسم من يقوم بالتدريس فيها من الشيوخ لغويين ومحدثين ومؤرخين[٢].

وطريقة أبي بكر وطريقة نفطويه هي الإملاء. الإملاء من مكتوب أو من محفوظ الأمر الذي اشتهر وعرف عن ابن الأنباري[٣] فقد كان يملي من غير دفتر ولا كتاب لأنه كان فيما يقولون في نهاية الذكاء والفطنة وجودة القريحة وسرعة الحفظ.

وأما الدور فقد كانت نصيب ابن دريد من هؤلاء الأشياخ فقد كان الطلاب يذهبون إلى منزله للقراءة عليه أو النقل من كتبه[٤]. كما هو الواضح من حديث السيرافي عنه ويظهر أن السبب في ذلك إنما يرجع إلى أن ابن دريد كان من الخلعاء المستهترين[٥].

وطرق التدريس هذه وأماكن الدراسة لهما آثارهما الواضحة في مرويات أبي الفرج لا سيما في كتاب الأغاني فنحن نرى أخذه يكثر عن قوم ويقل عن آخرين. نراه يكثر حيث يكون القراءة من الكتب وحيث يكون المكان هو دار الأستاذ في الغالب ونراه يقل حين تكون الطريقة هي الإملاء وحين يكون الشيخ من الذين يعقدون مجالسهم العلمية في المساجد. ومن هنا نرى أخذ أبي الفرج الأصبهاني عن إبراهيم نفطويه وعن محمد بن القاسم الأنباري من القلة بحيث لا يقاس إلى ما أخذه أبو الفرج عن كل من محمد بن العباس اليزيدي وعلي بن سليمان الأخفش وبحيث لا يقارب ما أخذه أبو الفرج عن كل من ابن دريد وابن أبي الأزهر. أنه يكاد لا يضارع ما أخذه

---

(١) ١٢١ الفهرست لابن النديم. ط. مصر
(٢) ٦٠، ١٨/٦١ معجم الأدباء.
(٣) ١١٢ الفهرست لابن النديم.
(٤) ١٧/٨٧ معجم الأدباء. ط. رفاعي
(٥) ١٨/١٣٠ المصدر السابق

عن محمد بن جعفر الصيدلانى وعبد الله بن مالك ممن لم يشتهر شهرة ابن الأنبارى ولم يجلس مجلسه من المسجد .

لقد كان أبو الفرج يقرأ على الأولين أو يكتب عنهما كتبا بتمامها ومن هنا نراه يقرأ على على بن سليمان الأخفش كتاب المغتالين [١] . ويقرأ على محمد بن العباس اليزيدى أخبار أبى كلده ونسبه وديوان شعره [٢] . كما يقرأ عليهما كتاب النقائض [٣] .

كما نراه يأخذ أخبار بعض الشعراء عنهما إلا فى القليل النادر ومن ذلك أخبار إسماعيل بن عمار وأخبار الوليد بن طريف وأخبار الهجاء بين جرير والفرزدق وأيام العرب .

ولعل محمد بن مزيد بن أبى الأزهر هو الشخص الوحيد من بين هؤلاء الذى انفرد برواية كتاب إسحاق الموصلى فى الغناء . أخذه عن حماد بن إسحاق [٤] . وأخذه أبو الفرج عنه . ولا يروى ابن أبى الأزهر عن غير حماد إلا فى القليل النادر .

هؤلاء هم شيوخ أبى الفرج من اللغويين البغداديين وهذه هى الطرق التى قام عليها تدريسهم والتى أفاد منها أبو الفرج كما أفاد غيره من الطلاب وهذه هى الأماكن التى اتخذوا منها مجالسهم العلمية وهى المجالس التى كان يؤمها أبو الفرج كما كان يؤمها غيره من الطلاب . وإذا كان لابد من وقفات عند بعض المميزات الخاصة التى قد نرى آثارها فى حياة أبى الفرج فهى هذه الميزات .

أولا — الروح العلمية عند ابن الأنبارى وهى روح خلقية قبل كل شىء

---

(١) ٢/٣٠ أغانى . ساسى .
(٢) ١٠/١٠٥ المصدر السابق
(٣) المصدر السابق
(٤) ٣/٢٨٨ تاريخ بغداد

وبعد كل شيء وطابعها الحرص على الحقيقة والنزول عند حكمها حتى ولو كان هذا النزول على حساب الأساتذة وفى صالح الطلاب . حكى أبو الحسن الدارقطنى أنه حضر مجلس إملائه فى يوم جمعة فصحف إسماً أورده فى إسناد حديث ... قال الدار قطنى فأعظمت أن يحمل عن مثله فى فضـــله وجلالته وهم وهبت أن أوقفه على ذلك فلما فرغ من إملائه تقدمت إليه فذكرت له وهمه وعرفته صواب القول فيه وانصرفت ثم حضرت الجمعة الثانية مجلسه فقال أبو بكر للمستملى عرف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الإسم الفلانى لما أملينا حديث كذا فى الجمعة الماضية ونبهنا ذلك الشاب على الصواب وهو كذا وعرّف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال[١] .

ثانياً — الروح العلمية عند اليزيدى وهى أيضاً روح خلقية وطابعها التثبت قبل التقبل أو كما يقول أبو الفرج عنه . «كان فاضلا عالماً ثقة فيما يرويه منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله[٢]» . ذلك لأن هذه الروح هى التى تخلق العلماء وهى التى تجدد نشاط العلم وهى التى تدفع الإنسان إلى الوقوف طويلا قبل أن يستجيب .

ثالثاً — ذلك السلوك الخاص لابن دريد وهو السلوك الذى يقوم على شرب الخمر والحرص على الطرب والغناء ومحبة المرد من الغلمان . قال أبو هلال أخبرنا أبو أحمد قال كنا فى مجلس ابن دريد وكان يتضجر ممن يخطىء فى قراءته فخضر غلام وضيء فجعل يقرأ ويكثر الخطأ وابن دريد صابر عليه فتعجب أهل المجلس فقال رجل منهم لا تعجبوا فان فى وجهه غفران ذنوبه وقال بعضهم فى مجلس ابن دريد .

---

(١) ٣٠٨ ، ١٨/٣٠٩ معجم الأدباء. ياقوت .

(٢) ١٨/٧٣ أغانى . سامى .

من يكن للظباء طالب صيد فعليه بمجلس ابن دريد
إن فيـــه لأوجها قيدتنى عن طلاب العلا بأوثق قيد [١]

ويظهر أنه من هذا المسلك الخاص كانت صلة جحظة البرمكى بابن دريد قوية [٢] . وجحظه كما نعلم هو الأستاذ الصديق بالنسبة إلى أبى الفرج وكل منهما يسلك هذا المسلك ويجرى فى هذا الميدان .

رابعاً — بعض العادات القبيحة عند ابراهيم بن محمد عرفة المعروف بنفطويه فقد كان قذرا وسخاً يفرط به الصنان ولا يأبه لشىء من ذلك حتى ولو تأذى الجلساء وأظهروا له ذلك [٣] .

ونستطيع الآن أن ننتقل إلى نوع آخر من المدارس يختلف عن النوع السابق فى كثير من الصفات ذلك هو مدارس المغنيين والندماء والجلساء .

ومدارس هذا النوع من التعليم هى رحبات الدور والقصور . قصور الخلفاء والوزراء ودور الأغنياء ومن اليهم من الأغنياء والموسرين . أو دور من اتخذ تربية القيان والغلمان وتربية المغنيين والمغنيات له مهنة وصناعة ولعل هذا الحديث المروى عن ابن حبيب يصور لنا هذا النوع الأخير . جاء فى الأغانى . قال ابن حبيب كان فى الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين قدمها من الحجاز فكان من يسمع الغناء ويشرب النبيذ يأتونه ويقيمون عنده مثل يحيى بن زياد الحارثى وشراعه بن الزند ومطيع بن أياس وعبد الله بن العباس المفتون وعون العبادى الحيرى ومحمد بن الأشعث الزهرى المغنى وكان نازلا فى بنى أسد فى جيران اسماعيل بن عمار فكان اسماعيل يغشاه ويشرب عنده ثم انتقل من جواره إلى بنى عائذ فكان اسماعيل يزوره هناك على مشقة لبعد ما بينهما . وكان لابن رامين جوار يقال لهن سلامة الزرقاء وسعده وربيحه وكن من أحسن الناس غناء [٤] .

---

(١) ١٣٩ ، ١٨/١٤٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى (٢) ١٣٦ المصدر السابق
(٣) ١/٢٦٧ المصدر السابق (٤) ١٠/١٢٨ أغانى . ساسى .

وثقافة أبي الفرج الغنائية واضحة من اهتمامه بهذا اللون الفني وتأليفه فيه أكثر من كتاب فله فيما نعلم كتاب مجرد الأغاني وقد ذكره هو في المقدمة[١] وله هذا الكتاب الكبير كما أن له رسائل أخرى في النغم وعللها وفي مسائل الأصابع وقد بسط هو كما يقول هذه المسائل بسطا لا تحتاج بعده إلى مزيد من العناية[٢].

وثقافة أبي الفرج الغنائية تستمد وجودها من كتب كثيرة قرأها وألم بما فيها وذكرها هو في مواطن كثيرة من كتابه الأغاني الكبير وليس بنا من حاجة إلى الحديث عن هذه الكتب الآن فانما وقفنا لنتحدث عن الأساتذة الذين ربوه والمواطن التي ألم بها أول عهده بالثقافة الغنائية يوم أن لم يكن يستطيع الاعتماد على نفسه وعلى ما يقرأ من كتاب.

والدور التي نعتقد أن أبا الفرج كان يلم بها ليثقف شيئاً من هذا الفن الغنائي وأخباره كثيرة فيما نعتقد. منها دور نستطيع الوقوف عليها من الأحاديث العارضة التي تجيء في ثنايا الكلام ومنها أخرى نستطيع أن نصل اليها من صلته بأصحابها وأخذه عنهم. فنستطيع مثلا أن نقول أن أبا الفرج قد أخذ فن الغناء عن حرمي بن أبي العلاء لأنا نراه يأخذ عنه أخباراً كثيرة في كتابة الأغاني ولأنا نراه يصفه بأنه من أكابر المغنيين حين يتحدث عن المعتضد وما له من صنعة غنائية وذلك حيث يقول (وكان المعتضد بالله رحمة الله عليه ربما كان أراد أن يضع في بعض الأشعار غناء وبحضرته أكابر المغنيين مثل القاسم بن زرزور وأحمد بن المكي ومن دونهما مثل أحمد ابن أبي العلاء وطبقتهم فيعدل عنهم . . .)[٣] كما يصفه المعتضد بالحسن في الغناء أيضاً في حديث آخر من أحاديث الأغاني. (أخبرني محمد بن ابراهيم قريض قال حدثني أحمد بن أبي العلاء المغني قال غنيت المعتضد صوتا في شعر له ثم ابتعته بشعر الوليد بن يزيد.

---

(١) ١/٢ المصدر السابق
(٢) ٥/٥٠ ، ٩/٤٧ أغاني . ساسي .
(٣) ٨/٤٢ المصدر السابق

كللانى توجانى وبشعرى غنيانى

فقال أحسن والله هكذا تقول الملوك المترفون وهكذا يطربون . . . أحسنت يا أحمد الاختيار لما شاكل الحال وأحسنت الغنـــاء أعد فأعدته . . . الخ)[١] .

ونستطيع أن نقول أن أبا الفرج قد أخذ أيضاً عن ابراهيم بن القاسم ابن زرزور وأنه ليحدثنا أنه كان يسمعه وهو يغنى بعض الأصوات سمعت إبراهيم ابن القاسم ابن زرزور يغنيه فكان من أحسن ما صنع فى هذا الصوت ... الخ)[٢] .

وكذلك كان أبو الفرج يسمع غناء أبى عيسى بن المتوكل (كان عبد الله بن المتوكل جمع له صنعة مقدارها أكثر من ثلاثمائة صوت منها الجيد الصنعة ومنها المتوسط قد سمعنا كثيراً منها ... الخ)[٣] .

ويحدثنا أبو الفرج أيضاً عن محمد بن أحمد بن يحى المكى على أنه من البارعين فى فن الغناء وأنه قدأدرك من أخذ عنه (ولقيه جماعة من أصحابنا وأخذ عنه جماعة ممن أدركناه من عجائز المغنيات منهم قرية العمرية وكانت أم ولد عمرو بن بانه وممن أدركه من أصحابنا جحظة وكتبنا عنه عن ابن المكى هذا حكايات حسنة ...[٤] ، ونفهم نحن من هذا أن أبا الفرج قد أخذ عن عجائز المغنيات اللاتى منهن قرية هذه .

ودار أخرى كان يلم بها أبو الفرج ليأخذ عن صاحبها العلم والمعرفة ويكتب عنه الأخبار والأشعار تلك هى دار ابراهيم بن عرفة ويذكر لنا الزبيدى فى طبقاته عند ترجمته لابن الأنبارى أن قد كان لنفطويه جوار يجدن الغنـاء ومنهن واحـدة عرفت بقارئه الألحان .[٥] ونذهب نحن لما نعرف من صلات أبى الفرج بنفطويه ومن أخذه عنه الأدب والأخبار أنه قد كان يأخذ عن داره أيضا الأصوات والألحان .

والدور التى يحسن بنا أن نقف عندها طويلا هى دور آل المنجم ودار

---

(١) ٨٥ المصدر السابق ، ٩/٣٣ الأغانى أيضا (٢) ٩/١٩ المصدر السابق
(٣) ٩٩ أغانى . سامى (٤) ٦/١٦ المصدر السابق
(٥) ١١١ ، ١١٢ . طبقات الزبيدى . مصورة دار الكتب .

أحمد بن جعفر جحظه وذلك لأنا نعتقد أن هذه كانت هى الدور التى تثقف فيها أبو الفرج وأخذ عن أهلها كثيراً .

وأما آل المنجم فصلة أبى الفرج بهم قديمة ترجع إلى أول عهده ببغداد فقد روى عن يحى بن على المتوفى سنة ثلاثمائة . وروى عنه الأصوات المائة ووقف إلى جانبه حين اختلفت روايته عن رواية جحظة فى الأصوات الثلاثة المختارة[١]

وآل المنجم معروفون بهذه الثقافة الغنائية يحكى ذلك عنهم جحظة الأستاذ والصديق لأبى الفرج فهو يقول « حدثنى رذاذ غلام المتوكل قال شهدت على بن يحى المنجم وقد أمره المتوكل أن يغنيه وكنت جالساً إلى جانبه فقال لى قد وقعت وأن تمنعت جد بى حتى أغنى ثم لا يكون له موقع والمبادرة إلى أمره وسرعة الطاعة له أصوب اضرب على فضربت عليه وغنى[٢]

ويذهب جحظه إلى أبعد من هذا فيروى لنا أن على بن يحيى المنجم هذا قد أخرج سير الخلفاء على شاكلة لم يسبقه إليها أحد قبله [٣] .

ودور آل المنجم هى الموطن الذى يلم به من يريدون حظا من هذه الثقافة الغنائية ويصور لنا ماكان يجرى فيها لعهد أبى الفرج هذا الحديث من الصاحب بن عباد « وتوفرت على عشرة فضلاء البلد فأول من كارثنى أولاد المنجم لفضل أبى الحسن على بن هارون وغزارته واستكثارى من روايته وطيب سماعه ولذيذ عشرته فسمعت منه أخباراً عجيبة وحكايات غريبة ومن ستارته أصواتاً نادرة مشنفة مقرطقة يقول فى كل منها الشعر

---

(١) ٦ / ١ الأغانى : ساسى .
(٢) ١٠/١٦٣ المصدر السابق
(٣) ١٤/١٠٩ الأغانى ساسى .

لفلان والصنعة لفلان أخذته هذه عن فلان أو فلانة حتى يتصل النسب بإسحاق أو غيره من أبناء جنسه [١] » .

ويظهر أن الحال لم تستمر حسنة فيما بين أبى الفرج وبين هذه الأسرة فنحن نشعر من عنوان ذلك الكتاب الذى عارض به على بن هارون كتاب أبى الفرج «الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار» قسوة واحساساً بالقطيعة وأن يكن مصدر ذلك فيما نعتقد أبو الفرج نفسه فقد سمى على ابن هارون كتابه « كتاب اللفظ المحيط بنقض ما لفظ به اللقيط [٢] » . وليس بعد هذين العنوانين من دليل .

أما جحظه فهو بالنسبة إلى أبى الفرج الأستاذ والصديق وصلة أبى الفرج به واضحة كل الوضوح حتى لقد ألف كتاباً فى أخباره [٣] . وأبو الفرج يقرأ عليه فى الثقافة الغنائية كتاب أبى حشيشة [٤] وأبو حشيشة هذا هو الأستاذ الذى أخذ عنه جحظه فيما يحكى عنه ابن النديم [٥] وهو أحد الرواة الذين يروى عنهم الأصوات المائة والأصوات الثلاثة المختارة من هذه المائة كما كان الأستاذ الذى يلجأ إليه أبو الفرج كلما أشكلت عليه الأمور [٦] ولسنا بحاجة إلى أن ندلل على أنه قد قرأ عليه كتابه الخاص بالطنبوريين والطنبوريات فذلك أمر واضح لكل من قرأ الأغانى .

والصورة التى كان يجرى عليها العمل فى دار جحظه هى تلك الصورة التى تقطر الدعابه من جوانبها والتى يحكيها لنا غرس النعمة حين يقول (. . . كان جحظه لما أسن يفسو فى مجالسه فيلقى من يعاشره منه جهداً . قال الحسين بن العباس وكنت أحب غناءه والكتابة عنه لما عنده من الآداب وكان يستطيب عشرتى وكنت إذا جلست عنده أخذته غلبة الريح

---

(١) ١١٦ / ١٥ معجم الأدباء : ط . رفاعى
(٢) ٢٠٧ ، ١٦٧ الفهرست لابن النديم
(٣) ٢٧٨ / ٢ يتيمة الدهر للثعالبى . ط . دمشق .
(٤) ١٥/١٣٨ أغانى . ساسى (٥) ٢٠٨ الفهرست لابن النديم
(٦) ١١/٣٢ أغانى . بولاق

فجئته يوما فى مجلس الأدب والناس عنده وهو يملى فلما خفوا قال لى ولآخر كان معى أجلسا عندى حتى أقعدكما على أسود وأطعمكما طباهجة بكبود وأسقيكما من معتقة اليهود وأبخركما بعنبر وعود أطيب من الندود وأغنيكما غناء المشدود . فقلت هذا موضع السجود . وجلسنا وصديقى لا يعرف خلقه فى الفساء وأنا قد أخذت الريح فوق فوق لنا بجميع ما ذكره وقال لنا وقد غنى وشربنا نحن بالغداة علماء وبالعشى فى صورة المخنكرين . فلما أخذ النبيذ منه أخذ يفسو وصديقى يغمزنى ويتعجب فأقول له إن ذلك عادته وخلقه وأن سبيله أن يحتمل إلى أن غنى صوتاً من الشعر والصنعة له فيه وكان يجيده .

إن بالحيره قسا قد مجن فتن الرهبان فيها وافتتن
ترك الانجيل حيناً للصبا ورأى الدنيا مجونا فركن

قال فطرب عليه صديقى طرباً شديداً واستحسنه كثيراً وأراد أن يقول له أحسنت والله يا أبا الحسن . فقال له ما فى نفسه يتردد من أمر الفساء . أفس على يا أبا الحسن كيف شئت فخجل جحظه وخجل الفتى وانصرفنا [١]

ولعل الأمر الذى يجب أن نلتفت إليه هو أن هذا اللون من الثقافة لا يكون إلا حيث يكون القصف وحيث تكون الخلاعة والمجون . ومن يدرى فلعل أبا الفرج وقد أهتم بهذا اللون الفنى كان يذهب إلى الحانات ليشرب ويطرب وإلى الأديرة لتكون الفتنة والعبث وهل يصادق جحظه ويتخذ منه الأستاذ دون أن يناله خير أو شر هذه الحياة .

لقد كتب أبو الفرج فى أخبار جحظه ونقل عنه النقلة من الرواة فصوروا لنا حياته فى منزله [٢] . وصوروا لنا حياته فى الأديرة [٣] . وصوروا لنا حياته عند الأصدقاء [٤] . وهى حياة كلها اللهو والعبث وكلها الدعابة والمجون .

---

(١) ٢/٢٥٦ ، ٢٥٧ معجم الأدباء (٢) ٤/٦٦ تاريخ بغداد
(٣) ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ المجلد الرابع . معجم البلدان . دير العذارى
(٤) ٢٦٤ ، ٢٦٥ / ٢ معجم الأدباء

وتحدث عنه ابن النديم فقال : أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن خالد ابن برمك شاعر مغن مطبوع فى الشعر حاذق بصناعة غناء الطنبور . . . وكان مع ما وصفناه به بعيداً عن أدب النفس وكان وسخاً وفى دينه بعض العهدة بل العهدة كلها [١] . وهل يكون الطالب الصديق إلا صورة تقريبية من أستاذه ؟

ويبقى بعد ذلك ببغداد بيئات ثقافية أخرى لايخلوا حالها من أن تجرى على سنة اللغويين فى الاملاء أو فى قراءة الطالب على الشيخ وتلك هى بيئات الكتاب والاخباريين والشعراء وهى البيئات التى يصح أن نسميها بالبيئات المتنقلة ذلك لأن الناس يأخذون عنهم أينما وجدوا يأخذون عنهم فى دكاكين الوراقين ويأخذون عنهم فى الدواوين ويأخذون عنهم فى دورهم وشيوخ أبى الفرج من هؤلاء كثيرون جداً نذكر منهم على سبيل المثال : أبا الحسن الأسدى ومحمد بن يحيى الصولى وقدامة بن جعفر والحسن بن على الخفاف والحسن بن على الوشاء والحسن بن على الآزمى والطوسى وحرمى ابن أبى العلاء وأحمد بن عبيدالله بن عمار وابن الرومى واسماعيل بن يونس الشيعى والحسين بن يحيى والحسين بن قاسم الكوكبى وعلى بن صالح بن الهيثم الأنبارى وعيسى بن الحسين الوراق ومحمد بن خلف بن المرزبان ومحمد ابن خلف وكيع ومحمد بن جرير الطبرى وكثير غيرهم .

والصورة التى كان يأخذ بها أبو الفرج عنهم هى الصورة التى يمثلها هذا النص الذى يصور فيه أبو الفرج كيف كان يروى عن بعضهم . حدثنى جماعة من الرواة منهم . . . ممن كتبت الشىء عنه من أخباره متفرقا أو رواه لى مجتمعا [٢] .

ويظهر لنا أن صحبة أبى الفرج للشيوخ لم تتضح إلا مع جحظه لأن هذا كان صديقه ولأن أبا الفرج كان قليل الرواية كما قص علينا ابن النديم

---

(١) ٢٠٨ الفهرست لابن النديم (٢) ٤٤٢ مقاتل الطالبيين . ط . مصر

وكما سنرى فى الباب الثالث إن شاء الله . وليس من شك فى أن الاعتماد على الكتب لا يدع الشخص يحرص على صحبة الأحياء . ولعله يجعله يبحث عن مثله الأعلى فى واحد من أصحاب هذه الكتب وهو الذى رأيناه من أبى الفرج حين أوضحنا أن أساتذته الحقيقيين كانوا من بين الأموات . كانوا اسحاق الموصلى وعبد الله بن المعتز . ولعل السر فى هذا لاسيما فى بيئة تكثر فيها العناصر المختلفة المتنازعة كبغداد أن الصور التى يرسمها الخيال للأموات الناجحين تكون أكمل وأجمل واكثر نفوذاً وأقوى إيحاء من تلك التى يرسمها الواقع . وهل عبدت الانسانيـــة إلا الصور التى يرسمها أو يخترعها الخيال .

نترك الآن أبو الفرج الطالب لنتعرف على أبى الفرج الشيخ أو الرجل وسنختار من حياة أبى الفرج الجوانب التى تؤثر فى حياته العلمية وفى مروياته بصفة خاصة تلك الجوانب التى تحضه على الاستقامة أو تدفعه إلى الانحراف . ونبدأ من ذلك بالجانب المادى .

الفصل الرابع

الحياة المادية

فى وقفـــة من تلـك الوقفات التى يحاول أبو الفرج أن يعرف فيها بالشعراء نراه يقول (وعرف ، منصور النمرى ، مذهب الرشيد فى الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الأمامة عن ولد على بن أبى طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه فى ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان ابن أبى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء فى الجوائز فسلك مذهب مروان فى ذلك ونحا نحوه ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولـكنه حام ولم يقع وأوما ولم يحقق لأنه كان يتشيع وكان مروان شديد العداوة لآل أبى طالب وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر [1] . وهو قول يدفعنا إلى أن نتنبه إلى كثير من المسائل حينما نحاول درس الآثار الفنية أو العلمية ذلك لأنه القول الذى يصور لنا محاولة المنتج أو الأديب إرضاء الممدوح بتحسس رغباته ومعرفة مذهبه والجرى على ما يرضيه حتى يكون القبول الحسن وحتى تكون الجوائز السنية . ثم لأنه القول الذى يصور لنا ماقد يقع فيه الأديب من مآزق ومضايق حينما تكون هـذه الرغبات متعارضة أو متباينة مع ما يؤمن به من قيم وكيف أنه يلف ويدور ليثال الرضا دون أن يتورط فى المـكروه . ثم لأنه أخيراً القول الذى يصور لنا أن الفنان إنما يبدع حينما يصدر عن احساس قوى وعاطفة جياشة وأنه من هنا حام منصور ولم يقع وأوما ولم يحقق بينما مروان لم يبق ولم يذر وليس ذلك إلا لأن الأول زج بنفسـه فى مضايق

---

(١) ١٢/٦١ أغانى . ساسى

بينما الثانى كان يصدر عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا .

وفى وقفة من هذه الوقفات التى يعرف فيها ياقوت بالعلماء نراه يروى فى حق شيخ أبى الفرج محمد بن جرير الطبرى هذه القصص (وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكنه المكافأة عليه قبلها وكافأه وإن كانت مما لا يمكنه المكافأة عليه ردها واعتذر إلى مهديها . ووجه إليه أبو الهيجاء بن حمدان ثلاثة آلاف دينار فلما نظر إليها عجب منها ثم قال لا أقبل مالا أقدر على المكافأة عنه ومن أين لى ما أكافىء عن هذا . فقيل ما لهـــذا مكافأة إنما أراد التقرب إلى الله عز وجل فأبى أن يقبله ورده إليه .

وقال أبو الطيب القاسم بن أحمد بن الشاعر وسليمان بن الخاقانى ، أهدى أبو على محمد بن عبيد الله الوزير إلى أبى جعفر محمد بن جرير رمانا فقبله وفرقه فى جيرانه فلما كان بعد أيام وجه إليه بزنبيل فيه بدره فيها عشرة آلاف درهم وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها قال سليمان . . . فدخلت وأوصلت إليه الرقعة فقال يغفر الله لنا وله اقرأ عليه السلام وقل له أرددنا إلى الرمان وامتنع عن قبول الدراهم فقلت له فرقها فى أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها فقال هو أعرف بالناس إذا أراد ذلك [١] . وهى نصوص تشير مع غيرها إلى أن ابن جرير الطبرى كان يعمل جاهداً على أن يحول بين الصلات والهبات وبين علمه حتى تسلم له نفسه ويسلم له تفكيره وينشد الحقيقة خالصة لوجه الله وليس يعنيه أن يكون المهدى وزيراً أو واحداً من الطلاب [٢] .

ونحن لم نقف هنا إلا لنتبين أمثال هذه العلاقات المادية من حياة أبى الفرج ونتبين إلى أى حد كان يتأثر فنه وعلمه بهذه العلاقات فهل كان يصنع صنيع أستاذه أو كان يصنع صنيع من وصف هو من الشعراء ؟ .

إن الاجابة تتطلب منا بحث موارد الرزق ومصادر المال من حياة أبى الفرج وبحث العلاقة بين هذه المصادر وبين ما ينتجه الرجل من علم وفن .

---

(١) ٨٧ ، ١٨/ ٨٨ معجم الأدباء ط . رفاعى (٢) ٨٧ المصدر السابق

وقبل أن نتحدث عن هذه الموارد نذكر مظهر الحياة المادية عند أبي الفرج فى تلك الفترة التى كان يعيش فيها عضواً عاملا فى المجتمع البغدادى .

كان أبو الفرج يسكن داراً تقع على دجلة فى المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجله ودرب سليمان هذا هو الدرب الذى ينسب إلى سليمان ابن جعفر بن أبي جعفر المنصور وهو بالجانب الغربى من بغداد وقد كان يقابل الجسر ويقرب منه فى أيام المهدى والهادى والرشيد . وكان قصر سليمان يقع فى هذا الدرب قبالة رأس الجسر[١] . ومن هنا سمى باسمه . وقد كانت دار أبي الفرج تلاصق دار أبي الفتح البريدى[٢]. الأمر الذى أشرنا إليه عند حديثنا عن العداوة التى كانت بين البريديين وأبي الفرج .

وكان أبو الفرج يملك هذا المنزل وقد أشار إلى ذلك عند وصفه لفترة من الزمن قضاها بالبصرة فى أخريات عمره حيث زارها وهم بمغادرتها إلى حصن مهدى فقد كتب على حائط الخان الذى كان ينزله قصيدة منها هذه الأبيات التى تصور هذا البيت وتصور إلى جانبه أبا الفرج فى شىء من الغنى واليسر وفى شىء من اللهو والسرور . قال رحمه الله :

بدلت من بعد الغنى حاجة ... إلى كلاب يلبسون الفرا
أصبح أدم السوق لى مأكلا ... وصار خبز البيت خبز الشرا
وبعد ملكى منزلا مبهجاً ... سكنت بيتاً من بيوت الكرى
فكيف ألغى لاهياً ضاحكا ... وكيف أحظى بلذيذ الكرى[٣]

وكان لأبي الفرج غلام يتوفر على خدمته[٤] الأمر الذى لا يكون إلا للقادرين على الإنفاق على الغلمة كما كان يستضيف النساس لفترات قد تطول حتى تكون الشهور[٥] .

---

(١) ٧٢ أقسام شائمه من كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ط. بغداد سنه ١٩٤٨م
(٢) ٣٢ المصدر السابق . جمع ميخائيل عواد (٣) ١٣/١١٦ معجم الأدباء
(٤) ١٠٤ المصدر السابق
(٥) ١٢٠ ، ١٢١ المصدر السابق

كان أبو الفرج إذاً فى شىء من السعة واليسر وكان أصدقاؤه من العلماء والكتاب من أمثال الصابى والأنبارى وأبى العلاء صاعد يزورونه فى هذه الدار لقضاء حقة وتعرف خبره والإقامة لحظات[١] . الأمر الذى يدل على أنه لم يكن فى فقر وإملاق . وإذاً فمن أين يجىء أبو الفرج بالمال الذى يمكن من مثل هذه المعيشة وييسر سبل الإنفاق .

إن موارد الرزق عند أبى الفرج انما تنبع فيما نرى من هذه الجهات .

أولا — أجور الطلاب الذين يأخذون عنه إما بالقراءة عليه من كتبه وإما بما يملى عليهم من أخبار وأشعار وهى أجور لا نستطيع أن ندعى أنا نعلم مقدارها فانما نتصور فقط أن ذلك هو الذى يحدث فى ميدان الأدب والأخبار وأن هذا عند الأدباء والأخباريين باب من أبواب الرزق ومورد من موارد المال ولقد روى أبو الفرج خبراً يذكر فيه أن ابن أبى عبيدة كان يملى شعر كثير بثلاثين ديناراً[٢] . وليس أبو الفرج اللاهى العابث بالشيخ الذى يرفض أخذ الأجور من الطلاب .

وطلاب أبى الفرج فيما يحكى الخطيب البغدادى : الدار قطنى وأبو إسحاق الطبرى وإبراهيم بن مخلد ومحمد بن أبى الفوارس ويذكر الخطيب أنه حدث عنه عن على بن أحمد الرزاز وأبى على بن دوما ويعلق على هذا الأخير بقوله ولم يكن سماع ابن دوما منه صحيحا[٣] .

والراوون لكتاب مقاتل الطالبيين من طلاب أبى الفرج هم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبرى وعبد الله بن الحسين بن محمد الفارسى وهم الذين وصلتنا النسخة المقروءة عليهما[٤] .

والقارئون على أبى الفرج كتاب الأغانى ممن وقفنا على أسمائهم هم على ابن إبراهيم الدهكى[٥] وأبو الحسين على بن محمد بن عبد الرحيم بن دينار

---

(١) ١٣/١٠٤ معجم الأدباء .ط. رفاعى

(٢) ٨/٢٦ الأغانى . ساسى

(٣) ١١/٣٩٩ تاريخ بغداد للخطيب

(٤) ٣ مقاتل الطالبيين

(٥) ٢١٦ ، ١٢/٢١٧ معجم الأدباء

الكاتب [١]. وقد ذكر ياقوت أنه قد وصلت إليه أجازة متصلة عن الأول. ويذكر ياقوت أنه قد كان من الذين رووا عن أبي الفرج أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربي راوية المتنبي وأحد أئمة الأدب في وقته [٢].

ولن نستطيع أن ندعي في هذا المقام أن هذه الأجور قلت أو كثرت كانت ذات أثر على هذه المرويات من حيث صدقها وصحتها أو عدم ذلك. ولا من حيث اختيار الموضوعات واختيار المواد التي تقوم عليها هـــذه الموضوعات فانما كان أبو الفرج يملي كتاب المقاتل ويقرأ عليه الطلاب كتاب الأغاني وذلك كله قد كان فيما نرى — وكما هو الواضح من مقدمات هذه الكتب ومن أحاديث الرواة الذين رووا الكتاب الأول أو قرأوا عليه الكتاب الثاني — بعد الفراغ منها والانتهاء من اختيار موضوعاتها وجمع موادها ومن هنا نستطيع أن نعد هذه الأجور موردا من موارد الرزق ولا نستطيع أن نعدها عاملا مؤثرا أو عاملا من العوامل التي تدعو الرواية إلى الانحراف. اللهم إلا إذا قلنا أن أبا الفرج كان يملي المقاتل على الشيعيين وأنه من هنا كان يخشى ما يستثير عواطف الطلاب نحو آل على أو آل أبي طالب ولكن ذلك نفسه قد يؤذي أبا الفرج الشيعي قبل أن يؤذي الطلاب ومن هنا نشعر أن أبا الفرج كان يملي ما يراه هو بعاطفته المذهبية الشيعية الحق والصواب ولو بالنسبة إلى آل على ويكون العامل المؤثر في مثل هذه الحالة تشيع أبي الفرج وإن اتفق وما يرغب فيه الطلاب.

وقبل أن نترك هذه المسألة نشير إلى أن هناك من طلاب أبي الفرج من قدم من الأندلس لطلب العلم ومن كان أبو الفرج يعظمه ويكرمه [٣].

ثانيا — الكتب «وكتب أبي الفرج مورد من موارد الرزق» بل هي مصدر من مصادر الثروة إن صح ما يقوله ابن خلدون [٤]. وما يرويه

---

(١) ١٤/٢٤٨ المصدر السابق.
(٢) ١٧/١٢٨ المصدر السابق.
(٣) ١٣/١٢ معجم الأدباء.
(٤) ٤/١٤٦ ابن خلدون.

صاحب نفح الطيب [١] من أن الحكم المستنصر قد أرسل فى طلب نسخة من كتاب الأغانى وأنه أرسل إلى أبى الفرج فيها ألف دينار من الذهب العين .

وكتب أبى الفرج التى ألفها كثيرة كتب بعضها للرؤساء والحاكين وكتب بعضا آخر للقراء والاملاء وكتب بعضا ثالثا لشفاء نفسه مما تجد وللكيد لبعض الأقران من أمثال هارون بن المنجم ذلك الذى كتب فيه كتاب صفة هارون وكتاب الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار [٢] . ولن نستطيع أن ندعى أن هذه الكتب جميعها كانت موردا من موارد الرزق وحسبنا أن نعلم إنه كتب بعضها للوزير المهلبى وقد كان يعيش فى كنفه وذلك ككتاب مناجيب الخصيان [٣] . وأن تعلم ما يقوله بعض المؤرخين من أنه حصل له ببلاد الأندلس كتب صنفها لبنى أمية ملوك الأندلس وكان يسيرها إليهم سرا وجاءه الإنعام سرا [٤] .

حسبنا أن نعرف هذا لننتقل إلى أمر يعنينا فى هذا الموقف ولعله من أجله عقدنا هذه الفقرة ذلك هو موقف أبى الفرج بين الضمير العلمى الذى هو ضمير خلق قبل كل شىء وبعد كل شىء وبين رغبات الحاكين أو من بأيديهم حق المنح والحرمان من الاغنياء الموسرين . فهل كان أبو الفرج يتحسس رغبات هؤلاء المانحين ويعمل على إرضائها أو على أقل تقدير لا يعمل على إغضابها أو كان يعرض عن كل هذا فى سبيل الحق والحق قبل كل شىء وبعد كل شىء ؟ .

أن الاجابة عن هذا السؤال ليست سهلة ولا يسيرة ما دمنا لم نقف على جميع كتب أبى الفرج وما دمنا لم نعرف جميع الرؤساء الذين ألف من أجلهم كتبه وأهداها إليهم فى السر أو فى العلن . ولكننا ليست مستحيلة ما دمنا نعرف العناوين والاسماء من هذه الكتب . أن هذه العناوين تحمل بين ثنايا موضوعات هذه الكتب واختيار هذه الموضوعات خيط نمسك

---

(١) ١/١٨٠ نفح الطيب . (٢) ١٦٧ الفهرست لابن النديم .
(٣) ١٣/١٠٠ معجم الأدباء
(٤) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام للذهبى . مصورة رقم ٤٢ تاريخ . دار الكتب .

به لنقف على مذهب أبى الفرج فى تحسس أو عدم تحسس رغبات هؤلاء المانحين .

ما الكتب التى ألفها أبو الفرج وأبقاها بالمشرق ؟ وما الكتب التى ألفها أبو الفرج وبعث بها إلى ملوك الأندلس وجاءه عليها الإنعام فى السر فيما يقال ؟

يجيب الخطيب البغدادى عن هذا السؤال فيقول « وصنف كتبا كثيرة منهـــا الأغانى الكبير ومقاتل الطالبيين وأخبار الاماء الشواعر وكتاب الحانات وكتاب الديارات وآداب الغرباء وغير ذلك فهذه تآليفه التى وقعت إلينا . وجعل له ببلاد الأندلس مصنفات لم تقع إلينا منها كتاب نسب بنى عبد شمس وكتاب أيام العرب ذكر فيه ألفا وسبعمائة يوم وكتاب التعديل والانتصاف فى مآثر العرب ومثالبها وكتاب جمهرة النسب وكتاب نسب بنى شيبان وكتاب نسب المهالبة ونسب بنى تغلب ونسب بنى كلاب وكتاب القيان وكتاب الغلمان والمغنين وكتاب مجرد الأغانى »(١) .

وقبل البدء بالحديث عن هـــذه الكتب وعن دلالة عناوينها أو موضوعاتها على مذهب أبى الفرج فى تحسس الرغبات أو عدم تحسسها نصحح وضعا نعتقد أن قد أخطأ فيه الخطيب ذلك أن هذه الكتب التى تخص القيان والغلمان والأغانى قد كتبها أبو الفرج وأخرجها بالمشرق ووقعت فى يد الثعالبى والثعالبى فيما نعلم أقرب عهدا إلى أبى الفرج من الخطيب فقد ولد وصاحبنا حى يرزق .

أن نظرة فاحصة إلى قوائم الكتب وتوزيعها بين المشرق والمغرب تدلنا على أن أبا الفرج قد كان يرسل إلى المغرب أخبار الحياة الجادة غير العابثة . وإنه قد كان يخرج بالمشرق أخبار الحياة الداعرة الفاجرة وليس من بأس فى أن نعلل هذا الصنيع وأن نجعل من علله أن أبا الفرج كان يتحسس رغبات المانحين والمنعمين .

---

(١) ١١/٣٩٨ الخطيب البغدادى . (٢) ٣/٢٧٨ اليتيمة .

لقد كان المهلبي ومن على شاكلته من البيئة البغدادية يحبون كل ما هو داعر فاجر ومن هنا نفقت بضاعة أبي الفرج اللاهية عندهم ومن هنا أعرض ذوو الجد من الأدباء عن هذا المهلبي الذى لا يعرف من الحياة إلا العبث والمجون . تحدث أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحيم الأصفهانى فى كتابه إيضاح المشكل لشعر المتنبى قال « فلما حصل المتنبى ببغداد نزل ربض حميد فركب إلى المهلبي فأذن له فدخل وجلس إلى جانبه وصاعد خليفته دونه وأبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى.. وانتظر المهلبي إنشاده فلم يفعل وإنما صده ما سمعه من تماديه فى السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه وكان المتنبى مر النفس صعب الشكيمة جادا مجدا فخرج . فلما كان اليوم الثالث . . . الخ [١] .

ولقد كان المستنصر صاحب جد وصاحب ميل شديد إلى الكتب يبعث فى شرائها إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الاموال حتى جلب من هذه الكتب إلى الاندلس ما لم يعهده أهلها وكان الذى يقيم على هذه العملية زميل لأبى الفرج فى أيام الطلب هو أبو على القالى . ولن يرضى القالى من الأخبار إلا كل ما هو جاد رزين [٢] .

لقد كان أبو الفرج من الذين يتحسسون رغبات البيئة الخاصة أو رغبات المنعمين فى اختيار موضوعات كتبه وفى اختيار المواد التى تؤلف هذه الموضوعات وهو أمر يجب أن نفطن إليه وإلى بعض آثاره عند تقديرنا لأبى الفرج الراوى ولقيمة مروياته فى الميدان العلمى وفى الميدان الفنى ليكون لنا صدق النظرة فى التقدير .

ثالثا — ومورد ثالث من موارد الرزق عند أبى الفرج هو أجره فقد كان أبو الفرج كاتبا وبهذه الحرفة يصفه جميع المؤرخين من أمثال أبى نعيم والخطيب البغدادى والذهبى وغيرهم . ويظهر أنه كان كاتبا فى ديوان الوزير

---

(١) راجع خزانه الأدب ٣٨٢ — ٣٨٩ ج ١ الطبعه الأولى .

(٢) راجع تاريخ المستنصر ج ٤ ص ١٤٦ وما حواليها من تاريخ ابن خلدون

أبي محمد المهلبي فإنهم يقولون أن المهلبي كان يختاره في كل شيء مريح وأن صحبته له كانت قبل الوزارة وبعدها إلى أن فرق بينهما الموت [١] وقد كان أبو الفرج أيضا نديما ونديما للوزير المهلبي بالذات ومن هنا نميل إلى أنه كان يأخذ رزق الندماء كما هي العادات المتبعة في ذلك الحين وأن ابن النديم ليقص علينا أن من الناس من كان له رزق في الندماء ورزق في الفقهاء ورزق في العلماء [٢].

وأرزاق أبي الفرج من هذه الحرف إنما تجيئه من أبي محمد المهلبي وكان المهلبي هذا دنيا أبي الفرج في ظله يرعى وفي كنفه يعيش وكان المهلبي هذا هو الشخص الذي قد فرض على أبي الفرج أن يسمع بأذنه ويبصر بعينه ويقص من الأخبار والنوادر ما يريد .

لقد كان أبو الفرج نديما ومهنة الندماء تفرض عليهم أن يقصوا من الأخبار ما يلهي السامع ويطرب الحاضرين وهل يستطيع أبو الفرج أن يقص في مجالس اللهو والطرب إلا ما يتفق والكاس والطاس وإلا ما يلذ الشاربين؟

ومرة ثانية نحس أن مزاج المهلبي وصحبه هو الذي يتحكم في قصص أبي الفرج وأخباره وهو الذي يملي ألوانا بعينها تتلاءم والتيار السلوكي الذي يسود هذه الجماعة التي كان من أعضائها قضاة الشرع وحملة كتاب الله الكريم .

ولعل هذا التسلط يظهر أكثر وأكثر حينما نعرف أن الجوائز التي تمنح لأبي الفرج الشاعر إنما كانت تصدر هي أيضا عن هؤلاء الذين يصاحبهم المهلبي من أمثال القاضي التنوخي وعنه هو بصفة خاصة وهذا هو الأمر الذي نص عليه صاحب اليتيمة حين قال « وكان منقطعا إلى المهلبي الوزير كثير المدح له مختصا به [٣] ». ويظهر أن المهلبي كان يمنح أبا الفرج عن سعة في المنح حتى ليقول صاحب نشوار المحاضرة رواية عن أبيه « ورأيته أنا غير مرة قد وهب للجهني وأبي الفرج الأصفهاني خمسة آلاف دينار [٤] ».

---

(١) ١٣/١٠٥ معجم الأدباء (٢) ٩٠ الفهرست. ط. مصر
(٣) ٢/٣٧٨ اليتيمة. ط. دمشق (٤) ١/٤٢ نشوة المحاضرة. ط. هندية.

وشعر أبي الفرج يصور لنا هذه الحالات . وإنا لنشعر أن أبا الفرج يريد فى شعره أن يحمل الوزير المهلبي كل تكاليف الحياة .

يقول أبو الفرج مرة يستميح المهلبي :

فداؤك نفسي هـــذا الشتا ء علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبي درهم ولا من ثيـــابي إلا رمم
يؤثر فيهـــا نسيم الهوا ء وتخرقها خافيات الوهم
وأنت العماد ونحن العفـــا ة وأنت الرئيس ونحن الخدم [1]

وغير هذه كثير [2] مما يدل على أن المهلبي ببغداد كان دنيا أبي الفرج . وإذا كان من مذهب الرجل أن يرضى المانحين وإذا كان من حظ الندماء العمل على قص ما يرضى الشرب كان علينا أن نفسر عوامل الاختيار فى كتب أبي الفرج بالأجواء التي تحيط بالرجل . ولم تكن إلا جو المهلبي بعد أن التقيا واصطحبا .

هذه هي الحياة المادية عند أبي الفرج مظهرها ومصادرها . وهذا هو مذهب الرجل فى الربط بين العلم والمال وإنه كان يتحسس رغبات المانحين ويعمل على إرضائهم . يجب أن تكون على ذكر منها فى كل خطوة نخطوها عند تقديرنا لأبي الفرج الراوية .

---

(١) ٢/٢٨٠ اليتيمة .
(٢) ١٣٥ ، ١٣/١٣٦ معجم الأدباء . ط . رفاعي

الفصل الخامس

الحياة الاعتقادية والمذهبية

فى نص من نصوص ابن النديم وعند حديثه عن محمد بن يحيى الصولى نجد هذا الخبر « وتوفى مستترا بالبصرة لأنه روى خبرا فى على عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله [1] » .

وفى نص من نصوص مسكويه وعند حديثه عن أحداث سنة عشر وثلاثمائة نجد هذا الخبر « وفيها توفى محمد بن جرير الطبرى له نحو تسعين سنة ودفن ليلا لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارا وادعت عليه الرفض ثم ادعت عليه الإلحاد [2] » .

هذان الخبران لهما قيمتهما من حيث تصويرهما لبعض حالات الضغط التى يعانيها العلماء وهو ضغط قد يقع من الحاكم كما يقع من المجتمع ولهما قيمتهما فى هذا الموقف بالذات لأن هذه الأحداث إنما ألمت بشيخين من شيوخ أبى الفرج وألمت بهما فى وقت لم تكن الدولة قد اعترفت فيه بعد لا بحق الفرد فى التفكير وإعلان رأيه فى صراحة فذلك حق لم يمانعه فيه مانع ولم يعترض عليه فيه معترض بل بحقه فى الحماية حمايته من الغوغاء وحمايته ممن يثيرون عليه الغوغاء من حاكمين أو محكومين فلم تكن حقوق الإنسان قد قررت ومن هنا كان الأمر موكولا إلى العلماء إن شاءوا أعلنوا آراءهم فى حرية وصراحة وعليهم وحدهم تقع التبعة وإن شاءوا لفوا ودارووا أو نافقوا وتملقوا .

هذان الشيخان وابن جرير منهما بصفة خاصة من طراز فريد فى بابه فهو رجل يؤمن بحقه فى الحرية ولا يريد أن يجعل لأحد عليه من سبيل . رجل يباعد بين علمه وبين سلطان المادة ويباعد بين علمه وبين سلطان الحاكم

---

(١) ٢١٥ الفهرست لابن النديم . (٢) ٥/٨٤ تجارب الأمم . التمدن سنة ١٩١٤م

أو ضغط المجتمع وهو رجل يكفى نفسه بنفسه يحيثه رزقه من ماله الخاص ومن هنا كان يملى ما يريد ومن هنا كان له مذهبه الخاص وله الكثيرون من الأنصار والأعوان [١] . ويظهر أن ابن جرير كان فى صراع دائم . صراع لحقه من الحنابلة منذ أن حضر إلى بغداد .[٢] وظل هذا الصراع يلاحقه إلى أن حضرته الوفاة .

ونحن لا نريد فى هذا الموقف أكثر من أن نتبين موقف أبى الفرج من أمثال هذه الأزمات لنقدر أثرها فى مروياته ولنعلم فى يقين إلى أى حد كان ينحرف هذا الرواية عن الطريق المستقيم . وسنقصر حديثنا فى هذه الفقرة عن لونين من الأزمات . اللون الدينى . واللون السياسى . ولسنا فى حاجة إلى أن ندل على الأسباب التى دفعتنا إلى أن نجمع بينهما فى فقرة فكلنا يعلم أن الدين لم يكن قد انفصل بعد عن الدولة . وكلنا يعلم أن المبادىء السياسية أو المبادىء الاقتصادية لم تكن قد انفردت بعد بالميدان تصدر عنها النظم ويحتكم إليها الحاكمون والمحكومون حين يزلزل النظام وتضطرب الجماعة أو حين يؤذن الحال بالانقلابات والثورات .

كأن الدين كل شىء وكانت القيم الاجتماعية على اختلاف ألوانها من سياسية واقتصادية وخلقية تصدر عنه أو تربط نفسها به وكان الثائرون من أفراد المجتمع وكان المستبدون من الحكام إنما يصدرون فى كل هذا عن أفكار وآراء يعلنون ويؤكدون فى الاعلان أنها من الدين وأنها ما يريده الشارع الحكيم ومن هنا كان منا الربط بين اللونين وكان جمعنا بينهما فى فقرة واحدة .

كان أبو الفرج من الشيعة والتشيع مذهب دينى وسياسى فى وقت معا وكان أبو الفرج من الشيعة الزيدية ينص على ذلك المؤرخون من أمثال

---

(١) ٣٢٧ ، ٣٢٨ الفهرس (٢) ٥٧ ، ١٨/٥٨ معجم الأدباء

الطوسى [١] وصاحب الذريعة [٢] . كما يذكر ذلك أبو الفرج نفسه حين يقول متغزلا .

أنت ياذا الخال فى الـ ... ـوجنة مما بى خالى
لا تبالى بى ولا تخـ ... ـطرنى منك ببال
لا ولا تفكر فى حا ... لى وقد تعرف حالى
أنا فى الناس أما مـ ... ـى وفى حبك [٣] غالى

هذا التشيع من أبى الفرج أو بعبارة أدل على المراد من أموى كان مبعث الدهشة والاستغراب ومثار النقد والتعليق فابن الأثير يذكر عنه وهو يقص أحداث سنة ست وخمسين وثلاثمائة ما يلى « وفيها توفى أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصبهانى الأموى وهو من ولد محمد بن مروان بن الحكم الأموى وكان شيعيا وهذا من العجب [٤] » . وصاحب روضات الجنات يقول ، وأياما وجد فى كلماته من المديح ففيه أولا أنه غير صريح . ولو سلم فهو محمول على قصده التقرب إلى أبواب ملوك ذلك العصر المظهرين لولاية أهل البيت غالبا والطمع فى جوائزهم العظيمة بالنسبة إلى مادحيهم كما هو شأن كثير من شعراء ذلك الزمان فأن الانسان عبيد الاحسان . مع أنى تصفحت كتاب أغانيه المذكور اجمالا فلم أر فيه إلا هزلا أو ضلالا أو بقصص أصحاب الملاهى اشتغالا وعن علوم أهل بيت الرسالة اعتزالا وهو فيما ينيف على ثمانين ألف بيت تقريبا . مصافا إلى كون الرجل من الشجرة الملعونة فى القرآن وداخلا فى سلسلة بنى أمية وآل مروان فكيف يمكن وجود رجل من أهالى الأيمان فى قوم توجه إلى قاطبتهم الألعان على أى لسان ومن أى إنسان [٥] » .

---

(١) ٣٧٩ الفهرست للطوسى . ط . كلكتا سنة ١٨٥٣م
(٢) ٢٤٩ الذريعة إلى تصانيف الشيعة . ط . النجف سنة ١٣٥٦هـ
(٣) ٢/٢٨٣ اليتيمة . ط . دمشق .
(٤) ٨/٢٠٩ ابن الأثير
(٥) ٤٧٨ روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات . ط . العجم سنة ١٢٨٧هـ

ونحن لايحق لنا أن نستغرب تشيع أبى الفرج فضلا عن استنكاره لاسيما بعد أن علمنا أنه قد ورث هذا التشيع عن أسرة أمه وأن هذه الأسرة كانت من الرافضة أو من الزيدية كما كان أبو الفرج وأنها استهدفت للاضطهاد بسبب هذه المذهبيات وبعد أن عرفنا أن هذا الميل الموروث قد قوى واشتد بفعل عاملين مهمين : أولهما تلك الصداقة التى قامت بين الأعداء القدماء من العلويين والأمويين وذلك بسبب الموقف الذى تقفه كل أسرة منهما من خلفاء بنى العباس وقد كان محمد بن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج قطبا من الأقطاب الذين يزورهم العلويون ويتناقشون فى مسائلهم أو فى مواقفهم فى بيته كما سبق أن ذكرنا .

وثانيهما تلك التربة الكوفية التى قام عليها رجال من الشيعة بل رجال من غلاة الشيعة كأحمد بن محمد بن سعيد عقده . ذلك الذى كان يملى فى مثالب الصحابة .[1] .

لايحق لنا أن نستغرب وأن نستنكر وانما يحق لنا فقط أن نبحث عن مدى إيمان أبى الفرج بهذا المذهب فهل كان هذا الايمان قويا عنيفا بحيث يدفع أبا الفرج إلى الاستهداف فى سبيله مهما ينل من أذى الخلفاء والحكام أو كان ضعيفا بحيث لا يدفع أبا الفرج إلى أى شىء . وليس له من الأيمان بهذا المذهب إلا الاسم فقط . ؟

إن الاجابة عن هـــذه المسألة من الضرورة بحيث لا يمكننا تفسير مرويات أبى الفرج لاسيما فى كتابه المقاتل إلا بعد الوقوف عليها . ذلك لأنها التى ستكشف لنا عن موقف أبى الفرج كشفاً يفسر لنا مافى هـذه المرويات من ميل أو انحراف عن الجادة .

ولقد ألف أبو الفرج كتاب المقاتل وهو كتاب قد صدر عن نزعة

---

(١) ٦٨ الرجال للنجاشى . ط . فارس سنة ١٣١٧هـ

شيعية مافى ذلك ريب . ولقد روى أبو الفرج عن الطالبيين أخباراً فى كتاب الأغانى كما روى عن المتشيعين كثيراً من الأخبار بل يذهب الطوسى إلى ما هو أبعد من هذا فيذكر لنا أن أبا الفرج قد ألف كتاب ما نزل من القرآن فى أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام . كما ألف كتابا آخر فيه كلام فاطمة عليها السلام فى فدك [١] . وهذه كتب شيعية بموضوعاتها ولا تصدر إلا عن نزعة شيعية كما هو الواضح ولكننا مع كل هذا نخشى أن نخدع حين نمضى من غير أن نعرف مدى تلك العواطف التى يكنها أبو الفرج للتشيع وللشيعيين أو بعبارة أخرى دون أن نعرف هل كان أبو الفرج يصدر فى ذلك عن تدين أو عن علم بالدين ،ذلك لأنا نعرف أن هناك فرقا واضحا بين المتدين وبين العالم بالدين وأن الذى يؤلف فى المسائل الدينية إنما يصدر أولا وقبل كل شىء عن علم ومعرفة عن عقل ضابط وذاكرة واعية عن بصر بمسائل الدين وقضاياه وليس من اللازم أن يصدر عن عاطفة قوية وعن قلب يخفق لعقيدة دينية تكون هى الفصل فى التفرقة بين الحق والباطل وتكون هى المتحكمة فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل وليس يضيره عند ذلك أن يستثير الجماعة أو يغضب الحاكمين مادام قد صدر عن هذه العاطفة وقد أرضى هذا الضمير الدينى .

التدين عاطفة قوية نحو المعانى الدينية والعلم بالدين علم بمسائله وقضاياه وهو أمر قد فطنت إليه العامة يوم أن جعلت إبليس أعلم العالمين .

إن التدين أو أن هذه العواطف القوية هى التى يقدر تأثيرها يوم أن يكتب صاحبها فى المسائل التى تخص هذا الدين أو تخص هذا المذهب من الدين ذلك لأنها قد تدفع المؤلف إلى إخفاء أو إعلان أو إلى تزيد أو نقصان كما تدفعه إلى أن ينساق فيجرى وراء المرويات التى تجىء عن أبناء هذا المذهب أو هذا الدين فيختارها على غيرها ويفضلها عن سواها لأنه يراها

---

(١) ٣٧٩ الفهرست . للطوسى

بعين العقيدة ويقدرها بضمير المحب المنقاد .

لكن هذه العواطف التى يخشى تأثيرها قد تعود فيحمد نفعها ذلك لأنها السياج القوى الذى يحمى الحقيقة من عبث العابثين أو كيد الكائدين وتدفع صاحبها إلى الصمود فى وجه الجماهير .

علينا أن نتبين موقف أبى الفرج بوضوح لنقدر مروياته فى حذر ويقظة وفى عدل وإنصاف .

لم يكن أبو الفرج بالرجل المتزمت وإنما كان من اللاهين العابثين ذلك هو الأمر الذى يدل عليه شعره ويدل عليه نثره وبفسره صحبته للقوم الماجنين .

كان أبو الفرج يشرب الخمر ويحب الغلمان ويحيا حياة المستهترين ويصف مجالسه تلك شعراً مرة ونثراً أخرى فيقول من أبيات له :

وبكر شربناها على الورد بكرة ... فكانت لنا وردا إلى ضحوة الغد
إذا قام مبيض اللباس يديرها ... توهمته يسعى بكم مورد[1]

ويصور حالة من حالاته مع بعض الغلمان وكان قد عتب عليه أمرأ أدى إلى ما يشبه القطيعة ثم لعبت الظروف لعبتها وذهب الغلام إلى أبى الفرج فى منزله وذلك حيث يقول « فأنا على غفلة إذ دخل فى خف وإزار وكادت مرارتى تنفطر فرحا فلقيته أقبل رجليه وهو يضحك ويقول يأتيها رزقها وهى نائمة هذا يا حبيبى بخت من لا يصوم ولا يصلى فى الحقيقة . . . » إلى أن يقول :

بت وبات الحبيب ندمانى ... من بعد نأى وطول هجران
نشرب قفصية معتقـــة ... بحانة الشط منذ أزمان
وكلما دارت الكؤوس لنـا ... ألثمنى فاه ثم غنـــانى
الحمـــد لله لا شريك له ... أطاعنى الدهر بعد عصيان[2]

(١) ٢/٢٨١ اليتيمة . دمشق
(٢) ١١٧ـ١٢١/١٣ معجم الأدباء . رفاعى

ويضيق أبو الفرج برمضان لأنه يمنعه عن اللهو والعبث وعما يستتبعه اللهو والعبث من شراب فيقول :

وقد جاء شوال فسالت نعامة الـــ
ـــصيام وأبدلنا النعيم من الضر
وضجت حبيس الدن من طول حبسها
ولامت على طول التجنب والهجر[1]

أبو الفرج على ما يظهر غير متحفظ وأبو الفرج فيما رأينا مستهتر ومن هنا لا تجيئه الأزمات إلا عفواً واقتداراً أن قدر للأزمات أن تجيء ذلك لأن العواطف القوية هى المحرك فى مثل هذه الأمور وهى التى تدفع صاحبها إلى ألا يخشى غضب الحاكم أو ثورة الجماهير وأبو الفرج لم يكن من ذلك فى شىء ومن هنا خلت حياته من الأزمات وخلا تاريخه من الذكريات .

أبو الفرج صاحب ثقافة شيعية وقف التشيع منه فيما أرى عند حد العقل والذاكرة ومن هنا سخر هو نفسه فى بعض الأحيان من الشيعيين . يقول التنوخى . أخبرنى أبو الفرج الأصبهانى قال: سمعت رجلا من القطيعة يؤذن الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن عليا ولى الله محمد وعلى خيرا البشر فمن أبى فقد كفر ومن رضى فقد شكر ضرطت هند على ابن عمر حى على الصلاح حى على الفلاح حى على خير العمل الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله[2]

وأبو الفرج يملى عن الحياة الشيعية أول عهده بالإملاء وهو فتى غض الاهاب فاذا ما كبر كتب فى الأغانى وفى الأدب العابث اللاهى أو الماجن المستهتر .

وأبو الفرج يكتب فى وقت أخذ فيه نفوذ الشيعيين يقوى ويضخم حتى كان الرؤساء فى ذلك الوقت من الشيعيين وحتى أصبحت الدويلات

(١) ١٣٢ ، ١٣٣ المصدر السابق
(٢) ١/١٧٤ نشوار المحاضرة . ط . هندية

ثم الدول فيما بعد تدين بالمذهب الشيعى كما هو الحال بالنسبة للبويهيين والحمدانيين ومن هنا لم يغضب أبو الفرج أحداً ولم يغضب هو من أحد من الرؤساء والحاكمين .

هذا هو موقف أبى الفرج الدينى والمذهبى أو موقفه من التشيع والشيعيين أما موقفه من السياسة والسياسيين فيتلخص فيما يلى

لم يكن موقف أبى الفرج من خلفاء بنى العباس إلا موقف العداء ولا نعتقد أن أبا الفرج كان يصدر فى عدائه هذا عن رأى فى الحكم ومذهب فى السياسة فلم يكن أبو الفرج من ذلك فى شىء وليس أدل على هذا من أنه قد عاصر أخطر الأزمات التى مرت بها الخلافة العباسية وشاهد انحلال الدولة وقيام الدويلات ورأى بعينه كيف ذهبت سلطة الخلفاء وحلت محلها هيبة الأمراء وكيف أن هؤلاء كانوا يفرضون ما يريدون من أمر على خلفاء بنى العباس [١] .

رأى أبو الفرج بعينى رأسه كل هذا ووعى هذه الأحداث كما وعاها غيره من المعاصرين من أمثال مسكويه مثلا ولكنه لم يترك لنا صوراً فنية عن شىء من هذا اللهم إلا تلك الصورة التى رأيناها فيما مضى والتى فسرناها بأنها صورة من صور الكيد للبريدى والنكاية به وليست الصورة التى يراد منها النيل من الراضى لأنه باعتباره من الخلفاء العباسيين الذين يضيق بهم أبو الفرج ولا يرضى عن مسلكهم فى الحكم أو مذهبهم فى السياسة قد قلد البريدى الوزارة ليستعين به على قضاء مآربه وتنفيذ أغراضه .

أن أبا الفرج إنما يصدر فى هذا العداء عن عاملين مهمين عصبية أموية وتشيع علوى أو بعبارة أخرى أخصر وأدق إنما تصدر عن جو عائلى يلقنه هذه العداوة ويبث فى نفسه شيئاً غير قليل من الكراهية . فقد كان أبو الفرج

---

(١) ٨٤ ـ ٦/٨٧ مسكويه . التمدن سنة ١٩١٥

أحد أفراد الأسرة الاموية والعداء بين أمية وهاشم قديم ثم جاء الاسلام بأحداثه وكانت مواقف أبى سفيان من النبى علية السلام وعثمان من على رضى الله عنهما ثم كانت أحداث معاوية والعلويين وأحداث انحلال الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية وما صحب هذا القيام من مصادرة للأموال وازهاق للأرواح وظلم واضطهاد ظلت صورة قائمة حتى كان عصر أبى الفرج وكل هذه من الاحداث التى يقصها الآباء على الابناء والتى يصورونها بالصورة التى تزيد من العداء وتنمى من الكراهية . وقد كان أبو الفرج من أم شيعية تكره العباسيين الذين يذيقون الطالبيين ألوانا من العذاب وصنوفا من الحبس والقتل ومن هنا نشأ وفى نفسه العداوة والكراهية . ولم يستطيع أبو الفرج اظهار هذا العداء فى صراحة قوة لأن مركزه ومركز العائلة أضعف من أن يمكنه من هذا الاظهار ومن هنا احتفظ بسره وكتم عواطفه وحال بينها وبين الظهور الا فى الفلتات التى يمثلها حديثه عن ابن الرومى الشاعر عند روايته لقصيدته التى يرثى بها يحيى بن عمر بن الحسين القتيل الطالبى والتى مطلعها .

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

فانا نراه يقدم بين يدى هذه القصيدة بقوله عن المراثى التى قيلت فى يحيى « فمنه قول على بن العباس الرومى يرثيه وهى من مختار مارثى به بل أن قلت أنها عين ذلك والمنظور إليه لم أكن مبعدا لولا أنه أفسدها بأن جاوز الحد وأغرق فى النزع وتعدى المقدار بسبب مواليه من بنى العباس وقوله فيهم من الباطل مالا يجوز لأحد أن يقوله [1] » .

هذه العاطفة المكتومة التى لاتستطيع أن تفصح عن نفسها فى صراحة وقوة لابد لها من مسارب ولو خفية تكون المتنفس الوحيد لأصحابها ولن نستطيع أن نقطع برأى فى هذه المسارب ولا أن نقول أن منها تأليف

---

(١) ٦٤٦ مقاتل الطالبيين . ط . مصر

أبي الفرج فى مقاتل الطالبيين وأن منها عنايته بالأخبار العابثة والأحداث اللاهية من حياة خلفاء بنى العباس فان لذلك أسبابا أخرى تقوم إلى جانب هذه العداوة المكتومة التى تحاول أن تفصح عن نفسها بهذا اللون من الأخبار وكل مانستطيع قوله فى هذه المسائل هو أنه يجب علينا أن نكون حذرين حينما نقرأ أمثال هذه الأخبار وأن نضع نصب أعيننا دائما جواز أن يكون الدافع لأبى الفرج هو محاولة الكيد للعباسيين من طريق خفى حتى لا يشعر به القارىء ولا يشعر به المحبون لبنى العباس .

وهنا يجب أن نفطن إلى أمر آخر له أثره الخطير فى حياة المرويات من نفس أبى الفرج ثم فى التاريخ العام ذلك الأمر هو أن أبا الفرج وقد أحس فى نفسه امتزاجا وائتلافا بين الأموية والتشيع أو بين الامويين والطالبيين لم ير بأسا فى أن يكون هذا من الواقعات التاريخية ومن هنا نراه يروى من الاخبار ما يؤكد قوة الصلة وحسن الجوار بين الطالبيين والأمويين . بل يروى ما يحاول أن يثبت به أن الأمويين كانوا أرأف وأرحم بالطالبيين من أبناء عمومتهم خلفاء بنى العباس .

يروى أبو الفرج فى كتاب المقاتل مرويات عن مروان بن محمد تثبت حرص هذا الخليفة على ألا ينال عبدالله بن الحسن أوابنه محمدا أى أذى من واحد من الولاه [١] كما يروى ما يحاول أن يدل به على أن مروان هذا كان يعلم أن الأمر لن يكون للطالبين وانما سيكون لبنى العباس [٢].

ويروى أبو الفرج فى كتاب المقاتل أيضا ما يثبت أن موقف معاوية بن سفيان من الزيديين والطالبيين كان خيرا من موقف الرشيد منهم فمعاوية أميل إلى العلويين والرشيد أميل إلى اليزيديين [٣] .

ويرى أبو الفرج ما يدل على اعتراف الطالبيين أنفسهم بهذه المسائل . جاء فى الأغانى(وأخبرنى أحمد بن محمد بن سعيد وحرمى عن الزبير وأخبرنى

---

(١) ٢٥٩ مقاتل الطالبيين . ط . مصر (٢) ٢٤٧ ، ٢٥٨ المصدر السابق
(٣) ٤٧٤ ، ٤٧٥ المصدر السابق

الأخفش عن المبرد عن المغيرة بن محمد المهلبي عن الزبير عن سليمان بن عياش السعدي قال : جاء عبدالله بن عمر بن عبدالله العقيلي إلى سويقة وهو طريد بني العباس وذلك بعقب أيام بني أمية وابتداء خروج ملكهم إلى بني العباس فقصده عبد الله والحسن أبناء الحسن بسويقة فاستنشده عبد الله شيئاً من شعره فأنشده فقال له أريد أن تنشدني شيئاً مما رثيت به قومك فأنشده :

تقول أمامة لمـــا رأت ... نشوزي عن المضجع الآنفس
وقـــلة نومي على مضجعي ... لدى هجمه الأعين النعس
أبى ما عراك فقلت الهموم ... منعن أباك فلا تبلسي

قال فلما أتى عليها بكى محمد بن عبد الله بن حسن فقال له عمه الحسن بن حسن بن علي عليهما السلام أتبكي على بني أمية وأنت تريد بني العباس ما تريد فقال والله يا عم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم وأن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر فوثب حسن وقال أعوذ بالله من شرك وبعث إلى أبي عدي بخمسين ديناراً . . .)[1]

هذه المرويات وأمثالها لا تقبل عن الشيعيين في سهولة ويسر لا سيما أولئك الذين يعتقدون أن أبا الفرج من الشجرة الملعونة في القرآن وأنه من بني أمية الذين يلعنون في كل مكان وعلى كل لسان ومن هنا يجب أن نحذر عند قراءتنا لأمثال هذه المرويات فمن الحائز أن يكون أبو الفرج قد خدع وأن سبب الخداع أن حالته النفسية وما فيه من عناصر شيعية وأموية هي التي يسرت عليه كل هذا .

وليس لدينا عن موقف أبي الفرج السياسي من حيث اتصاله بما يرويه من أخبار غير ما تقدم ومن هنا نترك الموقف إلى موقف آخر هو .

الحياة الخلقية عند أبي الفرج

(١) ١٠٠ ، ١٠١/١٠ أغاني . ساسي

الفصل السادس

الحياة الخلقية

يقول ابن الجوزى فى ترجمته لأبى الفرج « وكان يتشيع ومثله لا يوثق برواياته فانه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهون شرب الخمر وربما حكى ذلك عن نفسه »[1] وهو قول يضع بين أيدينا مسألتين للتفكير فيهما . الأولى مسألة التيارات الخلقية فى حياة أبى الفرج وما يتبع هذه التيارات من أجواء نفسية أو من أهواء خاصة ونزعات معينة .

الثانية — صلة هذه التيارات بمرويات أبى الفرج من حيث الثقة بها والاطمئنان إليها والاعتماد عليها فى ميدان البحث العلمى حينما نحاول تقدير المرويات أو تقويم الآراء .

والتيارات الخلقية من حياة أبى الفرج تتفق وما أجمله صاحب المنتظم ومن هنا لن نختلف وإياه فى شىء لا سيما وقد عرفنا الكثير مما يتصل بهذه التيارات من أن أبا الفرج لم يكن بالمتدين ومن أن الأجواء التى كان يعيش فيها من جو أستاذه وصديقه جحظه إلى جو المهلبى ومن لف لفه من رجال الدين من أمثال القاضى الأيذجى والقاضى التنوخى أولئك الذين يحيون حياتين . ظاهر فيه الطهر والعفاف وباطن فيه الفسق والفجور كانت على ما رأينا أجواء فاجرة داعرة وأنها تدفعنا إلى التسليم بأن أبا الفرج كان من الذين يتخلعون ويتهتكون من الذين يشربون الخمر ويأتون الذكران من العالمين .

وأبو الفرج فى عرف المؤرخين حديد سريع الغضب بذىء اللسان يغضب لأتفه الأشياء ويضيق من أيسر الأمور ويطلق لسانه فيمن يستثيره منه

---

(١) ٦/٣٤٠ المنتظم . مصورة ١٢٩٦ تاريخ . دار الكتب

الغضب حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الأصدقاء ولذا نراه يهجو صديقه القاضى الأيذجى لأنه طلب منه عكازه فمنعها عنه . يهجوه أقبح الهجاء ويرميه بأنذل الصفات يرميه بالأبنة .

اسمع حديثى تسمع قصة عجبا ... لا شىء أظرف منها تبهر القصصا
طلبت عكازة للوحل تحملنى ... ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكنت أحسبه يهوى عصا عصب ... ولم أكن خلته ضبا بكل عصا[1]

كما نراه يسخر من أبى القاسم الجهنى محتسب البصرة لأنه يقص من الحكايات ويورد من الأخبار المسلية ما هو من المبالغات . فقد ذكر ابن الصابى أن أبا القاسم الجهنى محتسب البصرة كان من ندماء المهلبى وكان يورد الطامات من الحكايات المنكرة فجرى مرة حديث النعنع فقال فى البلد الفلانى يطول حتى يصير شجراً أو يعمل من شجره سلالم . فاغتاظ أبو الفرج الأصبهانى من ذلك وقال نعم عجائب الدنيا كثيرة ولا يدفع مثل هذا وليس بمستبدع وعندى ماهو أعجب وأغرب وهو زوج حمام راعى ببيض فى نيف وعشرين يوما بيضتين فانتزعها من تحته وأضع مكانهما صنجة مائة وصنجة خمسين فاذا انتهى مدة الحضان تفقست الصنجتان عن طست وأبريق أو سطل وكرنيب فعمنا الضحك وفطن الجهنى لما قصده أبو الفرج من الطنز به وانقبض عن كثير مما كان يحكيه[2] .

وبذاءة اللسان من أبى الفرج جعلت الناس يتحاشونه ويخشون لسانه[3] وأنهم ليذكرون لنا أنه لم يسلم أحد من هجائه حتى الوزير المهلبى . فقد ذكر ياقوت ما يلى . وعلى صنع أبى محمد بأبى الفرج ما كان يصنعه فما خلا من هجوه حيث قال فيه :

أبعين مفتقر إليك رأيتنى ... بعد الغنى فرميت بى من حالق

---

(١) ١٣/١٣٤ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٢) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام الكبير للذهبى . مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب .
(٣) المصدر السابق

لست الملوم أنا الملوم لأننى أملت للإحسان غير الخالق[1]

بل يروى ياقوت من الأخبار ما يفيد أن المهلبى كان يعلم هذه العادة الخلقية من أمر أبى الفرج فقد جاء فى معجم الأدباء ما يلى وحدث أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانى قال سكر الوزير أبو محمد المهلبى ليلة ولم يبق بحضرته من ندمائه غيرى فقال لى يا أبا الفرج أنا أعلم أنك تهجونى سراً فاهجنى الساعة جهراً فقلت الله الله أيها الوزير إن كنت قد مللتنى انقطعت وإن كنت تؤثر قتلى فبالسيف إذا شئت . قال دع ذا لا بد أن تهجونى . وكنت قد سكرت فقلت . . . إلخ[2] ،

ولعل حدة الطبع وبذاءة اللسان هما السبب فيما يذهب إليه النقاد من أن أبا الفرج كان مجيداً فى فن الهجاء .

وأبو الفرج فى عرف المؤرخين أيضا من القذارة بمكان فهو وسخ قذر دنس فى نفسه وفى ثيابه[3] . ولعله من هنا كان بذىء اللسان لا يتورع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ولعل هذه الصفات قد لازمته منذ الصغر بل لعلها أن تكون أثراً من آثار استاذيه القذرين أحمد بن جعفر جحظه وإبراهيم بن محمد عرفه .

وأبو الفرج أيضا غريب الأطوار والعادات فيما يقص من شأنه صديقه التنوخى فقد قال ، ومن ظريف أخبار العادات أنى كنت أرى أبا الفرج على بن الحسين الأصفهانى الكاتب نديم أبى محمد المهلبى صاحب الكتب المصنفة فى الأغانى والقيان وغير ذلك . دائما إذا ثقل الطعام فى معدته وكان أكولا نهما يتناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقا فلا تؤذيه ولا تدمعه وأراه يأكل حصة واحدة أو يصطبغ بمرقه قدر فيها حمص فيسرهج بدنه كله من ذلك وبعد ساعة أو ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفعتين وأسأله عن سبب

---

(١) ١٠٣ ، ١٣/١٠٤ معجم الأدباء

(٢) ١٠٨ ، ١٠٩ معجم الأدباء .

(٣) لوحة ٩٠٢٧٦ تاريخ الاسلام للذهبى

ذلك فلا يكون عنده علم منه . . . »[1] ولعل لهذه المسألة أثرها فى حدة الطبع وسرعة الغضب وعدم ضبط أبى الفرج لنفسه عندما يستثار حتى ولو كان الذى استثاره من أعز الأصدقاء وأوفى الخلطاء من أمثال الجهنى والمهلبى والأيذجى .

وأبو الفرج يصور لنا جوانب من حياته فى كتابه آداب الغرباء ولعل فيما نقله ياقوت عن هذا الكتاب مايكفى لإعطاء فكره عن التيارات الخلقية من حياة أبى الفرج كما رسمها هو ونبدأ من ذلك بحديثه عن ذلك الغلام الذى كان يهواه والذى كان له معه مكاتبات ومعاتبات فأنا نراه يقول « إننى جئته يوم جمعه غدوه فوجدته قد ركب إلى الحلبة وكانت عادته أن يركب إليها فى كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة فجلست على دكة على دار أبيه فى موضع فسيح كان عمرها وفرشها فكنا نجلس عليها للمحادثة إلى ارتفاع النهار ثم يدخل إذا أقمت عنده إلى حجرة لطيفة كانت مفردة له فنجتمع على الشرب والشطرنج وما أشبههما فطال جلوسى فى ذلك اليوم منتظراً له فأبطأ وتصبح من أجل رهان كان بين فرسين لبختيار فعرض لى لقاء صديق فقمت لأمضى ثم أعود إليه فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنا نستند إليه هذه الأبيات :

يامن أظل ببـاب داره	ويطول حبسى لانتظـاره
وحياة طرفك واحورارة	وجمال صدغك فى مداره
لاحلت عمرى عن هوا	ك ولو صليت بحر ناره

وقمت فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لئلا يقف عليه من يحتشمه وكان شديد الكتمان لما بينى وبينه ومطالبا بمثل ذلك مراقبة لأبيه إلا أن ظرفه ووكيد محبته لى وميله إلىّ لم يدعه حتى أجاب عنها بما كتب تحتها . ورجعت من ساعتى فوجدته فى دار أبيه فاستأذنت عليه فخرج إلى خادم

(١) ١٠٧ ، ١٣/١٠٨ معجم الأدباء

لهم فقال يقول لك لا التقينا حتى تقف على الجواب عن الأبيات فإنه تحتها فصعدت الدكة فاذا تحت الأبيات بخطه . ما هذه الشناعة ؟ ومن فسح لك فى هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة ؟ ولكن أنا جنيت على نفسى وعليك ملكتك فطغيت وأطعتك فتعديت وما أحتشم أن أقول: هذا تعرض للأعراض عنك والسلام . فعلمت أننى قد أخطأت وسقطت شهد الله قوتى وحركتى فأخذتنى الندامة والحيرة ثم أذن لى فدخلت فقبلت يده فمنعنى . وقلت يا سيدى غلطة غلطتها وهفوة هفوتها فان لم تتجاوز عنها وتعف هلكت فقال لى أنت فى أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت وعاتبنى على ذلك عتاباً عرفت صحته ولم تمض إلا مد يده حتى قبض على أبيه وهرب فاحتاج إلى الاستتار فلم يأنس هو وأهله إلا بكونه عندى فأنا على غفلة إذ دخل فى خف وإزار وكادت مرارتى تنفطر فرحا فلقيته أقبل رجليه وهو يضحك . . . وبتنافى تلك الليلة عروسين لا نعقل سكراً واصطبحنا وقلت هذه الأبيات . .)[1] .

وهو قول يدل على شغف أبى الفرج بالغلمان ولعله من أجل ذلك كان يلم بالأديرة وكان يشهد مجتمعات النصارى وأنا لنراه يصور ذلك أيضا حيث يقول :

« وخرجت أنا وأبو الفرج أحمد بن إبراهيم بن على بن عيسى رحمه الله ماضيين إلى دير الثعالب للنزهة ومشاهدة اجتماع النصارى هناك والشرب على نهر يزد جرد الذى يجرى على باب هذا الدير ومعه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تتمايل وتتثنى كغصن الريحان فى نسيم الشمال فضربت بيدها إلى يد أبى الفتح وقالت يا سيدى تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد فضينا معها وبنا من السرور بما رأينا بظرفها وملاحة منطقها ما الله به عليم فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع

(١) ١١٧ — ١٣/١٢١ معجم الأدباء

كأنه الفضة وأومأت إلى الموضع . . . وحصلت بينها وبين أبي الفتح عشرة بعد ذلك ثم خرج إلى الشام وتوفى بها ولا أعرف لها خبراً بعد ذلك[1] . .

هذه التيارات الخليعة التى يرسمها أبو الفرج لنفسه تخلق دائما جوا نفسيا معينا يلذ له أنواع من الأخبار ويطربه ألوان من الأقاصيص ومن هنا تكون الصلة بين التيارات الخليعة وبين المرويات . وهنا يجب أن نقف للتفكير فى المسألة الثانية من مسائل صاحب المنتظم وهى عدم الثقة بمرويات أبى الفرج لأنه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق ولأنه يهون شرب الخمر وأنه ربما حكى ذلك عن نفسه .

هنا قد تختلف مع ابن الجوزى لأنا لا نؤمن بذلك المقياس الذى يقيس به الرواة ولن تكون سبيلنا إلى الثقة برواة الأدب والأخبار ألا يكونوا ممن تحدث عنهم صاحب المنتظم فهذه السبيل إن صلحت عند بعضهم فى رواية الحديث فانها لا تصلح بحال من الأحوال فى الرواية الأدبية ذلك لأن هؤلاء اللاهين العابثين يكونون أكثر فطنة وأشد حذراً حينما يروون أخبار الخلاعة والمجون فثقافتهم العلمية وخبرتهم بهذه الأجواء تجعلهم بأسرارها أدرى وبأحداثها أخبر ومن هنا تكون قدرتهم على النقد أتم والثقة بمروياتهم فى هذا أكمل . وإذا كان الحديث عن الثقة بالراوى له محله من الباب الثالث حيث يكون الحديث عن الضبط والعدالة فأنا سننصرف إلى أمر آخر له صلة به ويتأثر أيضا بالتيارات الخلقية أو بالأهواء والنزعات ذلك هو اختيار المرويات وتفضيل بعضها عن بعض . فلماذا مثلا اختار أبو الفرج الجوانب اللاهية العابثة من حياة الخلفاء ومن حياة المغنين والشعراء ؟ وهل صدر فى ذلك عن هوى ومزاج ورغبة فنية . أو صدر فى ذلك عن أمور أخرى من أمثال الكيد السياسى . أو لأنه هكذا كانت حياة هؤلاء الناس ؟

إن الكيد السياسى أن صلح بالنسبة لخلفاء بنى العباس فانه لن يصلح

(١) ١١٣ — ١١٥ معجم الأدباء

بالنسبة لخلفاء بنى أمية من أمثال الوليد بن يزيد . كما أنه لا يصلح أن يكون التعليل الصادق لاختيار هذه الأخبار اللاهية من حياة الشعراء الشيعيين أولئك الذين يتفق أبو الفرج معهم فى المذهب السياسى ويحبهم لحبه آل على .

وأن كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم فى كتاب الأغانى وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يكونوا جميعا من اللاهين العابثين وإنما أبو الفرج هو الذى تتبع هذه الجوانب من حياتهم وحرص عليها لا لأنه يبشر بالعبث ويدعو إلى الفجور وإنما لما ذكرة هو فى مقدمة كتاب الأغانى من أن ما رتبناه أحلى وأحسن ليكون القارىء له بانتقاله من خبر إلى غيره ومن قصة إلى سواها ومن أخبار قديمة إلى محدثه ومليك إلى سوقة وجد إلى هزل أنشط لقراءته وأشهى لنصفح فنونه لاسيما والذى ضمناه إياه أحسن جنسه وصفو ما ألف فى بابه ولباب ما جمع فى معناه[1] .

أن أبا الفرج قد قصد إلى الهزل لعوامل نفسية وفنية وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية فلقد قص أبو الفرج من المصنوعات والأكاذيب قصصا وأخباراً ودل هو نفسه على بعضها وبرىء من العهدة فى بعضها الآخر ولم يفعل هذا إلا لأنه قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ وأنه قصد للرواية للامتاع والمؤانسة واختار من المرويات ما يجعل الخبر ألذ وأمتع والقصة أشهى وأحلى ليكون السمر اللذيذ ولتكون الندوة الفرحة المرحة . ومع هنا كانت أقاصيص اللهو والغرام وكانت أحاديث الكتاب والشعراء من الغلمان وكان بعضها واضح الدعابة خفيف الظل . حدث أبو الفرج قال أخبرنى محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثنا أحمد بن الهيثم ابن فراس قال حدثنى العمرى عن الهيثم بن عدى وأخبرنى به ابن أبى الأزهر عن حماد عن أبيه عن الهيثم بن عدى أن رجلا أنشد مصعب بن الزبير قول جميل .

(١) ١/٣ أغانى . ساسى

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتهـــا أم منظور

فقال لو ددت أنى عرفت كيف جلتها فقيل له أن أم منظور هذه حية . فكتب فى حملها إليه مكرمة . فحملت إليه فقال لها أخبرينى عن قول جميل .

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتهـــا أم منظور

كيف كانت هذه الجلوة ؟ قالت ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئا من الخلوف ومر بنا جميل راكبا على ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنا . فقال لها مصعب فانى أقسم عليك ألا جلوت عائشة بنت طلحة مثل ماجلوت بثينة . ففعلت . وركب مصعب ناقته وأقبل عليهما وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنهما ثم رجع[1] .

وحدث أيضا قال : أخبرنى عمى رحمه الله قال قال لى محمد بن موسى بن الحسين بن الفرات الكاتب كان سعيد بن حميد يهوى غلاما له من أولاد الموالى فغاب عنه مدة ثم جاءه مسلما فقال له غبت عنى هذه المدة ثم تجيئنى فلا تقيم عندى . فقال له قد أمسينا . فقال تبيت . قال لا والله لا أقدر ولم يزل به حتى اتفقا على أنه إذا سمع آذان العتمة انصرف فقال له قد رضيت ووضع النبيذ فجعل سعيد يحث السقى بالأرطال فلما قرب وقت العتمة أخذ رقعة فكتب فيها إلى أمام المسجد وهو مؤذنه قوله :

قل لداعى الفراق أخر قليلا قد قضينا حق الصلاة طويلا
أخر الوقت فى الآذان وقدم بعدها الوقت بكرة وأصيلا
فتراعى حق الفتـوة فينـــا وتعافى من أن تكون ثقيلا

فلما قرأ المؤذن الرقعة ضحك وكتب إليه يحلف أنه لا يؤذن ليلته تلك العتمة وجعل الفتى ينتظر الآذان حتى أمسى وسمع صوت الحارس فعلم أنها حيلة وقعت عليه وبات فى موضعه[2] .

---

(١) ٨٣ ، ٧/٨٤ أغانى . ساسى
(٢) ١٧/٣ المصدر السابق .

إنما قصد أبو الفرج من الأخبار إلى الرواية الأمر الذى سيزداد وضوحا عند حديثنا عن أبى الفرج وهل هو من الرواة أو من المؤرخين فى الفصل الأول من الباب الثالث إن شاء الله .

والآن نستطيع أن نقول أن مزاج أبى الفرج ومزاج الذين يحيطون به من ندماء المهلبى قد وضح فى اختيار بعض الجوانب من حيوات بعض الشعراء والمغنين والخلفاء وأن هذه الجوانب ما كانت إلا الخليعة الماجنة لتوافق هوى هؤلاء وتدخل السرور على أنفسهم وتكون مادة سمرهم وأحاديثهم ولعلها بذلك تصور أحلامهم أكثر مما تصور واقعهم وترضى خيالهم أكثر مما ترضى عقولهم . لعلها أن تكون للتنفيس لا للحقيقة والتاريخ وعند ذلك تكون قد أدت للإنسانية البغدادية خدمات جلى لأنها قد خففت بعض آلام المعذبين .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه التيارات الخلقية نشير إشارة عجلة إلى أن أهواء أبى الفرج نحو الأشخاص لها نفس الأثر الذى شعرنا به لأهوائه نحو هذه الألوان الخليعة من الحياة فأهواؤه نحو اسحق الموصلى جعلته يعرض عن قول إبراهيم بن المهدى فيه ونحو ابن المعتز جعلته يضيق بخصومه ويقف ليدافع عنه دفاعا حاراً ونحو أبى تمام جعلته يضيق بابن مهرويه ونحو آل ثوابه جعلته يضيق بالبحترى أو بفن الهجاء عنده .

أن الأهواء الشخصية لأبى الفرج يجب أن تتحسس عند قراءة مروياته كما تتحسس الأهواء الدينية والسياسية ويبحث عنهما كما يبحث عن أثر المادة والمال فكلها عوامل مؤثرة وبينة الأثر واضحة المعالم لا من حيث أبو الفرج فقط وإنما من حيث كل مؤرخ أو راوية .

ونترك هذه الحياة إلى حياة أخرى هى :

الحياة العقلية

الفصل السابع
الحياة العقلية عند ابى الفرج

فى نص من نصوص الأغانى وفى موقف من هذه المواقف التى يحاول فيها أبو الفرج أحيانا أن يعلق على أقوال الرواة نراه يقول بصدد حديثه عن جرير والفرزدق والأخطل مايلى (فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل لأنه لم يلحق شأوهما فى الشعر ولا له مثل مالهما من فنونه ولا تصرف كتصرفهما فى سائره . وزعموا أن ربيعه أفرطت فيه حتى ألحقته بهما . وهم فى ذلك طبقتان .

أما من كان يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق . أما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم جريرا [1] . وهو قول يشعرنا بأن أبا الفرج كان يعرف الميول الثقافية خطرها فيما يصدر عن العلماء والرواة من آراء . ولعله يريد أن ينصح لنا بأن ندرس هذه الميول الثقافية من حياة العلماء والرواة وأن نتعرف عليها لنتبين فى وضوح وجلاء كيف صدرت هذه الأحكام ؟ ولماذا اختيرت هذه الأخبار ؟ .

وفى نص آخر من نصوص هذا الكتاب نرى أبا الفرج يقول (أخبرنى هاشم بن محمد الخزاعى قال حدثنا أبو غسان دماذ عن أبى عبيدة قال أنشدنى أبو الزعراء رجل من بنى قيس بن ثعلبة لطرفة بن العبد .

تكاشرنى كرها كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لى دوى

قال فعجبت من ذلك وأنشدته أبا عمرو بن العلاء وقلت له أنى كنت أرويه ليزيد بن الحكم الثقفى فأنشدنيه أبو الزعراء لطرفة فقال لى أبو عمرو أن أبا الزعراء فى سن يزيد بن الحكم ويزيد مولد يجيد الشعر وقد يجوز أن يكون أبو الزعراء صادقا .

---

(١) ١٩/٤٧ أغانى . بولاق

قال مؤلف هذا الكتاب ما أظن أبا الزعراء صدق فيما حكاه لأن العلماء من رواة الشعر رووهما ليزيد بن الحكم وهذا أعرابى لا يحصل ما يقوله لو كان هذا الشعر مشكوكا فيه أنه ليزيد بن الحكم وليس كذلك لكان معلوما أنه ليس لطرفه ولا موجودا فى شعره على سائر الروايات ولا هو أيضا مشبها لمذهب طرفه ونمطه وهو يزيد أشبه وله فى معناه عدة قصائد يعاتب فيها أخاه عبد ربه بن الحكم وابن عمه عبد الرحمن بن عثمان بن أبى العاص. . . الخ [١]) وهو قول يشعرنا أيضا بأمرين . الأول أن أباالفرج يجعل للمستوى الثقافى حكمه فى قبول أو رفض المرويات فهو يرفض رواية أبى الزعراء لأن العلماء من الرواة رووا خلافها ولأن أبا الزعراء أعرابى لا يحصل ما يقوله .

الثانى : أن أبا الفرج يرى أن المذاهب الفنية صالحة لأن يعتمد عليها فى بيان الأصيل والدخيل من المرويات فهو يقبل هذا الشعر لأنه يزيد أشبه وهو يرفضه لأنه ليس مشبها لمذهب طرفه ونمطه . ولعل أبا الفرج يريد هنا أيضا أن ينصح لنا بدراسة المستويات الثقافية عندما نريد أن تكون دراستنا للأشخاص سليمة وأن يكون حكمنا عليهم من حيث الثقة بهم وبمروياتهم صادقا .

ونحن لا نريد أن نأخذ أبا الفرج بأقل مما كان يأخذ به الرواة بل نحن لا نريد أن نكون أقل من أبى الفرج إدراكا للصلة بين الحياة العقلية وبين ما خلف الراوى من كتب ومرويات . إن علينا أن نبحث الحياة العقلية عند أبى الفرج لنعرف العوامل الثقافية التى لعبت دورها فى مرويات أبى الفرج وفى كتبه ليكون درسنا للرجل سليما وحكمنا عليه صادقا .

والحياة العقلية حين تدرس عند الرواة إنما تدرس لبيان هذه المسائل :

أولا — الميول الثقافية نحو فروع من العلم وألوان من الفن أو نحو نظرية من النظريات ومذهب من المذاهب إذ لكل ذلك أثره من حيث

---

(١) ٩٩ ، ١١/١٠٠ أغانى سامى .

العناية بألوان معينة من المرويات ألوان يتحقق معها إرضاء الميول والأهواء فتكثر الرواية فى لون دون لون وتختار المرويات لأنها تقرر هذ النظرية أو تجرى على هذا المذهب .

ثانيا : المستويات الثقافية ولها أثرها فى دلالتنا على مدى ما يمكن أن يتمتع به الراوى من ثقة . فهل كان أهلا للتحمل والضبط ولنقد المرويات والتعليق عليها أو كان من الذين يجمعون جمع حاطب الليل ويخبطون خبط عشواء ؟

ثالثا : الحركات الذهنية وإلى أى حد كانت تنتظم خطوط سيرها . وهل أصبحت من العادات الفكرية أو الخصائص العقلية التى يمكن الاعتماد عليها فى بيان عمل صاحبها وقبول المرويات أو رفضها ؟

هذه هى المسائل التى يبحث عنها فى الحياة العقلية وفى مظهريها العلمى والفنى حتى تتم معرفة شخصية الراوى وهويته .

والوقوف على هذه المسائل فى دقة يتطلب منا أن نبحث هذه العقلية من حيث تكوينها فنبحث كيف تكونت ؟ ومن أى العناصر تكونت ؟ وما الصلة بين هذه العناصر هل غلب أحدها فلون العقلية بلونه وطبعها بطابعه أو كانت النسب غير متفاوتة وإذا كانت فهل تم الانسجام أو ظلت هناك عناصر منفصلة وفعالة تسبب القلق الفكرى والاضطراب العقلى وتباعد بين العقلية وبين الاستقرار الذى يجعل لها خصائص أو عادات ثابتة متميزة يعرف بها عمل صاحبها .

والحياة العقلية إنما تتكون من الأفكار التى تأخذ مكانها من الذهن وهى أفكار ترد عن واحد أو أكثر من واحد من مصادر ثلاثة .

المصدر الأول — التراث الشعبى ووسيلته إلى الذهن تلك التلقينات التى يقوم بها الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأتراب واللدات أو قل الروح الجماعية بعامة .

والمصدر الثانى - التراث العلمى والوسيلة هى التعليم بالأخذ عن المدرسين أو النقل عن الكتب والصحف .

والمصدر الثالث — الأفكار التى تتولد فى النفس البشرية نتيجة لتطور الاحساس إلى خاطره ففكره وقد ينتهى الأمر بهذه الأفكار إلى أن تصبح من الأصول العامة أو من القيم .

والأفكار التى ترد إلى الذهن لا تكون فى حالة استقرار دائم فقد تختلف وتتنازع لما بينها من تعارض وهنا — ومن عجب أن يكون ذلك — يكون النصر للأقوى لا للأسلم من الأفكار .

والأفكار التى ترد عن المصدر الأول من أقوى الأفكار ومن هنا تجىء خطورة المصدر الأول على الحياة العقلية للأفراد وللجماعات . وتتمثل هذه الخطورة فى عدة عوامل .

الأول أن هذا المصدر يكون فى بعض الحالات المصدر الوحيد الذى تصدر عنه الأفكار التى تكون الحياة العقلية عند من لم ينل حظا من التربية وقسطا من التعليم وإذا كان من المتعارف أن كل تراث شعبى لا يسلم من الأوهام ولا يخلو من الأساطير تبين لنا خطر هذا المصدر ولعله من هنا كان من عمل المصلحين العمل على إذاعة الثقافة العليه وعلى نشر أو تعميم التعليم .

الثانى: أن هذا المصدر عام ولا يخلو من تأثيره إنسان وأنه يبعث بالأفكار التى تصدر عنه الى الذهن منذ المهد ولا يكف عن هذا الاصدار إلا عند اللحد . ومن هنا كانت هذه الأفكار مستقرة ثابتة لأنها وردت والعقل غض طرى والذهن مرن قابل للتأثر . ومن هنا أيضا كان منها الأساس الأول الذى تقوم عليه الحياة العقلية عند كل إنسان ولعله من هنا حرص المصلحون على أن يكون هذا الأساس سليما منذ اللحظة الأولى وإلا اختل البناء . حرصوا على تنقية هذا التراث من الأوهام حتى لا تكون مسافة الخلف بينه وبين التراث العملى عظيمة وإلا اضطربت العقول وتبلبلت الأفكار وإلا كان النزاع

حادا عنيفا وكانت النتيجة فى الغالب تمسك الأمة بتراثها الشعبى مهما يكن فيه من أساطير ومهما يدفع اليه من متاهات .

الثالث : أن الأفكار التى تصدر عن هذا المصدر قوية فى ذاتها لأنها تستمد وجودها من ذلك التراث الشعبى الذى تثبته العادات وتمكن له التقاليد والذى يحيطه الشعب بسياج من العواطف القوية التى تذود عنه وتحميه ومن هنا يكون السخط قويا والغضب حادا عنيفا حينما ينقده ناقد أو يحاول أن ينال منه نائل أو ينتقصه منتقص ولعله من هنا أيضا حرصت الأمم الحية على حماية المفكرين من أبنائها لتمكنهم من النقد ومن التوجيه وإلا ظل هذا التراث فى أولى درجاته مسيطرا وظلت الأمة فى بدائية ساذجة قاصرة ولعله من هنا أيضا كانت هذه المسألة مثار النزاع الدائم بين المفكرين الأحرار وبين الحكام المستبدين .

خطورة هذا المصدر هى التى دفعت الباحثين الى الوقوف طويلا عند البيئة المعنوية يدرسونها ليتبينوا آثارها وليعرفوا الى أى حد بلغت هذه الأفكار التى تجيء عن المصدر الأول من عقل العالم ومن قلب الأديب .

والوقوف على الأفكار التى تجيء عن التراث الشعبى وقوفا علميا دقيقا يكاد يكون فى حكم المستحيل ذلك لأنه يتطلب أولا وقبل كل شيء احصاء دقيقا للأفكار التى تأخذ مكانها من الذهن . ومعرفة واضحة للمصادر التى صدرت عنها . وهو العمل الذى لم يستطعه العلم بعد ولعله من هنا اضطر الباحثون إلى الاكتفاء بدراسة التيارات المختلفة ووصف البيئة المعنوية وصفا يكشف عن ألوانها ولا يحدد أفكارها .

لقد مضينا منذ المقدمة حتى نهاية الباب الأول فى دراسة هذه التيارات أو هذه الألوان من العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج وانتهينا إلى أمور عددناها فى حكم المقررات وكان منها ذلك الميل إلى التشيع وكيف أدى إلى الكتابة فى المقاتل والميل إلى الملذات وكيف أدى إلى لون معين من الأخبار والأقاصيص والميل إلى التوفيق بين العصبيتين الأموية والطالبية

وكيف أدى إلى لون معين من الأخبار هى تلك التى تقرب بين العصبيتين حتى لتجعل الطالبيين أنفسهم يفضلون الأمويين على العباسيين والآن نستطيع أن نعرض لأمرين من أمور البيئة لهما صلتهما بعقلية أبى الفرج . وأول الأمرين ذلك الميل الشديد نحو رواية الأخبار فلقد بعث أبو الفرج ليتلقى ألوانا مختلفة من العلوم[١] . منها الدينى ومنها اللغوى والنحوى ومنها البيطرة والنجوم وعلم الجوارح ونتف من الطب[٢] . ولكنه امتاز وتفوق فى رواية الأخبار . ونستطيع تعليل هذا الميل وأول ما نلتمس فيه التعليل هو الوراثة وليس يخفى أن أبا الفرج كان من رجال القرن الرابع وأن هذا القرن يعتبر من أزهى القرون الاسلامية من حيث الحضارة العلمية ولقد كان لكل فرع من فروع العلوم أعلامه الأمجاد ونظرة واحدة فى كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترينا إلى أى حد كان النشاط العلمى فى ألوان المعرفة وأنواع العلوم ومن هنا كان من السهل أن يكون أبو الفرج نحويا لغويا أو متفلسفا أو محدثا أو مفسرا . . . . الخ . ولكنه جنح إلى الأخبار مع أنه هو الذى بدأ برواية الحديث هذا الجنوح سببه الأول فيما نعتقد أن أبا الفرج ولد من أسرتين اشتغل أفرادهما بالكتابة وبرواية الأخبار وللكثير منهم كتب نقل عنها أبو الفرج كما أخذ عمن التقى منهم من الرجال الأمور التى وضحناها فى الفصل الثالث من الباب الأول .

وميل أبى الفرج إلى رواية الأخبار موروث ولكن الألوان التى روى فيها أو حمل أخبارها مثل أخبار النسب أو أخبار الشعراء والغناء أو أخبار الأيام والحروب هى التى تحتاج إلى تعليل غير الوراثة . تعليل يردها من حيث هى أقوال علمية إلى مصدرها الأمر الذى سنعرض له بعد لحظة إن شاء الله .

ثانى الأمرين ميل عام يكاد يكون أمرا شائعا فى العقلية الاسلامية

---

(١) لوحة ١٢٧٦ تاريخ الاسلام للذهبى .
(٢) ٤٦٢ وفيات الأعيان باريس .

فى ذلك الوقت ولا سيما عقلية الاخباريين ذلك الأمر هو الميل إلى قص الغرائب ورواية الشاذ من الأخبار وليس من الاتفاق أن يقف ابن خلدون فى مقدمته عند الاخباريين الموجودين فى ذلك العصر من أمثال الطبرى والمسعودى ليأخذ عليهم هذا الأمر وإنما لأن ذلك هو الطابع العام لعقلية الاخباريين فى ذلك الزمان[١] . وقد عرض أيضاً لهذه المسألة المطهر بن طاهر المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ[٢] .

هذا الطابع لهذه العقلية وضح فى كتاب الأغانى وضوحاً بيناً فلقد كان أبو الفرج يقص ألواناً من القصص تتمثل فيها هذه الغرابة وهو يقصها إرضاء للروح الدينية العامة أو الروح المذهبية الخاصة أولأنها تستثير الخيال وترضى هذه العقلية التى تميل إلى الغريب حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب . ونستطيع أن نعرض عليك مثلا تبين هذه العقلية كما تبين أن أبا الفرج كان يقف أحياناً إلى جانب بعض المرويات ويصححها لأنها فيما نعتقد ترضى ما فيه من ميل إلى الغرائب أو ترضى العقلية العامة فى مستواها لذلك العصر

جاء فى الأغانى « أخبرنى عمى قال حدثنى أحمد بن الحرث عن بن الأعرابى عن ابن دأب قال خرج ركب من ثقيف إلى الشام وفيهم أمية بن أبى الصلت فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ليتعشوا بعشاء إذ أقبلت عظاية حتى دنت منهم فحصبها بعضهم بشىء فى وجهها فرجعت وكفوا سفرتهم ثم قاموا يرحلون بمسين فطلعت عليهم عجوز من وراء كثيب مقابل لهم تتوكأ على عصا فقالت مامنعكم أن تطعموا رجيمة الجارية اليتيمة التى جاءتكم عشية قالوا ومن أنت ؟ قالت أنا أم العوام مت منذ أعوام أما ورب العباد

(١) راجع الفصل الخامس بفضل علم التاريخ إلخ من مقدمه ابن خلدون وهو الفصل الأول

(٢) راجع ج ١ ص ٤ وما بعدها

ليفترقن فى البلاد وضربت بعصاها الأرض ثم قالت بطنى إيابهم وتفرى ركابهم فوثبت الإبل كأن على ذروة كل بعير منها شيطاناً ما يملك منها شىء حتى افترقت فى الوادى فجمعناها فى آخر النهار من الغد ولم نكد فلما أنخناها لرحلها طلعت علينا العجوز فضربت الأرض بعصاها ثم قالت كقولها الأول ففعلت الإبل كفعلها بالأمس فلم نجمعها إلى الغد عشية فلما أنخناها لنرحلها أقبلت العجوز ففعلت كفعلتها فى اليومين ونفرت الإبل فقلنا لأمية أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك فقال اذهبوا أنتم فى طلب الإبل ودعونى فتوجه إلى ذلك الكثيب الذى كانت العجوز تأتى منه حتى علاه وهبط منه واد فاذا فيه كنيسة وقناديل وإذا برجل مضطجع معترض على بابها وإذا رجل أبيض الرأس واللحية فلما رأى أمية قال إنك لمتبوع فمن أين يأتيك صاحبك قال من أذنى اليسرى قال فأى الثياب يأمرك قال بالسواد قال هذا خطيب الجن كدت والله أن تكونه ولم تفعل أن صاحب النبوة يأتيه صاحبه من قبل أذنه اليمنى ويأمره بلباس البياض فما حاجتك ؟ فحدثه حديث العجوز . فقال صدقت وليست بصادقة هى امرأة يهودية من الجن هلك زوجها منذ أعوام وإنها لن تزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت فقال أمية وما الحيلة ؟ فقال جمعوا ظهركم فإذا جاءتكم ففعلت كما كانت تفعل فقولوا لها سبع من فوق وسبع من أسفل باسمك اللهم فلن تضركم فرجع أمية إليهم وقد جمعوا الظهر فلما أقبلت قال لها ما أمره به الشيخ فلم تضرهم فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت قد عرفت صاحبكم وليبيضن أعلاه وليسودن أسفله فأصبح أمية وقد برص فى عذاريه واسود أسفله فلما قدموا مكة ذكروا لهم هذا الحديث فكان ذاك أول ما كتب أهل مكة باسمك اللهم فى كتبهم[1] .

(١) ٣/١٨١ أغانى . سامى . وأخبار أمية كلها من هذا القبيل

وجاء فيه أيضاً . أخبرنى أحمد بن عبيد الله بن عمار ومحمد بن أحمد الحكيم قالا حدثنا أنس بن عبد الله النيهانى قال حدثنى على بن المنذر قال حدثنى عبد الله بن سعيد الاشقرى قال حدثنى دعبل بن على قال . لما هربت من الخليفة بت ليلة بنيسابور وحدى وعزمت على أن أعمل قصيدة فى عبد الله بن طاهر فى تلك الليلة فإنى لفى ذلك إذ سمعت والباب مردود علىّ السلام عليكم ورحمة الله الخ يرحمك الله فاقشعر بدنى من ذلك ونالنى أمر عظيم . فقال لى لا ترع عافاك الله فإنى رجل من إخوانك من الجن من ساكنى اليمن طرأ إلينا طارىء من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فأحببت أن أسمعها منك قال فأنشدته إياها فبكى حتى خر ثم قال رحمك الله ألا أحدثك حديثاً يزيد فى نيتك وبعينك على التمسك بمذهبك قلت بلى قال مكثت حينا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام فصرت إلى المدينة فسمعته يقول حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال علىّ وشيعته هم الفائزون ثم ودعنى لينصرف فقلت له يرحمك الله إن رأيت أن تخبرنى باسمك فافعل قال أنا ظبيان بن عامر[1] . . . .

هذه العقلية التى تمثلها هذه الأخبار أو التى ترضيها هذه الأقاصيص كانت الطابع العام لذلك العصر وكانت تلعب دورها فى الحياة العقلية لأبى الفرج فقد كان يختارها كما قلنا إرضاء للروح الدينية إسلامية عامة أو شيعية مذهبية كما كان يختارها إرضاء للعقلية واستثارة للخيال ومن هنا كان لا يضيره أن تكون من المصنوعات . ولو أن الأمر وقف من أبى الفرج عند هذا الحد لما اهتممنا بأمر الاختيار كثيراً ولكن أبا الفرج كان يصحح بعض المرويات

(١) ١٨/٣٩ أغانى . بولاق

على هذا الأساس يصححها لأنها غريبة لا لأن هناك عوامل الصدق والصحة التى تقوم على العقل والمنطق . جاء فى الأغانى بصدد حديثه عن وفاة ليلى الأخيلية ما يلى (أخبرنى الحسن بن على قال حدثنى ابن أبى سعد عن محمد بن على بن المغيرة قال سمعت أبى يقول : سمعت الأصمعى يذكر أن الحجاج أمرلها بعشرة آلاف درهم . وقال لها هل لك من حاجة ؟ قالت نعم وأصلح الله الأمير تحملنى إلى ابن عمى قتيبة بن مسلم وهو على خراسان يومئذ فحملها إليه فأجازها وأقبلت راجعة تريد البادية فلما كانت بالرى ماتت فقبرت هناك . هكذا ذكر الأصمعى فى وفاتها وهو غلط . وقد أخبرنى عمى عن الحزنبل الأصبهانى عمن أخبره عن المدائنى وأخبرنى الحسن بن على عن ابن مهدى عن ابن أبى سعد عن محمد بن الحسن النخعى عن ابن الخصيب الكاتب . واللفظ فى الخبر للحزنبل وروايته أتم أن ليلى الأخيلية أقبلت من سفر فمرت بقبر توبه ومعها زوجها وهى فى هودج لها فقالت . والله لا أبرح حتى أسلم على توبه فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلا أن تلم به فلما كثر ذلك منها تركها فصعدت أكمة عليها قبر توبه فقالت السلام عليك يا توبه ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت ما عرفت له كذبة قط قبل هذه قالوا وكيف ؟ قالت أليس القائل :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... على ودونى جنـــدل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقى ... إليها صدى من جانب القبر صائح

فما باله لم يسلم على كما قال ؟ وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت فى وجه الجمل فنفر فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها فدفنت إلى جنبه .

وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها[1]) . وواضح أن التصحيح فى هذا الخبر إنما قام على الغرابة .

(١) ٧٧ ، ١٠/٧٨ أغانى . ساسى

هذان هما الأمران الجديدان اللذان يمكن ردهما إلى البيئة بمعناها الشعبي بيئة الآباء والأمهات والأخوه والأخوات والأتراب واللدات . أما البيئة العلمية أو الأفكار التي صدرت عن التراث العلمي فتلك التي سنتحدث عنها الآن.

من حسن حظنا أن كانت الرواية هي الوسيلة في التعليم وهي دستور أبي الفرج في تقييده لما وقف عليه من علم ومعرفة ذلك لأن هذه الوسيلة أو هذا الدستور قد جعلنا نتعرف على بعض أمور هي من الأهمية بمكان . جعلنا نتعرف على وجهات النظر المختلفة في المسألة الواحدة وهذا له أهميته من حيث التاريخ العلمي للمسائل وتفرعها والأفكار وتوزعها . وجعلنا نتعرف على تاريخ المسائل في العصور المختلفة وهذان الأمران يمكناننا من دراسة كتب أبي الفرج وبخاصة كتاب الأغاني دراسة علمية دقيقة تطلعنا على الألوان الثقافية المجتمعة في هذا الكتاب كما تطلعنا على التيارات المختلفة التي لعبت دورها في كل لون .

وأمر آخر جعلنا هذا الأسلوب نتعرف عليه هو الميول الثقافية التي نشأت عن التراث العلمي والتي غذتها الأفكار التي تصدر عن هذا التراث والتي ما كنا نستطيع الوقوف عليها في سهولة ويسر وفي دقة وأحكام لو لم يكن ذلك الأسلوب أسلوب الرواية في التعليم وفي التعبير أو تقييد العلم .

قلنا أن ميلا موروثاً دفع بأبي الفرج إلى الاهتمام بالأخبار . لكن أية أخبار ؟ هنا المسألة التي نستطيع أن نفسرها تفسيراً علميا يقوم على النسب المختلفة لكل ما خلف أبو الفرج من كتب أو لكل ما بين أيدينا من مرويات .

والأخبار التي تركها أبو الفرج ألوان . منها النسب ومنها أخبار

الاضطهادات أو القتل السياسى ومنها أخبار الوقائع والحروب أو أيام العرب ثم أخبار الغناء والشعر وأخبار الشعراء والمغنين وهنا قد يختلط الهزل بالجد ويقوم الاختيار على أساس من الفكاهة والدعابة اللهم إلا فى أخبار النقد الفنى .

وإذا كان أبو الفرج قد صدر فى أخبار القتل السياسى أو فى كتاب مقاتل الطالبيين عن ميل موروث هو التشيع وعن ثقافة غذت هذا الميل هى الثقافة الكوفية الخاصة بالطالبيين . وإذا كان أبو الفرج قد صدر فى الأخبار الهازلة العابثة عن مزاج خاص وعن ذوق معين لجماعة من الأصدقاء وعن بيئة للمغنين لا يكون فيها إلا ما هو من الدعابة إن لم يكن من الخلاعة والمجون فانه فى غير ذلك . وفيما عدا بعض الأخبار السياسية التى تشيع رغبة معينة هى الكيد للعباسيين . قد صدر عن ميول ثقافية أساسها العلم ومبعثها التربية والتعليم .

وأول ميل ثقافى لأبى الفرج هو الميل إلى رواية الأخبار الخاصة بالنسب . نسب الأفراد أو نسب الأسر وهو أمر قد فطن إليه المؤرخون وعدوه من أجل ذلك من النسابين[١] . كما فطن إليه كاتب مادة أبى الفرج فى دائرة المعارف حيث نراه يقول عن كتاب الأغانى جمع فيه الأغانى التى كانت شائعة إلى عهده مع ذكر شىء عن مؤلفيها وأنسابهم التى كانت تبدو له عظيمة[٢] » .

ومظهر عناية أبى الفرج بالأنساب واضح كل الوضوح من هذه الظاهرات .

أولا — لم يترجم أبو الفرج لشاعر أو مغن فى كتاب الأغانى

---

(١) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٢ تاريخ دار الكتب

(٢) مادة أبى الفرج دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربية

ولا لقتيل سياسى فى كتاب مقاتل الطالبيين دون أن يذكر لنا نسبه . نسب أبيه فى الغالب ونسب أمه أن أمكن اللهم إلا إذا كان مجهولا .

ثانياً — لم يترجم أبو الفرج لواحد من هؤلاء ويذكر نسبه إلا ويجمع الروايات التى قيلت فى هذا النسب ومن هنا كنا نرى أمثال هذه العبارة « هذا الذى بأيدى الناس على اختلافهم فيه[1] » . حين يجد مرويات كثيرة وأمثال العبارة التالية « ولم أجد نسبه متصلا فأذكره[2] » حين لايجد شيئاً .

ثالثاً — أن أبا الفرج لم يكتف بهذا الصنيع فى الأغانى والمقاتل وإنما كتب كتباً بتمامها فى النسب من أمثال نسب عبد شمس ونسب بنى شيبان ونسب المهالبة ونسب بنى تغلب ونسب بنى كلاب[3] . وقد أشار أبو الفرج فى كتاب الأغانى إلى كتاب له فى أنساب العرب أكثر من مرة وقد يكفى فى التدليل هذا النص . . . ولم أذكرها ههنا لطولها وأن ذلك ليس من الغرض المطلوب فى هذا الكتاب وإنما نذكر ههنا لمعا وسائره مذكور فى جمهرة أنساب العرب الذى جمعت فيه أنسابها وأخبارها وسميته كتاب التعديل والانتصاف . . .

ولأسد أشعار كثيرة ذكرت هذه منها هاهنا لأن تعلم أعراقهم فى الشعر وسائرها يذكر فى كتاب النسب مع أخبار شـــعراء القبائل إن شاء الله تعالى[4] . . . »

وعناية أبى الفرج بهذا اللون من الأخبار أو وجود الميل فيه لايفسر بالوراثة فليس فى أهله فيمن ترجمنا لهم من هو من النسابين وإنما يفسر بعوامل أخرى أهمها فيما نعتقد عاملان

(١) ١/٧ أغانى . ساسى
(٢) ٥/١٥٣ المصدر السابق
(٣) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد للخطيب
(٤) ٥٣ ، ١٩/٥٤ أغانى . ساسى

الأول : أن أبا الفرج كان يترسم خطى إسحق الموصلى وإسحق قد اتخذ لنفسه دستوراً هو أن يذكر أنساب القوم وقد نقل أبو الفرج نفسه هذا الدستور حين نقل رسالة إسحق إلى على بن هشام والتى منها (. . . وبعد فأنا جعلت فداك فى صنعة كتاب مليح طريف فيه تسمية القوم ونسبهم وبلادهم وأسبابهم وأزمنتهم وما اختلفوا فيه من غنائهم وبعض أحاديثهم وأحاديث قيان الحجاز والكوفة والبصرة المعروفات والمذكورات وما قيل فيهن من الأشعار ولمن كن وإلى من صرن ومن كان يغشاهن ومن كان يرخص فى السماع من الفقهاء والأشراف فاعلمنى رأيك فيما تشتهى لأعمل على قدر ذلك[١] . . .) . وإذا كان أبو الفرج قد جرى على هذا الدستور فى كتاب الأغانى فانه قد جرى عليه فى النسب أيضاً .

الثانى : ظهور كتاب الزبير بن بكار فى النسب والزبير من النسابين الذين أخذ عنهم الكثيرون وممن أخذ عنه من أساتذة أبى الفرج الطوسى وحرمى بن أبى العلاء وأثر هذا الكتاب واضح جداً فى كتاب الأغانى حيث يتردد اسم الزبير بن بكار كثيراً .

ولعل من الخير أن نذكر أن عناية العرب بالأنساب قديمة وأن المسلمين فى الدولة العباسية كان يقيمون على الأنساب بعض نظمهم المالية كتلك التى تخص الأرزاق التى يجريها الخلفاء على الشرفاء . وإنهم قد اهتموا بالأنساب اهتماماً خاصاً لهذا السبب وأن هذا الاهتمام ظل قائماً حتى عصر أبى الفرج على الرغم من أنه قد أدى المهمة التى قام من أجلها ولعل لهذا الاتجاه أثره فى توجيه أبى الفرج نحو هذه الأنساب .

وأيام العرب ووقائعها لون آخر من الألوان الاخبارية التى وقف عندها أبو الفرج وقد كان عدد هذه الأيام فيما يحكى الخطيب ألفاً وسبعمائة يوم[٢] . وهو عدد إن صح يبعث فى أنفسنا اعتقاداً بعناية تامة

(١) ١٥/١٥٢ المصدر السابق (٢) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد

من أبي الفرج نحو هذه الأيام وهي عناية لا نستطيع أن نعللها بأكثر من أنها ميل خلقته الثقافة العامة التي كان يتلقاها أبو الفرج في ذلك الحين[١] . وليس يخفى أن من أشياخه الأخفش واليزيدي وأنه قد قرأ عليهما كتاب النقائض وفي كتاب النقائض من أيام العرب ووقائعها الشيء الكثير . وفي كتاب الأغاني الموجود بين أيدينا صورة لهذه الأيام كما أخذها أبو الفرج عن الأخفش واليزيدي مستندة إلى السكري فابن حبيب فأبي عبيدة[٢] .

أما ميل أبي الفرج إلى الشعر والغناء وأما ميل أبي الفرج إلى رواية الأحكام النقدية غنائية أو أدبية . فأما ميل أبي الفرج إلى مذهب إسحق في الغناء وأبي تمام في الشعر وأما موقف أبي الفرج إلى جانب ابن المعتز يدافع عنه ويوضح حقيقة فنه فهي الأمور التي سنجد الإجابة عنها في الفصل التالي الخاص بالحياة الفنية عند أبي الفرج لأنها كما لا يخفى من مسائل الفن وقضاياه

عقلية أبي الفرج من الناحية العلمية عقلية إخبارية تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على رواية الأخبار حتى لنعجز أن نتبين لها طابعاً آخر من لغة ونحو ومن حديث ودين ومن طب وتنجيم ومن هنا نستطيع أن نقول أن هذا العنصر عنصر رواية الأخبار هو الذي سيطر على عقل أبي الفرج وأن ميل أبي الفرج إلى هذا اللون كان لونا تغذيه الوراثة وتساعد عليه البيئة العلمية ومن هنا لم يشعر أبو الفرج بكثير من الحرج لأن عمله كان يغذي عواطفه وميوله ولأنه كان راوية والرواة كما سبق أن وضحنا في التمهيد وكما سنرى في الباب الثالث لا يقفون كثيراً لتحقيق المسائل وتصحيح الأخبار وإنما يصونون على رواياتها كما أخذوها حتى لو كانت من الأكاذيب .

(١) راجع مادة أيام العرب في دائرة المعارف الاسلامية الفرنجة العربية . ففيها بحث قيم عن هذه الأيام وعن عناية العرب بأيامهم وعن الأسباب في كثرة هذه الأيام .

(٢) راجع من ٣٠ — ١٠/٤٠ أغاني ساسي فان فيها صوراً واضحة عن هذه الأيام .

غير أنه مع كل هذا ومع أن الأسلوب هو الرواية نستطيع أن نتبين بعض العادات الفكرية التى كان أبو الفرج يجرى عليها فى مروياته .

وأول هذه العادات أن أبا الفرج يقف فى مقدمات كتبه ليحدد موضوعاتها أو مسائلها وهو يحددها التحديد البين الواضح الذى يمكن القارىء من معرفة موضوع الكتاب منذ اللحظة الأولى ويتصوره تصوراً مقارباً فعل ذلك فى المقاتل حيث دلنا على أنه سيذكر فى هذا الكتاب أخبار من قتل من آل أبى طالب وأنه سيختار من هؤلاء من كان محمود السيرة سديد المذهب[١] . وفعل مثل ذلك فى كتاب الأغانى حيث حدد موضوعه تحديداً بينا[٢] . حيث قصره على ما وجد لشاعره أو مغنيه أو السبب الذى من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن خبراً يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه .

وأبو الفرج حين يختار موضوعه وحين يحدده هذا التحديد الذى يبين الغرض منه يبدأ فيختار المواد على هذا الأساس . وهو حين يختارها يشعر دائما بما أخذ على نفسه من عهد ومن هنا نجده يتوقف حين لا تكون المواد مما يفى بالأغراض ولذا نراه يقول بين حين وآخر أمثال هذه العبارات التى تدل على يقظته وحذره عن الخروج ، وإنما ذكرنا خبره معهم لأنه كان أخاهم لأمهم وكان هوى لهم وكان عبد الله بن الحسن يحبه محبة شديدة فقتل معه لما قتل[٣] » . ونبدأ بذكر من قتل معه من أهل بيته حسبما شرطنا فى هذا الكتاب ثم نأتى بسياقة خبرهم[٤] » . وخبره أحسن وأكثر تلخيصا وأدخل فى معنى الكتاب[٥] » وأخبار المعتضد فى صنعة هذا اللحن

(١) ٤ ، ٥ مقاتل الطالبيين . مصر
(٢) ١/٢ الأغانى . ساسى
(٣) ١٤١ مقاتل الطالبيين . بغداد
(٤) ٢٨٨ المصدر السابق
(٥) ٨/١١٠ أغانى . بولاق

وغيره من الأغانى دون إخباره فى غير ذلك لأنها كثيرة تخرج عن حد الكتاب وشىء من أخباره مع المغنين وغيرهم يصلح لما ههنا[١] .

ونستطيع أن نقرر أن أبا الفرج لم يخرج عن الحدود التى رسمها لنفسه فى كتابه « مقاتل الطالبيين » وأنه خرج عن ذلك فى كتاب الأغانى وأن سر هذا الخروج ليس إلا طبيعة الموضوع الأمر الذى سنتناوله بالشرح المفصل عند حديثنا عن مسألة التصنيف أو التأليف من الفصل الخاص بمرحلة الأداء ومكان هذا الحديث هو الباب الثالث إن شاء الله .

أمر آخر نذكره على أنه من العادات الفكرية لأبى الفرج هو أنه حين يحدد موضوعاته ويختار لها المواد يعرضها العرض الذى يلائم ما يرمى إليه من مقاصد وأغراض ومن هنا كان العرض فى كتاب المقاتل قائما على التقسيم الزمنى فنرى أبا الفرج يعرض علينا القتلى من الطالبيين فى الدولتين الأموية ثم العباسية . وهو فى كل دولة يعرض هؤلاء القتلى باعتبار الأزمنة أو العصور التى حكم فيها الخلفاء أما العرض فى كتاب الأغانى فقد قام على أساس غير هذا . أساس لم يدخل العامل الزمنى فيه وإنما تحكمت طبيعة الموضوع ومن أجل هذا وضح أبو الفرج هذه المسألة فى مقدمة الكتاب وبين لنا أن العوامل النفسية عوامل إرضاء القارىء وإدخال السرور على نفسه وتجديد نشاطه والانتقال به من جد إلى هزل هى التى تدخلت فى أسلوب العرض أو فى ترتيب المواد من مسائل الكتاب .

وقد نستطيع أن نضم إلى هذه العوامل عاملا آخر هو أن أبا الفرج قد عرض للأصوات المائة أولا وقبل كل شىء ومن هنا تأثر عرضه بتقسيم قام به غيره الأمر الذى سنشرحه أيضا فى الباب الثالث عند حديثنا

(١) ٩/١٩ أغانى . ساسى

من مسألة التصنيف والتأليف من مرحلة الأداء .

هذه عقلية أبي الفرج العلمية فى تكوينها وفى خصائصها قد أبناها كما استطعنا الوقوف عليها من كتبه التى يقوم التأليف فيها على أسلوب الرواية . ونستطيع أن نتركها إلى حياته الفنية ولعلها بدورها أن تلقى ضوءاً على حياته العقلية وهى جزء منها أو على حياته العلمية وهى شق يتممها .

الفصل الثامن

الحياة الفنية عند أبي الفرج

والعناصر الثقافية التي تتكون منها الحياة الفنية عند أبي الفرج هي :

(ا) الأخبار الفنية للغناء العربي وما يتبع ذلك من أحاديث عن المذاهب والأجناس وعن بعض النظرات النقدية التي تكشف عن ميول أبي الفرج الفنية وعن مذهبه في الغناء .

(ب) الأخبار الفنية للشعر والشعراء وما يتبعها من أحاديث عن المذاهب الأدبية وعن ميول أبي الفرج .

(حـ) الفن الشعري .

(ء) الفن النثري لاسيما القصص أو الأخبار .

والعنصر الأول هو أقوى هذه العناصر وأكثرها وضوحا في حياة أبي الفرج الفنية بل هو العنصر المتحكم في حياة العنصر الثاني أو في حياة الشعر والشعراء وليس أدل على ذلك من أن أبا الفرج قد أهمل الشعراء الذين لم يجد لهم من الأشعار ما غنى فيه فأساس الاختيار عنده أن يكون للشاعر شعر غنى فيه حتى يترجم له ثم هو في ذكره للشعر الذي غنى فيه إنما يهتم به من حيث هو أصوات فيذكر هذه الأصوات كما غنيت حتى ولو غير المغنون الشعر لتستقيم لهم القسمة والتجزئة[1] وحتى لو كان الشعر لأكثر من شاعر[2] .

وغلبة هذا الشعر الغنائي واضحة كل الوضوح مما ترك أبو الفرج فيه من كتب فقد كتب في هذه الأخبار الفنية للغناء والمغنين كما كتب في الأنغام

---

(١) راجع ٢٢٠ ، ٢٥٨ جـ ٢ أغاني . دار الكتب .

(٢) ٤/٣٦ أغاني . بولاق . وهو في المائة المختارة .

والعلل ومن ذلك كتابه الأغانى الكبير الذى يقول عنه ابن خلدون « وقد ألف القاضى أبو الفرج الأصبهانى وهو ما هو كتابه فى الأغانى جمع فيه من أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمرى أنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها[١] » ، ومنه كتاب مجرد الأغانى وقد أشار إليه أبو الفرج فى مقدمة كتابه الأغانى الكبير[٢] . وكتاب مناجيب الخصيان وهو كتاب عمـــله للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له[٣] .

أما ما كتبه فى الصنعة الغنائية أو فى علل الغناء فانه يدل على دقة وعمق وحسبنا من ذلك هذا النص الذى ينقد فيه المرويات نقداً فنيا قائما على خبرة بالصناعة وبصر بها وهو (وذكر عبيد الله أن صانع هذا الصوت الذى كنى عنه فعل ذلك وتلطف له حتى أتى بالنغم العشر فى هذا متوالية من أولها إلى آخرها وأتى بها فى الصوت الذى بعده متفرقة على غير توالى إلا أنها كلها فيه وذكر أن ذلك الصوت أحسن مسموعا وأحلى . وحكى ذلك أضا عنه يحيى بن على بن يحيى فى كتاب النغم وإذ فرغت من حكاية ماذكره وحكاه عبيد الله فى نسبة هذا الصوت فقد ينبغى ألا أجرى الأمر فيه على التقليد دون القول الصحيح فيما ذكره وحكاه . والذى وصفه من جهة النغم العشر متوالية فى صوت واحد محال لا حقيقة له ولا يمكن أحداً بته

---

(١) ٥٠٦ مقدمة ابن خلدون بيروت سنة ١٨٨٦ الطبعة الثانية
(٢) ١/١ الأغانى . ساسى
(٣) ١٣/١٠٠ معجم الأدباء

أن يفعله وأنا أبين العلة فى ذلك على تقريب إذ كان استقصاء شرحها طويلا وقد ذكرته فى رسالة إلى بعض إخوانى فى عال النغم[١] . وشرحت هناك العلة فى أن قسم الغناء قسمين وجعل على مجريين الوسطى والبنصر دون غيرهما حتى لا تدخل واحدة منهما على صاحبتها فى مجراها قرب مخرج الصوت إذا كان على الوسطى منه إذا كان على البنصر وشبهه به فإذا أراد مريد إلحاق هذا بهذا لم يمكنه بتة على وجه ولا سبب ولا يوجد فى استطاعة حيوان أن يتلو أحديها بالأخرى ولا إذا اتبعت إحداهما بالأخرى فى ناى أو آلة من آلات الزمر تفصلت إحداهما من الأخرى وإنما قلت النغم فى غناء الأوائل لأنهم قسموا قسمين بين هاتين الأصبعين فوجدوها إذا دخلت إحداهما مع الأخرى فى طريقتها لم يمكن ذلك إلا بعد أن يفصل بينهما بنغم أخرى للسبابة والخنصر يدخل بينهما حتى تتباعد المسافة بينهما ثم لا يكون ذلك الغناء ملاحة ولا طيبا للمضادة فى المجريين فتركوه ولم يستعملوه فإن صح لعبيد الله عمل فى النغم العشرة فى صوت فلعله صح له فى الصوت الذى ذكر أنه فرقها فيه فأما المتوالية على ما ذكره ههنا فمحال ولست أقدر فى هذا الموضع على شرح أكثر من هذا وهو فى الرساله التى ذكرتها مشروح[٢]) .

وأبو الفرج إنما يحنح نحو مذاهب القدامى فى الغناء فهو عدو المحدثين منهم ويرى أنهم أفسدوا الغناء القديم وأنهم بصنيعهم هذا قد قضوا عليه حتى أنه لم يبق منه فى عصره ما يعتمد عليه ويرى أنه صحيح سليم وهذا هو الواضح من حديثه عن ابن المهدى حيث يقول(وكان إبراهيم مع علمه وطبعه مقصراً عن أداء الغناء القديم وعن أن ينحوه فى صنعته فكان يحذف نغم

(١) أشار إلى هذه الرسالة فى ٥/٥٣ ، ٩/٤٩ الأغانى . بولاق
(٢) ٨/٢٦ أغانى . بولاق

الأغانى الكثيرة العمل حذفا شديداً ويخففها على قدر ماأصلح له ويفى بأدائه فإذا عيب ذلك عليه قال أنا ملك وابن ملك أغنى كما اشتهى وعلى ما ألتذ فهو أول من أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقا إلى الجسارة على تغييره فالناس إلى الآن صنفان من كان منهم على مذهب إسحق وأصحابه ممن كان يعظم الغناء القديم وينكر الأقدام عليـــه ويعيب من فعله وهو يغنى الغناء القديم على جهته أو قريبا منها . ومن أخذ بمذهب إبراهيم بن المهدى أواقتدى به مثل مخارق وشاريه وريق ومن أخذ عن هؤلاء إنما يغنى الغناء القديم كما يشتهى هؤلاء لا كما غناه من ينتسب إليه ويجد على ذلك مساعدين ممن يشتهى أن يقرب عليه مأخذ الغناء ويكره ما ثقل وتقلبت أدواره ويستطيل الزمان فى أخذ الغناء الجيد على جهته بقصر معرفته وهذا إذا اطرد فإنما الصنعة فيه لمن غنى فى هذا الوقت لا للمتقدمين لأنهم إذا غيروا ما أخذوه كما يرون وقد غيره من أخذوه عنه وأخذ ذلك أيضا عمن غيره حتى يمض على هذا خمس طبقات أو نحوها فلم يتأدّ إلى الناس فى عصرنا هذا من جهة هذه الطبقة غناء قديم على الحقيقة البتة . ومن أفسد هذا الجنس خاصة بنو حمدون ابن إسماعيل فإن أصلهم فيه مخارق وما نفع الله أحداً قط بما أخذ عنه وزرياب الوائقية فإنها كانت لهذه الصورة تغير الغناء كما تريد وجوارى شاريه وريق فهـذه الطبقة على ما ذكرت .

ومن عداهم من الدور مثل دور عريب ودور جواريها والقاسم بن زرزور وولده ودور بذل الكبرى ومن أخذ عنها وجوارى البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن معاذ ودور آل الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه فعسى أن يكون قد بقى مما أخذ بذلك المذهب قليل من كثير .

وعلى أن الجميع من الصحيح والمغير قد انقضى فى عصرنا هذا [١] .

ويظهر أن أبا الفرج كان يجرى فى هذا خلف اسحاق فقد كان اسحاق ممن يفضلون القديم ويجرون عليه وأبو الفرج قد اتخذ من اسحاق مثله الأعلى ولعل ذلك يتضح من صنيع أبى الفرج فى كتاب الأغانى حيث جرى فيه على مذهب اسحاق حتى ولو كانت النسبة عن غيره وقد دل هو على ذلك حيث قال (وكل ما ذكرنا فيه من نسب الأغانى إلى أجناسها فعلى مذهب اسحاق ابن ابراهيم الموصلى وإن كانت رواية النسبة عن غيره إذ كان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل ابراهيم بن المهدى ومخارق وعلوية وعمر بن بانه ومحمد بن الحرث بن شخير ومن وافقهم فانهم يسمون الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثانى وخفيفه ويسمون الثقيل الثانى وخفيفه الثقيل الأول وخفيفه وقد أطرح الناس ما قالوه الآن وترك وأخذ الناس بقول اسحاق [٢] .

وقد شرحت هـــذه الأجناس شرحا مبسطا قائما على الصلة بين الشعر والموسيقى وعلى النقرات وعلى صياح الفاختات فليرجع إليها من يشاء [٣] . فى رسائل إخوان الصفاء .

وقبل أن نختم هذه الفقرة نشير إلى أن اهتمام أبى الفرج بالغناء إنما يرجع إلى إهتمام البيئة العراقية به فى ذلك الوقت ويكفى أن نعلم أن من الذين تعلموا الغناء وأثاروا حول مذاهبه الجدل والخصومة من هم من الخلفاء والأمراء والولاة من أمثال المعتضد بالله وابن المعتز وعبد الله بن طاهر وكثير غيرهم ويعلل ابن خلدون هذا الاهتمام بما يشعر بأن الغناء إنما قام من أجل

---

(١) ٣٥ ، ٣٦ / ٩ الأغانى . بولاق

(٢) ١/٤ المصدر السابق

(٣) ١/١٤٦ رسائل إخوان الصفاء . بيروت سنة ١٣٠٦

تعلم الأدب والعناية بالشعر وذلك حيث يقول « وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحا فى العدالة والمروءة [١] » .

ولعل أكبر مظهر لهذا الاهتمام هو هذه الكثرة الكاثرة من الكتب التى ألفت فى الغناء وهى الكتب التى نقل عنها أبو الفرج كثيراً وأشار إليها صاحب الفهرست . ولعل أهمها ما أختاره المغنون الثلاثة من الأصوات المائة المختارة للرشيد وما اختاره اسحاق للواثق وسنشير إلى كثير من هذه الكتب عند حديثنا عن مرحلة التحمل وكيف كان النسخ من الكتب أو النقل عنها جزءا من هذه المرحلة .

ونترك هذا العنصر إلى العنصر الثانى وهو ثقافة أبى الفرج الخاصة بالشعر والشعراء . والشعر العربى إنما اختير فى كتاب الأغانى على أساس من الغناء فهو أصوات غنائية قبل كل شىء وبعد كل شىء ومن هنا كانت تغير ألفاظ الشاعر أحيانا كما كان المغنون يجمعون بين أشعار لشعراء مختلفين كما سبق أن أشرنا أول الفقرة السابقة . كما كان يختار أيضا على أساس من الفكاهة والدعابة لأن معه أخباراً يقصد بها إلى الهزل أو إلى الامتاع والمؤانسة وتكون هذه المقاصد هى المتحكمة فى الاختيار ومن هنا لا نستطيع أن نقول إن هذه الأشعار تمثل ذوق أبى الفرج الفنى على أساس أن اختيار المرء قطعة من عقله .

نعم أن هناك من الأخبار ماهو جاد كأخبار الحروب وأخبار الأحكام النقدية والخصومات الأدبية تلك التى قد تمثل مذهب الشاعر أو رأى النقاد

(١) ٥٠٦ مقدمة ابن خلدون بيروت سنة ١٨٨٦ الطبعة الثانية

فيه ولكن حتى هذه لا تدل على أكثر من سعة الاطلاع عند أبي الفرج أما مدى فهمه لها وإيمانه بها وجعلها جزءا من ثقافته فأمر وراء كل هذا ولا تدل عليه هذه بحال من الأحوال لأن كل ما يحفظه المرء في ذاكرته أو ينسخه من كتاب لا يمثل فهمه للأمور ودقته في تناول الأشياء وإنما يمثل أنها وقعت في يده أو رآها بعينه أو سمعها بأذنه ومن هنا نستطيع أن نعرض عن هذه الأشعار إلى الأخبار الفنية أو الشعرية فلعلها أن تعيننا على الوقوف على ثقافة أبي الفرج الفنية وميوله المذهبية .

وأبو الفرج يقف بين يدي ترجمته للشعراء ليذكر جماع الرأي وهو في هذا الذكر يختار بعض الأسس ليقيم عليها البناء وأهم هذه الأسس هي :

(ا) الأصل والمولد والمنشأ وفي الحديث عن الأصل يكون الحديث عن النسب كما قد يكون الحديث عن الوراثة الشعرية .

(ب) المذهب الفني وقد يكون فيه الحديث عن الصلة بالخلفاء والأمراء والوزراء ومذاهبهم وما يرضيهم وما لا يرضيهم من الشعر كما قد يكون الحديث عن المدرسة والمذهب الفني [1] .

وهناك قد يجعل أبو الفرج عمود الشعر من الأسس التي يقيم عليها فن النقد الأدبي فيرى أن هذا قريب وذاك بعيد كما قد يرى أن هـــذا صالح المذهب وذاك فاسده .

وقد يذهب أبو الفرج إلى أبعد من هذا فيقف ليكشف لنا عن أسرار الاختلاف بين النقاد ويرينا من أين جاء الميل أو الهوى وقد أشرنا إلى مثل من هذا عند حديثنا عن الحياة العقلية حيث اتخذنا من موقفهم من كل من جرير والفرزدق ما يكفي في الدلالة على صنع الميل والهوى .

---

(١) ١٢/١٧ أغاني . بولاق . منصور النميري . ، ١٨/١٠٠ أخبار علي بن جبله .

(ح) المذهب الخلقي من حيث الخلاعة والمجون وأشباههما .

ولن نستطيع أن نقول إن هذه الأشياء من مبتكرات أبي الفرج وأنها من هنا تمثل عقليته الأدبية وفهمه للأسس التي يجب أن يقوم عليها التاريخ الأدبي فانما هي من الأسس التي كانت تشيع في البيئة وليس أدل على ذلك من أن هذه الأسس بالذات كثيرا ما ترد في المرويات التي يرويها أبوالفرج بعد هذه الوقفات فهي تلخيص لها في الغالب أو اجمال حتى يجيء البيان .

أن ميول أبي الفرج الفنية في الشعر إنما يكشف عنها تلك الوقفات التي يقف فيها إلى جانب بعض الشعراء مدافعا عنهم ومفسرا صنيعهم ولعله أن يكون من العجب أن نقول إن مذهب أبي الفرج الأدبي يختلف عن مذهبه الغنائي فهو هناك يحب القديم ويكلف به ويرى في صنيع المحدثين إفسادا للغناء وهو هنا لا يغفل صلة الفن بالحياة ويرى أثر البيئة فيما يصدر من الشاعر ويدافع عن المحدثين مبينا خطل الرأي عند من ينقد الشعراء لأنهم آثروا الجديد وخرجوا على عمود الشعر وعن مذهب القدماء . وهذا هو دفاعه عن ابن المعتز الشاعر (وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فان فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية فليس يمكن واصفا لصبوح في مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشتهيه من الكلام السبط الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشية وإلى وصف البيد والمهامة والظبي والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ولا أن يغمط

حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط فى البعض وقصر فى اليسير وينسب إلى التقصير فى الجميع لنشر المقابح وطى المحاسن فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدم لوجده مساغا ولو أن قائلا أراد الطعن على صدور الشعراء لقد رأى أن يطعن على الأعشى وهو أحد من يقدمه الأوائل على سائر الشعراء [1] . .

أن هذا الاختلاف فى الموقفين لا نستطيع أن نفهم سره إلا على أساس من الأعجاب إعجاب أبى الفرج بكل من إسحاق وابن المعتز وقد سبق أن ذكرنا أنهما من مثله العليا ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا وقف أبو الفرج إلى جانب من يحبذون الغناء القديم أو بعبارة أخرى من يحررون على مذهب اسحاق . ولماذا وقف إلى جانب ابن المعتز ودافع عنه هذا الدفاع الحار .

على أن لأبى الفرج ميلا فنيا آخر هو ميله إلى مذهب أبى تمام فى المجانس والمطابق حتى لقد حاول تقليده وفشل فيما نعتقد كما سنبين عند حديثنا عن الفن الشعرى إن شاء الله .

وميل أبى الفرج إلى أبى تمام ميل موروث فقد كانت الأسرة تفضله وحديث محمد بن أحمد الأصفهانى جد أبى الفرج لأبيه عن أبى تمام وتفضيل كل من ابن الزيات والصولى له قد نقلناه عند حديثنا عن الجو الأسرى ويكفينا فى هذا الموقف لبيان هذا الميل هذا القول من أبى الفرج (وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ولا يدركون وأن جدوا آثاره وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له فى جده نظيرا ولا شكلا ولولا أن الرواة قد أكثروا فى الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره وأفرط معادوه فى التسطير لرديئه

---

(١) ٩/١٤٠ أغانى . بولاق

والتنبيه على رذله ودنيئه لذكرت منه طرفا ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه [١]

هذه هى ميول أبى الفرج الفنية من حيث المذاهب الأدبية وهى ميول لا تدل على عمق فى الثقافة يساوى ذلك العمق الذى أحسسنا به فى ثقافته الغنائية ولا بأس على أبى الفرج فى ذلك فنحن نعلم أنه قد ألف كتابه فى الأغانى ولم يؤلفه فى الشعر والشعراء .

(ح) الفن الشعرى .

والفن الشعرى عند أبى الفرج لا يقاس بجرية على المجانس والمطابق من مذهب المحدثين أو بجرية على مذهب أبى تمام منهم فيظهر لنا أن هذا المذهب لم يكن ليتفق وطبيعة أبى الفرج السمحة السهلة وموهبته الفنية التى يصدر عنها الشعر بدون تعمل أو تصنع ومن هنا كانت محاولات أبى الفرج فى تقليده لأبى تمام محاولات فاشلة وليس يكفى أن يحب أبو الفرج أبا تمام أو تحب الأسرة كلها أبا تمام ليقول أبو الفرج على مذهبه ويجيد فى القول . لقد قلد أبو الفرج أبا تمام ولكنه أفلس أو كاد وليس أدل على ذلك من هذه المقطوعات الشعرية التى يقولها أبو الفرج متغزلا أو مادحا . فهو يقول متغزلا [٢] .

أنت ياذا الخال فى الـ ... وجنة مما بى خالى
لا تبالى بى ولا تخط ... رنى منك ببال
لا ولا تفكر فى حا ... لى وقد تعرف حالى
أنا فى الناس إما مـ ... بى وفى حبك غالى

ونشعر نحن أن هذا الغزل لا يصور من الحب شيئا فهو غزل فاتر لا نشعر فيه بحرارة الحب ولا بأنفاس المحبين بل لا نشعر فيه بذلك

(١) ١٥/١٠٠ المصدر السابق (٢) ٢/٣٨٣ يتيمة الدهر . دمشق

الاحساس الجميل الذى ينتاب المحبين عندما يتحدثون عن الأحباب ويصورون حالاتهم وليس ذلك إلا لأن المذهب الشعرى قد أفسد على أبى الفرج كل شىء فالجناس والطباق وخصائص مذهب أبى تمام قد رصت فى هذه المقطوعة رصا وحشرت فيها حشرا كادت معه أنفاس الشاعر نفسه أن تضيق ومن هنا كان الشعر شعر صناعة لا رونق فيه ولا ماء ولا روح فيه ولا حيوية ويقول أبو الفرج مادحا (١) .

ولما انتجعنا عائذين بظله أعان وما عنّى ومنّ وما منى
وردنا عليه مقترين فراشنا وردنا نداه مجدبين فأخصبنا

ونشعر نحن أن الجناس والمقابلة قد أفسدا على أبى الفرج كل شىء وأن إحساسه نحو مولاه وسيد نعمته المهلبى غير واضح بل أن صورة المهلبى نفسه مبهمه غامضة لا تفصح عن نفسها ولا تبين فهو شعر الصنعة الذى تفسد فيه الصنعة ما يكون فى الشعر من نسمات الوحى ومن قبسات الالهام ومن لمسات فنية توحى بالمراد وتفصح عنه فى قوة .

ولعل هذين البيتين من تلك المقطوعة التى يهنئ فيها المهلبى بمولود من سرية روميه يريانا إلى أى حد كان أبو الفرج يجهد نفسه فى سبيل الحرص على هذا المذهب الشعرى وبناء شعره لا على المجانس والمطابق فحسب بل على الاستعارات التى لا تجىء عفوا وإنما تقسر قسرا وتحشر فى الشعر حشرا .

متبحبح فى ذروتى شرف العلا بين المهلب منتماه وقيصر
شمس الضحى قرنت إلى بدر الدجى حتى إذا اجتمعا أنت بالمشترى (٢)

ولست فى حاجة إلى أن أشرح شيئا من هذا البيت الأخير فكل شىء واضح فيه وكل شىء يدل على ما نريده من إفساد الصناعة للشعر .

لقد قلد أبو الفرج أبا تمام ولكنه فشل وانصرف عن هذا التقليد فيما

(١) ١٣/١٣٠ معجم الأدباء . ط . رفاعي (٢) ١٣١ المصدر السابق

نعتقد وخيرا فعل وإلا لظل شعره كالأرض الموات التى لا تفيد صاحبها ولا تنفع الناس .

إذا كنا قد أعرضنا عن هذا المقياس فى حديثنا عن شعر أبى الفرج فاننا لن نعرض عن مقياس آخر هو من مذاهب المحدثين أيضا وجرى عليه أبو الفرج فأجاد وذلك هو مذهب الذين يعملون عن وعى وعن فهم للأمور حين يحاولون تأكيد الصلة بين الفن والحياه وخصائص هذا المذهب واضحة متميزة فى شعر ابن المعتز ولقد زادها أبو الفرج وضوحا حين وقف ليدافع عن ابن المعتز وليرد عنه كيد الكائدين كما سبق أن ذكرنا .

والصلة بين الفن والحياة إنما تكشف عن نفسها عند هؤلاء الشعراء بأمور . تكشف فى هذه الافتتاحيات التى تختلف كل الاختلاف عن افتتاحيات الأقدمين من الشعراء . وتكشف عن نفسها فى تلك الموضوعات الشعرية التى تقتطع من صميم الحياة . وتكشف عن نفسها أخيرا باللغة تلك التى تتحدد معانيها بالاستعمال لا بالمعاجم ولا باستعمالات الأقدمين من الشعراء .

وهذه الأمور أو هذه الخصائص واضحة كل الوضوح فى شعر أبى الفرج فهو لا يقف بالديار ولا يصف الطريق والناقة وما لاقاه من عنت ومشقة فى الأسفار وإنما يصف مجالس اللهو والطرب ويخلص منها إلى الممدوحين يطلب منهم ما يريد . يقول بين يدى المهلبى [1] :

ويوم كشـــل رداء العرو ... س حسنا وطيبا إذا ما يشم
خلعت عذارى ولم أعتذر ... ولم أحتشم فيه من يحتشم
وقابلت فيه صـــفاء الشما ... ل بصفو الشمول وشجو النغم
فداؤك نفسى هذا الشتا ... ء علينا بسلطانه قد هجم

(١) ٢/٢٨٠ يتيمه الدهر . ط . دمشق

ولم يبق من نشبي درهم ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهـــوا ء وتخرقها خافيـــات الوهم
وأنت العمـاد ونحن العفا ة وأنت الرئيس ونحن الخدم

وقد يهجم أبو الفرج على موضوعاته هجوما سريعا دون مقدمات قد تكلفه عناء السفر ومشقة الانتقال ومن ذلك قصيدته فى الراضى أو فى البريدى. فقد هجم فيها على موضوعه وذلك حيث يبدأ القصيدة بقوله (١) :

يا سماء أسقطى ويا أرض ميدى قد تولى الوزارة ابن البريدى
جل خطب وحل أمر عضال وبلاء أشاب رأس الوليـد

وليست الافتتاحيات أو المقدمات هى التى يذهب فيها أبو الفرج مذهب المحدثين أو المجددين من الشعراء بل هو يمضى معهم أيضا فى الموضوعات ومن هنا نراه لا يقصر همه على المدح والفخر والرثاء وما إلى ذلك من موضوعات القدماء وإنما يذهب مذهب المحدثين أيضا فى وصف الدواجن والحديث عن الأليف من الحيوان ومن هنا نراه يرثى الديك (٢) . ويصف القط (٣) . ويظهر أن أبا الفرج يصدر فى وصفه للقط عن غرام خاص بالقطط وعناية خاصة بتربيتها وهذا هو الواضح من حديث ابن الصابىء عن زيارة جده وأبى على الأنبارى وأبى العلاء صاعد لأبى الفرج وعن مكانه السنور من نفس أبى الفرج حتى ليعنى بتربيته ويعالجه أن مرض (٤) وليس أدل على هذه العناية من هذه الصورة الفنية التى يعرض فيها أبو الفرج مقدار عنايته وعناية غيره بالقطط .

---

(١) ١٢٧ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٢) ٤٨٠ — ٤٨٤ عيون التواريخ لابن شاكر . مخطوطة رقم ١٤٩٧ تاريخ دار الكتب
(٣) ١٠٥ — ١٣/١٠٧ معجم الأدباء
(٤) ١٠٤ ، ١٠٥ معجم الأدباء

قرطقوه وشنفوه وحـــلو ٥ أخيراً وأولا بالخضاب
فهو طورا يمشى بحلى عروس وهو طورا يخطو على عناب

وليس أبو الفرج هو الذى يعنى وحده بالهر فيظهر أن تلك كانت عادة كثير من الشعراء فى ذلك الوقت ومنهم ابن العلاف والصاحب بن عباد فلكل منهما قصيدة فى رثاء الهر ويذكر الثعالبى أن الصاحب قد عارض بقصيدته هذه قصيدة ابن العلاف (١) .

أما الألفاظ وصلتها بالعصر والبيئة أو بعبارة أخرى صلتها بالحياة فليس أدل عليها من قول أبى الفرج نفسه بصدد دفاعه عن ابن المعتز (فليس يمكن واصفا لصبوح فى مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشية وإلى وصف البيد والمهامة والظبى والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط فى البعض وقصر فى اليسير وينسب إلى التقصير فى الجميع (٢) ..) وهو قول يرينا إلى أى حد كان أبو الفرج يؤمن بالصلة بين الألفاظ والحياة . وشعره الذى قاله يؤكد فهم أبى الفرج لهذه الصلة فليس فيه من وحشى الكلام قليل أو كثير بل لعل مختارات أبى الفرج الشعرية فى كتاب الأغانى كانت تقوم هى الأخرى على هذا الأساس ومن هنا لم يحتج أبو الفرج إلى أن يقف ليشرح بعض القصائد أو ليروى لنا شرحها اللهم إلا فى القليل النادر الذى لا حكم له .

---

(١) ٣/٢٣ يتيمة الدهر، تاريخ أبى الفداء ج ٢ ص٣٦١ ، ٣٦٢ تحت عام ٣٤٨ هـ
(٢) ٩/١٤٠ أغانى . بولاق

يجرى أبو الفرج على مذهب المحدثين فى الافتتاحيات وفى الموضوعات الشعرية وفى الألفاظ المختارة الحية التى يجرى عليها الاستعمال وليس كل هذا هو الذى يحدد الخصائص الفنية لأبى الفرج فهناك خصائص نعتبرها من خصائصه هو لا من خصائص مذهب المحدثين كما هو الحال فى الخصائص السابقة .

وخصائص أبى الفرج الفنية تنتهى عند خاصتين أو عند ميزتين فنيتين كبيرتين الأولى دقة حسه والثانية طبيعته السمحة السهلة فعندها نستطيع أن نتبين موهبة أبى الفرج الفنية وهى أسمى ما نريد الوقوف عليه من شعره .

ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من أن يشم ليوم الصفو والسرور ريحا طيبة وأن يرى له منظراً حسنا فى قوله من الأبيات التى نقلناها آنفا .

ويوم كمثل رداء العرو ... س حسناوطيبا إذا مايشم

ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من الإجادة فى فن الوصف أو فن التصوير الشعرى ومن هنا نرى صوره الفنية دقيقة ومليئة بالحركة والحيوية ويكفى فى الدلالة على ما نذهب إليه هذه الصورة من صور القط .

ليث غاب خلقا وخلقا فمن لا ... ح لعينيه خاله ليث غاب
ناصب طرفه إزاء الزوايا ... وإزاء السقوف والأبواب
ينتضى الظفر حين يظفر للصيـ ... ـد وإلا فظفره فى قراب
لا يرى أخبثيه عينا ولا يع ... لم ما جنتاه غير التراب
قرطقوه . . . . (١)

ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من الاجادة فى فن الهجاء ذلك لأنه قد استطاع أن يشم الروائح الكريهة المنتنة من حياة الأفراد وأن يكشف

---

(١) ١٣/١٠٦ معجم الأدباء . ط . رفاعى

عنها فى لسان لاذع وشعر مؤلم موجع ومن هنا كان لكل من المهجوين حالاته الخاصة أو صفاته المعينة التى يضيق بها ويألم لها ويود أن يكون بينه وبين الكشف عنها آماد .

والذين هجاهم أبو الفرج كثيرون ولكن لكل منهم كما ذكرنا صفاته الخاصة التى تغيظه وتحنقه والتى يجيئه أبو الفرج منها فهو يجىء المهلبى من جانب الفقر وليس يخفى أن الرجل أيسر بعد اعسار .

أبعين مفتقر إليك رأيتنى ... بعد الغنى فرميت بى من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأننى ... أملت للاحسان غير الخالق (١)

ويجىء الأيذجى من جانب الأبنة والأيذجى من قضاة الشرع الذين لا يليق بهم ولا يصح أن يعرف عنهم أمثال هذه الصفات .

اسمع حديثى تسمع قصة عجبا ... لا شىء أظرف منها تبهر القصصا
طلبت عكازة للوحل تحملنى ... ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكنت أحسبه يهوى عصا عصب ... ولم أكن خلته صبا بكل عصا (٢)

ويجىء السيرافى من جهة العلم والمعرفة والعلم والمعرفة هما كل شىء فى حياة السيرافى .

لست صدرا ولا قرأت على صد ... رولا علمك البكى بكافى
لعن الله كل شعر ونحو ... وعروض يجىء من سيراف (٣)

ولعل الصورة الآتية التى صور بها أبا الحسن طازاد الكاتب تفصح عن قسوة أبى الفرج فى الهجاء .

طازاد مشتق من الطيز ... فعد عن ذكر فتى الحوز
كأن رجليه إذا مامشى ... مخنث يلعب بالشيز (٤)

---

(١) ١٠٣ المصدر السابق . (٢) ١٣٤ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٣) ٢/٢٨٢ يتيمة الدهر . ط . دمشق (٤) ١٣/١٠٩ معجم الأدباء

ويقول ياقوت فى حق أبى الفرج وشعره . وله شعر جيد إلا أنه فى الهجاء أجود وإن كان فى غيره غير متأخر وكان الناس فى ذلك العهد يحذرون لسانه ويتقون هجاءه [١] .

وهكذا نرى أن أبا الفرج كان يعتمد على دقة حسه ويستلهم هذا الحس المعانى التى يجب أن تذكر فى شعره والصور التى توحى بما يرضى أو بما يغضب الناس .

أما طبيعته السمحة السهلة التى يصدر عنها الشعر دون تعمل أو تصنع فهى التى حالت بينه وبين المضىّ إلى آخر الشوط فى الجرى على مذهب أبى تمام وهى التى مكنته من أن يرسل القول فى الشعر إرسالا ويخرجه خاليا من كثير من التشبيهات والاستعارات التى لا تجىء عفوا وإنما تجىء عنوة واقتدارا ومن هنا كان شعره الذى ارتضاه معبرا عن نفسه وعن موسيقاها أو عن تلك الأنفاس التى تضطرب وتتحرك بتحرك الشعر واضطرابه دون أن يحجبها حاجب أو يحول بينها وبين الظهور تكلف فى الشعر أو صناعه .

يقول أبو الفرج مستميحا المهلبى [٢] .

رهنت ثيابى وحال القضـ ـاء دون القضاء وصد القـدر
وهـــذا الشتاء كما قد ترى عسوف على قبيح الأثر
يغادى بصر من العاصفا ت أو دمق مثل وخز الإبر
وسكان دارك ممن أعـو ل يلقـين من برده كل شر
فهـذى تحن وهـــذى تئن وأدمع هاتيك تجرى درر
إذا ما تململن تحت الظـلام يعللن منـك بحسن النظـر
ولاحظن ريعـك كالمحلـ ـن شاموا البروق رجاء المطر
يؤملن عودى بمـا ينتظرن كما يرتجى آئب من سـفر

---

(١) ١٠١ المصدر السابق (٢) ١٣٥ المصدر السابق

ويقول أبو الفرج متغزلا [١] .

يامن أظل بباب داره ... ويطول حبسى لانتظاره
وحياة طرفك واحورارة ... وجمال صدغك فى مداره
لا حلت عمرى عن هوا ... ك ولو صليت بحر ناره

ويقول واصفا حاله [٢] :

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة ... فى شامخ من عزه المترفع
قالت لى النفس العروف بفضلها ... ماكان أولانى بهذا الموضع

ويقول متحدثا عن الدهر وأحداثه [٣] :

الدهر يلعب بالفتى فيهيضه ... طورا ويجبر عظمه فيراش
وكذا رأينا الدهر فى اعراضه ... ينحى وفى إقباله ينتاش

وهكذا نشعر فى هذه المقطوعات بأن أبا الفرج إنما يصدر عن طبيعة واضحة سافرة تهيء له مجال القول وتشعره بأن الفن موهبة قبل أن يكون صناعة ولعل هذه الموهبة هى التى مكنت أبا الفرج من أن يختار هذه النصوص الشعرية من ذلك اللون السهل الذى لا يحتاج للشرح والتفسير إلا فى القليل النادر .

(٤) ونترك هذه المسألة إلى الحديث عن النثر أو فن إيراد الخبر والقصة .

ولن نستطيع أن نعتمد على هذه الأخبار التى يرويها أبو الفرج فى كل من الأغانى ومقاتل الطالبيين فى بيان الخصائص الفنية لأبى الفرج وليس ذلك إلا لأنا نعلم أن من تقاليد أبى الفرج فى إيراد القصص والأخبار الحرص على الصور اللفظية التى أورد بها من يأخذ عنهم أو يروى لهم القصة والخبر وهذا هو الواضح من مواقف أبى الفرج فى كتبه حين يتعدد الرواة وتختلف

---

(١) ١١٨ معجم الأدباء (٢) ٢/٢٨٢ يتيمة الدهر (٣) ٢٨٣ المصدر السابق

الصور اللفظية فأنا نراه ينص فى صراحة أن اللفظ فى الخبر لفلان أوفلان كما ينص على الأسباب التى دفعته إلى اختيار هذه الصورة دون تلك مما سنذكره بتفصيل عند حديثنا عن الأداء فى الباب الثالث إن شاء الله

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج قد أورد فى كتابه مقاتل الطالبيين بعض الأخبار التى شاهد هو أحداثها وذلك من أمثال أخباره الواردة فى نهاية الكتاب ولكننا نعلم أيضا أن هذه الأخبار لم تكن إلا اللفتات العابرة والاشارات السريعة التى لم يقصد منها إلى القص وإنما قصد منها لفت الذهن والإشارة إلى المعروف المتداول بين الناس وأنها لذلك لا تصلح أن تكون المواد الفنية التى نعتمد عليها فى بيان هذه الخصائص .

إن ما بين أيدينا من نصوص صالحة لهذه المسألة قليلة جدا وهى تلك الأقاصيص الثلاث التى أوردها ياقوت فى معجمه نقلا عن كتاب أبى الفرج أدب الغرباء [1] وهى نصوص أن دلت على شىء فانما تدل على أن أبا الفرج لم يكن مغرما بالزينة اللفظية وبالأسجاع غرام معاصريه من أمثال المهلبى وابن العميد والصاحب وإنما كان يرسل القول إرسالا ويقص وكأنه يتحدث إلى الناس ولا يكتب لهم ومن هنا لا نلمح استعارة ولا تشبيها جاءت بها الصنعة وإنما هى التشبيهات القليلة النادرة التى تجىء عفوا والتى تستمد صورها الحية الناطقة من البيئة لا من صور الأدباء والشعراء . والقصة التالية ومافيها من شعر تفصح عما نذهب إليه أتم إفصاح ولم تخترها إلا لأنها أكثر هذه الأقاصيص الثلاث من حيث الصور الفنية أو من حيث التشبيهات والاستعارات والشعر الذى يرد فيها يحمل نفس الطابع الذى يحمله النثر ويدل على هذه الخاصية الأدبية من خصائص أبى الفرج .

يقول أبو الفرج (وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن ابراهيم بن على

(١) ١١٣ — ١٢١ / ١٣ معجم الأدباء

ابن عيسى — رحمه الله — ماضين إلى دير الثعالب للنزهة ومشاهدة اجتماع النصارى هناك والشرب على نهر يزدجرد الذى يجرى على باب هذا الدير ومعه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تتمايل وتتثنى كغصن الريحان فى نسيم الشمال فضربت بيدها إلى يد أبى الفتح وقالت ياسيدى تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد فصينا معها وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقها ما الله به عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومأت إلى الموضع فاذا فيه مكتوب.

خرجت يوم عيدها ... فى ثياب الرواهب
فتنت باختيالها ... كل جاه وذاهب
لشقائى رأيتها ... يوم دير الثعالب
تتهادى بنسوة ... كاعب فى كواعب
هى فيهم كأنها الـ ... ـدر بين الكواكب

فقلت لها أنت والله المقصودة بهذه الأبيات ولم نشك أنها كتبت الأبيات ولم نفارقها بقية يومنا وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها إياها ففرحت .

مرت بنا فى الدير خمصانة ... ساحرة الناظر فتانة
أبرزها الذكران من خدرها ... تعظم الدير ورهبانه
مرت بنا تخطر فى مشيها ... كأنما قامتها بانه
هبت لنا ريح فمالت بها ... كما تثنى غصن ريحانه
فتيمت قلبى وهاجت له ... أحزانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها وبين أبى الفتح عشرة بعد ذلك . ثم خرج إلى الشام وتوفى بها ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك [1] .

---

(١) ١١٣ — ١١٥ معجم الأدباء

أما نثر أبي الفرج ذلك الذى يصور فيه الشعراء ومذاهبهم فى القول فهو نثر مركز موجز يلخص فى سطور ما يرويه أبو الفرج فى صفحات ونستطيع أن نعرض عليك صورة منه لنتبين إلى أى حد كان يحاول أبو الفرج البعد عن الزينة وعن الصناعة اللفظية .

يقول أبو الفرج فى حق الوليد بن يزيد (وكان الوليد بن يزيد من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم وكان فاسقا خليعا متهما فى دينه مرميا بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره ومن الناس من ينفى ذلك عنه وينكره ويقول أنه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك[١]

وللوليد فى ذكر الخمر وصفاتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم سلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فانه سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره فكررها فى عدة مواضع منه ولولا كراهة التطويل لذكرتها ههنا على أنها تنبيء عن نفسها [٢]

هذه السمات الفنية التى تقوم على اليسر والسهولة هى التى يرجع إليها فيما نرى اختيار أبى الفرج للسهل من الأساليب القصصية والأخبارية حتى جاءت واضحة بينه لاعوج فيها ولا التواء ولا تكلف فيها ولا مشقة .

ونستطيع الآن أن نترك حياة أبى الفرج لننتقل إلى الحديث عن الرواية عنده وذلك هو الباب الثالث .

---

(١) ٦/٩٩ الأغانى . ساسى . (٢) ١٠٧ المصدر السابق .

الباب الثالث

الرواية عند ابى الفرج

الفصل الأول

أبو الفرج وهل هو من الرواة

ذكرنا فى التمهيد شيئا عن الفروق المميزة لكل من الراوى والمؤرخ واعتمدنا فى بيان ذلك وفى الحديث عن صنيع كل منهما فى المرويات على على نصوص متأخرة . نصوص جاءت بعد عصر أبى الفرج بقرنين من الزمان أو يزيد . نصوص لكل من ابن خلدون وياقوت . وفى الميدان العلمى لا نستطيع أن نقول أن آراء هؤلاء أو أقوالهم تجرى على أبى الفرج ويؤخذ بها . بل نحن لا نستطيع أن نقول ذلك حتى ولو كان هؤلاء وأمثالهم من المعاصرين لأبى الفرج ومن البيئة التى كان يعيش فيها وذلك لأن أمثال هذه الأقوال لا تثبت فى رأينا إلا وجود النظرية أما أن يكون أبو الفرج قد آمن بها وجرى عليها فيما يقص من حالات أو فيما يروى من أخبار فذلك هو الأمر الذى لا نستطيع القول به حتى نرى هذه الظاهرة واضحة وضوحا بينا من صنيع أبى الفرج فى مروياته أو من قول نظرى يحريه ليثبت لنا ذلك أو يدلنا عليه وليس ذلك إلا لأنا نعتقد دائما أن كل عالم أو أديب إنما هو شخصية متميزة أن يكن لها من الصفات ما يشاركها فيها غيرها فان لها من الصفات ما يميزها عن غيرها وما يعتبر من الخصائص وما على الباحث الذى يريد العلم والحق إلا أن يبحث عن الظواهر وأن يفرد الخاص منها عن العام وأن يصور هذه الخصائص بالصورة التى تشعر

القارىء أنه أقام شخصية لها ذاتيتها الخاصة وكيانها المتميز أما أن تكون صورة هذه الشخصية هى الصورة العامة التى يطالعها القارىء فى كل انسان فليس ذلك من دقة البحث فى شىء وإنما هى الأقوال التى تلقى على العواهن.

أبو الفرج شخصية متميزة لها مسلكها الخاص فى إيراد المرويات وهو مسلك يشعرنا فيما ترى بالمذهب الذى كان يعتنقه أبو الفرج ويرينا فى غير لبس إن كان أبو الفرج يجرى على مذهب الرواة أو يذهب مذهب المؤرخين

وأبو الفرج واضح الدلالة فى أنه كان يجرى على مذهب الرواة ولعل أول ما يطالعنا من هذه الدلالات أن أبا الفرج كان يحرص حرصا شديدا على ألا يفوته أى شىء مما يعرفه الناس فهو حريص على جمع كل ما قيل حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب وليس ذلك من مذاهب المؤرخين الذين يحرصون الخرص كله على الوقوف على الحقيقة وذكر ما يعتقدون أنه الحق.

والنصوص التى يفصح فيها أبو الفرج عن هذه الظاهرة كثيرة نستطيع أن نعرض منها ما يلى:

١ — جاء فى الأغانى «ومن حكى عنه أنه صنع فى شعره وشعر غيره المنتصر. فانى ما ذكرت ما روى عنه أنه غنى فيه على سوء العهدة فى ذلك وضعف الصنعة لئلا يشذ عن الكتاب شىء قد روى وقد تداوله الناس[1].

٢ — وجاء أيضا «ومن هذه سبيله فى صنعة الغناء المعتز بالله فانى لم أجد له منها شيئا إلا ما ذكره الصولى فى أخباره فأتيت بما حكاه للعلة التى قدمتها من أنى كرهت أن يخل الكتاب بشىء قد دونه الناس وتعارفوه[2]

٣ — وجاء «وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبى والتوليد

---

(١) ٨/١٦٩ أغانى. ساسى. (٢) ٨/١٧٢ المصدر السابق.

فيه بين وشعره شعر ركيك غث لا يشبه أشعار القوم وإنما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روى [١] » .

٤ — وجاء « قال مؤلف هذا الكتاب . هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها والتوليد بين فيها وفي أشعاره وما رأيت شيئا منها في ديوان دريد بن الصمه على سائر الروايات وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير فانه ذكر فيه ما لحق دريد من الهجنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قتل معه وانصرافه منفرداً وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفر ببني الحرث وقتل أماثلهم . وهذا من أكاذيب ابن الكلبي وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه [٢] » .

٥ — وجاء «هذا الذي في أيدي الناس من النسب على اختلافهم فيه [٣] » .

أبو الفرج إذا يجمع كل ماقيل يجمع الصادق وغير الصادق لأنه لا يريد أن يخلو كتابه من شيء يعرفه الناس ولو كان هذا الذي يعرفونه من المصنوعات والأكاذيب ، وتلك كما قلنا ظاهرة من الظواهر التي تلازم الرواة ولا تلازم المؤرخين .

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج كان أحيانا يعقب على غير الصادق ولكن ذلك لا يخرجه من عداد الرواة ولن يدفع به إلى عداد المؤرخين وذلك لأن أبا الفرج لم يكن ليعقب على كل خبر كما انه لم يقم اختياره للأخبار على أساس الصدق والصحة بل نستطيع أن نقول أنه كان يقيم أساس الاختيار في كثير من الحالات على ما فيه متعة من كل ما هو من نسج الخيال أو من كل ما هو من الأكاذيب عند المؤرخين وستتضح هذه المسائل جميعها في الفصول المقبلة إن شاء الله .

---

(١) ١٨/١٦١ المصدر السابق . (٢) ٩/١٩ المصدر السابق .
(٣) ١/٧ المصدر السابق .

وظاهرة الجمع هذه جمع كل ما قيل حتى ولو كان من الأكاذيب قد أفادت أبا الفرج من حيث العلم بالصادق والكاذب من الأخبار والأشعار وإنا لنراه يعتمد على هذه الظاهرة فى النقد وفى الدلالة على أن هذا الخبر كاذب وأن هذا الشعر لفلان أو فلان . ولعل فى الخبر السابق الخاص بقصة دريد بن الصمه ما يدل على صحة هذا القول إذ نرى أبا الفرج ينص على أنه لم يجد شعر هذا الخبر فى ديوان دريد على سائر الروايات .

على أن هذا الخبر التالى يدلنا دلالة قوية على مدى عناية أبى الفرج بالجمع والاستقصاء ومدى إفادته من هذه العناية فى النقد وفى تصحيح الأخبار . يقول أبو الفرج « وذكر يحيى بن على بن يحيى عن إسحاق أن الشعر للأعشى وذلك غلط التمسناه فى شعر كل أعشى ذكر فى شعراء العرب فلم نجده ولا رواه أحد من الرواه لأحد منهم ووجدناه فى شعر أبن المولى من قصيدة له طويلة جيدة وقد أثبتناها بعقب أخباره ليوقف على صحة ماذكرناه إذ كان الغلط إذا وقع من مثل هذه الجهة احتيج إلى إيضاح الحجة على ما خالفه والدلالة على الصواب فيه[1] » . وهو قول لايحتاج كما ترى إلى تفسير أو بيان .

وثانى ما يطالعنا من الدلالات على أن أبا الفرج كان يذهب مذهب الرواة حرصه على إيراد الخبر والقصة كما وصلته حتى ولو كان المعنى فاسداً أو الخبر مختلطا غير صحيح الضبط وذلك هو الأمر الذى توضحه النصوص التالية .

١ — جاء فى الأغانى بعد رواية أبى الفرج لخبر من الأخبار « وأحسب أن هذا الخبر مصنوع ولكن هكذا أخبرنا به ابن أبى الأزهر[2] » .

٢ — وجاء « قال مؤلف هذا الكتاب . وهذا الخبر عندى مصنوع وشعره مضعف يدل على ذلك ولكنى ذكرته كما وقع إلى[3] » .

---

(١) ٣/٨٥ أغانى . ساسى .

(٢) ١١/٩٩ أغانى . ساسى (٣) ١/٩١ المصدر السابق

٣ — وجاء « قال مؤلف هذا الكتاب . إنما ذكرت الخبر الذى رواه الزيادى على ما فيه من التخليط لأنى إذا أتيت بالقصة ذكرت ما يروى فى معناها . وهو خبر مختلط لأن عدى بن زيد[١] » . . .

مذهب أبى الفرج إذن أن يروى القصة كما وصلت إليه والخبر كما وقع إليه ليس يعنيه صدق أو كذب بقدر ما تعنيه هذه الرواية ومن هنا كنا نراه فى بعض الأحيان يذكر القصة المصنوعة التى تجيئه من طرق عديدة وبأسانيد مختلفة يذكرها مع هذه الطرق وبهذه الأسانيد مع اعتقاده بأنها من المصنوعات أو الأكاذيب ولعل خير ما يمثل هذه الحالة من حالات أبى الفرج قصة لأخبار جميلة فأنا نراه يقول « أخبرنى إسماعيل بن يونس ... أخبرنى الحسن بن على . . . قالوا جميعاً أن جميلة حجت . . . وقد جمعت رواياتهم لتقاربها وأحسب الخبر كله مصنوعا وذلك بين فيه[٢] .

كما نراه فى مواقف أخرى يرجح رواية عن رواية لا لأنها أصح بل لأن اللفظ أتم وذلك من أمثال قوله « قال أبو الفرج ونسخت من كتاب لأبى سعيد السكرى قال حدثنى ابن أبى فنن .. أخبرنى يحيى بن على بن يحيى بهذا الخبر مما أجاز لنا أن نرويه عنه عن أبى أيوب المدائنى عن ابن أبى الدواهى . وخبر السكرى أتم واللفظ له قال[٣] . . » وقوله « ونسخت من كتاب ابن النطاح عن الهيثم بن عدى وقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى فى كتاب الجوابات قال حدثنا أحمد بن الحرث عن المدائنى إلا أن رواية ابن النطاح أتم واللفظ له قال[٤] » .

وحرص أبى الفرج هذا قد يفيد الباحثين من ناحية التسلسل التاريخى لحياة الألفاظ ولحياة الأفكار والأخبار الأمر الذى لم نهتم به بعد فى دراستنا الجامعية مع أنه الخطوة الأولى فى سبيل تفهم المسائل علمية كانت أو أدبية .

---

(١) ٢/٣٣ المصدر السابق (٢) ٧/١٢٨ المصدر السابق
(٣) ١٢/١٠٥ أغانى . بولاق (٤) ١٥/٣ المصدر السابق

أما ثالث مايطالعنا من الدلالات على أن أبا الفرج كان يذهب مذهب الرواة فهى روحه . تلك الروح التى تخالف روح معاصريه من المؤرخين من أمثال المسعودى ومسكويه ويحسن بنا قبل أن نصور روح أبى الفرج فى موقفه من الأخبار تاريخية كانت أو أدبية أن نقف مع المسعودى لتتبين لنا روح الراويه فى سهولة ويسر .

يقول المسعودى فى مقدمة كتابه « وقد وسمت كتابى هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه من طوالع تواريخ ما ضمنته كتبنا السالفة فى معناه وغرر مؤلفاته فى مغزاه وجعله تحفة للأشراف من الملوك وأهل الديارات لما قد ضمنه من جمل ما تدفع الحاجة إليه وتنازع النفوس إلى علمه من دراية ماسلف وغبر فى الزمان وجعلته منبها على أغراض ما سلف من كتبنا ومشتملا على جوامع يحسن بالعاقل الأديب معرفتها ولا يعذر فى التغافل عنها ولم نترك نوعا من العلوم ولا فنا من الأخبار ولا طريقة من الآثار إلا وقد أوردناه فى هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا إليه بضروب من الإشارات أو لوحنا إليه بنجوى من العبارات فمن حرف شيئاً من معناه أو أزال ركناً من مبتناه أو طمس واضحة من معالمه أو لبس شاهرة من تراجمه أو غيره أو بدله أو انتخبه أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا فوافاه من غضب الله وسرعة نقمته[1] . . . »

هذا القول يرينا إلى أى حد يحرص المسعودى على ما فى كتابه وهو حرص لم ينشأ إلا من اعتقاده أنه قد أورد ما يطمئن إليه أو ما يعتقد أنه الحق ومن هنا تهدد من يناله من أى الملل كان أو الآراء . وهو لم يكتف بهذا التهديد فى أول الكتاب وإنما يذكره فى آخره ويشير إلى ذلك فى المقدمة وفى تتمة النص السابق وليس كل ذلك إلا ليحول بين الناس وبين التغيير والتبديل والانتخاب والاختصار وكل ذلك لا يصور إلا روح

(١) ٢٢ ، ٢٣ بروج الذهب . ط . الجمعية الأسيوية بباريس .

المؤرخ الذى يرى أن ما جاء به هو الحق وما أورده هو الصواب ولو أن المسعودى كان يذهب مذهب الرواة لشعر بأنه لم يورد كل ما يمكن أن يورد ولاعتقد أن فيما أورده ماهو من الأكاذيب والمصنوعات التى تقبل التعديل بتغيير وتبديل أو بانتخاب واختصار .

المسعودى مؤرخ يصورلنا لوناً من المؤرخين فى القرن الرابع الهجرى أو فى النصف الأول منه هو ذلك اللون الذى لا يعتمد على الرواية ولا يحرص على نسبة الأقوال إلى قائليها والأخبار إلى رواتها وإنما يكتفى بإيراد ما يعتقد أنه الحق وما يرى أنه الصواب .

ونتنقل الآن إلى أبى الفرج لنلمس منه تلك الروح التى تسيطر عليه عند إيراده للمرويات . وروح أبى الفرج فيما نرى هى روح الرواه الذين يروون الخبر وهم يتبرءون من العهدة ويروون الأخبار وهم لا يقصدون إلى أقوالها إسناداً وإنما إلى أتمها ويروونها وهم يعلمون أنها فى حاجة إلى التعديل بالزيادة أو بغيرها ويروونها وقد حضوا غيرهم على ألوان من التعقيب والتصحيح ومن الاضافة أو الزيادة أن وقع الكتاب فى أيديهم ووقفوا على ما يحتاج إليه من قصة طريفة أو خبر جديد .

وروح أبى الفرج هذه هى التى تصورها هذه النصوص .

١ — جاء فى الأغانى « وأنا أذكر بما وقع إلى من أخباره جملا مستحسنة متبرئاً من العهدة فيها فإن أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتتبع للعيوب[1] » .

٢ — وجاء « وقد سمعت خبره من جهات عدة إلا أنه لم يحضرنى وقت كتبت هذا الخبر غيره وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسناداً فهو من أتمها[2] » .

(١) ١/٦١٤ أغانى . ساسى . (٢) ١٤/٤٩ المصدر السابق .

٣ — وجاء « ونسخت من كتاب أحمد بن سعيد الدمشقي خبر الأحوص مع سلامه التي ذكرها في هذا الشعر وهو موضوع لا أشك فيه لأن شعره المنسوب إلى الأحوص شعر ساقط سخيف لا يشبه نمط الأحوص والتوليد بين فيه يشهد على أنه محدث والقصة أيضاً باطلة لا أصل لها ولكني ذكرته في موضعه على ما فيه من سوء العهدة[1] » .

٤ — وجاء « .. وبعضها لم أعرف القائل له فأتيت به كما وقع إلي فإن مربي بعد وقتي هذا أثبته في موضعه وشرحت من أخباره ما اتصل بي وإن لم يقع إلي ووقع إلى بعض من كتب هذا الكتاب فمن أقل الحقوق عليه أن يتكلف اثباته ولا يستثقل تجشم هذا القليل فقد وصل إلى فوائد جمة تجشمناها له ولنظرائه في هذا الكتاب فحظي بها من غير نصب ولا كدح فإن جمال ذلك موفر عليه إذا نسب إليه وعيبه عنا ساقط مع اعتذارنا عنه[2] ... » .

٥ — وجاء « وقد كنا وجدنا هذا الشعر في رواية علي بن يحيى عن إسحق منسوباً إلى المرقش وطلبناه في أشعار المرقشين جميعاً فلم نجده وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داوود بن سلم وفي خبر أنا ذاكره في أخبار داوود وإنما نذكر ما وقع إلينا عن رواته فما وقع من غلط فوجدناه ووقفنا على صحته أثبتناه وأبطلنا ما فرط منا غيره وما لم يجر هذا المجرى فلا ينبغي لقارىء هذا الكتاب أن يلزمنا لوم خطأ لم نتعمده ولا اخترعناه وإنما حكيناه عن رواته واجتهدنا في الإصابة وإن عرف صوابا مخالفا لما ذكرناه وأصلحه فإن ذلك لا يضره ولا يخلو به من فضل وذكر جميل إن شاء الله[3] » .

وفرق فيما نعتقد بين روح أبي الفرج هذه وروح المسعودي السابقة فالمسعودي يذكر الحقيقة كما يراها وتلك روح المؤرخ وأبو الفرج يذكر المرويات كما وصلته ولو لم تكن من الحقائق ولو كانت باطلة ولا أصل لها

(١) ٨/٨٦ المصدر السابق .
(٢) ٨/١٤٤ أغاني . ساسي . (٣) ٥/١٣٥ أغاني . بولاق .

لأنه قد يراد بها إلى الإمتاع والمؤانسة وتلك روح الراوية .

ولعل من الخير لنا فى هذا الموقف أن نذكر ذلك النص الذى يقف فيه ابن سلام من ابن إسحق موقف الناقد الذى لاترضيه رواية ابن إسحق للأشعار فان فيه ما يدل على الفرق الواضح الجلى بين روح المؤرخ وروح الراوية .

يقول ابن سلام « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء محمد بن إسحق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر عنها ويقول لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله ولم يكن ذلك له عذراً فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف من السنين والله يقول وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى .... (١) » .

ولست فى حاجة إلى أن أدلل على أن اعتذار ابن إسحق يدل على روح الراوية فضلا عن طريقته التى جرى عليها وأن روح ابن سلام روح المؤرخ الذى يبحث عن الحقيقة ويتحرى طرق الوصول إليها .

أبو الفرج راوية يحمل كل ما يصل إليه وليس بالمؤرخ الذى لا يذكر إلا مايعتقد أنه الحق وستتضح هذه المسألة فى الفصول المقبلة إن شاء الله .

---

(١) ٤ طبقات الشعراء لابن سلام . ط . ليدن سنة ١٩١٦ .

الفصل الثانى

مرحلة التحمل

(١) وأولى المسائل التى يحسن بنا أن نفتتح بها الحديث عن هذه المرحلة مسألة السن التى يبدأ فيها الراوى بالتحمل . ومسألة السن هذه من المسائل التى يحتفل بها القدماء لما لها من صلة بالحالة العقلية التى يكون عليها الراوى . وليس يخفى أن لهذه الحالات العقليـة أثرها القوى فى قيام الثقة بالراوى . والاطمئنان إلى مروياته ولعله من هنا لا يرضى أصحاب علوم الحديث بالوقوف من هذه الحالات العقلية عند حد الصغر حيث يكون العقل غضا طريا ولا عند حد الكبر حيث يكون العقل واهنا ضعيفا وإنما يمضون فيبحثون عما بين الصغر والكبر من حالات . يبحثون عما يعتور العقل من خرف وجنون ومن سهو وغفلة ويرتبون على كل حالة أحكاما هى الضابط لمدى ما تتمتع به المرويات من ثقة .

وأصحاب علوم الحديث يصدرون فى مسألة السن هذه عن نظريتين فيما نرى . الأولى تلك النظرية التى نبتت بذورها يوم أن أصبحت الرواية علما له أصوله التى يجب أن تتبع والتى تذهب إلى أن الراوى يجب أن يكون أهلا للكتابة وللضبط حين التحمل حتى يطمئن الناس إلى مروياته . ومن عوامل عدم الأهلية عندهم البلوغ حتى لقد رفض بعضهم الأخذ عمن تحمل قبل البلوغ ولو أدى بعده [1] .

أما الثانية فهى تلك التى تجعل للتقاليد حكمها والتى تمضى على ماجرى عليه

---

(١) ١٣٧ ابن الصلاح .

العمل منذ عهد الرسول عليه السلام والتى تذهب إلى جواز تحمل الصبى لأن الرواة قد أخذوا عن أحداث الصحابة من أمثال الحسن بن على وابن عباس وابن الزبير والنعمان ابن بشير وأشباههم من غير فرق بين ما تحملوه قبل البلوغ وما بعده ولأنهم لم يزالوا قديما وحديثا يحضرون الصبيان مجالس التحديث والسماع ويعتدون بروايتهم (١) .

نعم أن هناك من يحاول التوفيق بين الرأى النظرى والواقع العملى وهؤلاء فيما نعتقد هم الذين أجازوا السماع فى الصغر ولكنهم اشترطوا للكتابة والضبط شروطا فى السن هى عشر سنين عند البصريين وعشرون سنة عند الكوفيين وثلاثون سنة عند الشاميين (٢)

ولعل خير ما يذكر فى هذه المسألة من وجهة النظر الشرعية هو ماذهب إليه أحمد بن حنبل فقد سئل متى يجوز سماع الصبى الحديث ؟ فقال إذا عقل وضبط فذكر له عن رجل أنه قال لايجوز سماعه حتى يكون له خمس عشرة سنة فأنكر قوله وقال بئس القول (٣) .

ويفصل ابن الصلاح هذا القول حين ينتهى إلى أن الذى ينبغى فى ذلك هو أن يعتبر فى كل صغير حاله على الخصوص فان وجدناه مرتفعا عن حال من لا يعقل فهما للخطاب وردا للجواب ونحو ذلك صححنا سماعه وإن كان دون خمس وإن لم يكن كذلك لم نصحح سماعه وإن كان ابن خمس بل ابن خمسين (٤) .

تلك هى الأقوال أو هذه هى الأسس التى تفسر لنا بعض الشىء بحث أصحاب علوم الحديث لهذه المسألة ولو حاولنا أن نعرف أمر أبى الفرج لتبينت لنا الأمور الآتية :

---

(١) المصدر السابق

(٢) ٥٥ الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى (٣) ١٣٩ مقدمة ابن الصلاح

(٤) المصدر السابق

١ — أن أبا الفرج قد تحمل فى بعض الأحيان وهو صغير أو وهو حديث السن على حد تعبيره وهو نفسه الذى يثبت هذا حين يقول تعليقا على خبر يرويه عن أبى جعفر بن رستم الطبرى . (هذا حفظته عن أبى جعفر وأنا حديث السن فكتبته من حفظى واللفظ يزيد وينقص وهذا معناه [١]) .

ويظهر أن هذه لم تكن حال أبى الفرج وحده وإنما هو الأمر الذى يجرى عليه الكثيرون فقد جاء فى الأغانى (وحدثنى أحمد بن عبيد الله بن عمار قال كنا نختلف إلى أبى العباس المبرد ونحن أحداث نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار وكان يصحبنا فتى . . الخ [٢]) .

وتفسير هذه الظاهرة ليس بالغريب إذا تذكرنا أن الرواية كانت من الأساليب الشائعة فى التربية والتعليم فى ذلك الوقت وليس يخفى أن التعليم يبدأ به فى سن الحداثة كما أنه ليس يخفى أن كثيرين من المؤلفين يعتمدون فى التأليف والتصنيف على المعلومات والمعارف التى حصلوا عليها وقت الطلب .

٢ — أن أبا الفرج قد جلس لإملاء كتاب مقاتل الطالبيين سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة [٣] .

لكن ليس معنى ذلك أن أبا الفرج قد أنهى مرحلة التحمل اللهم إلا إذا كان ذلك فيما يخص كتاب المقاتل وحده ذلك لأن نعلم أن مرحلة التحمل أشبه بمرحلة جمع المعلومات والمواد لتأليف الكتب وأنها تتجدد كلما هم الراوى برواية لون من الأخبار جديد .

---

(١) ١٠١ / ١١ . أغانى . سامى
(٢) ١٥٣ / ٦ المصدر السابق
(٣) ٤ مقاتل الطالبيين . مصر

إن مرحلة التحمل إنما تنتهي بالنسبة إلى كل خبر عند الفراغ من تحمله وتنتهي بالنسبة إلى كل كتاب عند الفراغ من تأليفه ولعله من هنا كان حرص أصحاب علوم الحديث على بحث الحالات العقلية عند رواية كل خبر وكان قولهم برد حديث أهل الغفلة [١] . وبيحث حال من كان ينسخ وقت القراءة [٢] وليس هناك من حالات يثبتونها من أمر أبي الفرج إلا أنه كان خلط قبل أن يموت [٣] . ولسنا نعرف بطبيعة الحال إن كان أبو الفرج قد فرغ من التأليف في ذلك الوقت أولا ؟ ولكننا نعتقد أن ما بين أيدينا من كتب قد أرخ بعضه وهو كتاب الأغاني وأن هذا الأخير قد أخرج للناس وقرأه بعض الطلاب على صاحبه كما سبق أن ذكرنا . ومضمون هذا كله أن ما بين أيدينا من مرويات لأبي الفرج إنما كان من روايته قبل أن يصيبه هذا التخليط .

* * *

(ب) وثاني المسائل التي نعنى بها من مرحلة التحمل مسألة المصادر التي يأخذ منها أبو الفرج أو يتحمل عنها . وأبو الفرج يأخذ عن مصدرين كبيرين هما الكتب والرجال ويظهر لنا من حديث أبي الفرج في مقدمة كتابه مقاتل الطالبيين عن التدوين أن عصر الرحلة في سبيل الجمع والتدوين كان قد انقضى أو كاد . وأن الشيوخ في عصره كانوا يعتمدون على مجهودات السابقين قبلهم من الرواة . ومن هنا نراه يعتذر عن تقصيره في رواية أخبار آل أبي طالب جميعا بخلو عصره من أمثال السابقين . يقول أبو الفرج (وعلى أنا لا نتثق من أن يكون الشيء من أخبار المتأخرين منهم فاتنا ولم يقع إلينا لتفرقهم في أقاصي الشرق والغرب وحلولهم في نائي الأطراف وشاسع المحال التي

---

(١) ١٤٧ الكفايه في علم الرواية (٢) ٦٦ المصدر السابق
(٣) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد .

يتعذر علينا استعلام أخبارهم فيها ومعرفة قصصهم لاستيطانهم إياها سيما مع قصور زماننا هذا وأهله وخلوه من مدون الخبر أو ناقل الأثر كما كان المتقدمون قد بلهم يدونون ويصنفون وينظمون ويرصفون[١]) .

وكثرة الكتب التى يصدر عنها أبو الفرج وكثرة النصوص التى يأخذها عن بعض هذه الكتب تؤذن لنا بالقول بأنه فى هذا العصر قد بدأ الكتاب يزاحم الشيخ ويحاول أن يحل محله فى الرواية أو فى الأداء . ولقد فطن ابن النديم وهو المعاصر لأبى الفرج إلى هذه الظاهرة من حياة أبى الفرج العلمية وأشار عند ترجمته له إلى أن أكثر مروياته إنما أخذت عن الكتب ولم تأخذ عن الرجال[٢] . بل لعل وجود هذه الظاهرة فى كتب أبى الفرج وبخاصة الأغانى هو الذى يفسر لنا ما يقال من أن الصاحب بن عباد كان يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ليطالعها فلما وصل إليه كتاب الأغانى لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها[٣] .

وإحلال الكتاب محل الشيخ إنما نشأ عن انتشار الكتابة والاعتماد عليها فى الضبط ومن إهمال شأن الحفظ الأمر الذى سنقف عنده فى الفصل المقبل إن شاء الله .

والظواهر التى يحسن بنا أن نقف عندها من حيث هذه المصادر هى التالية أولا . أن هذه الكتب التى يعتمد عليها أبو الفرج ليست كلها من الأصول الجياد أو من الكتب الأمهات . وأن هؤلاء الرجال الذين يكثر من الأخذ عنهم ليسوا جميعا من الرواة الممتازين أو من الشيوخ الكبار فأنا إذا وجدنا من الكتب الجياد كتب أبى العباس ثعلب واليزيدى وابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى وابن حبيب السكرى والمبرد وقدامه بن جعفر وابن المعتز وإسحق الموصلى وغيرها فأنا واجدون إلى جانبها كتبا أخرى

(١) ٥ مقاتل الطالبيين . ط . مصر

(٢) ١٦٦ ، ١٦٨ الفهرست لابن النديم . ط . مصر

(٣) ٤٦٣ وفيات الأعيان . باريس سنة ١٨٣٨

يعدها أبو الفرج نفسه قليلة التحصيل ضئيلة الفائدة من أمثال كتب يحيى المكى وحبش وابن خرداذبه والكتاب المنسوب إلى إسحق وغيرها .

والظاهرة نفسها موجودة فى الرجال فاذا ماوجدنا من الرواة الممتازين أو من شيوخهم محمد بن جرير الطبرى ومحمد بن القاسم الأنبارى ومحمد بن العباس اليزيدى وعلى بن سليمان الأخفش والفضل بن الحباب الجمحى وابن دريد وابن عمار ونفطويه وأحمد بن سعيد الهمذانى وعلى بن العباس الكوفى وحرمى بن أبى العلاء وكثير غيرهم فأنا واجدون إلى جانبهم من ليسوا بالشيوخ على الإطلاق وإنما هم من الندماء وصغار الكتاب والرجال العاديين الذين يعون الحوادث ويذكرونها .

هذه الظواهر المتعلقة بالكتب والرجال كانت معروفة لدى بعض المؤرخين ونقدة الرجال من المعاصرين لأبى الفرج ولقد عابوا أبا الفرج من أجلها ووصل الأمر ببعضهم أن رماه بالكذب . جاء فى تاريخ بغداد « حدثنى أبو عبد الله الحسين بن محمد بن القاسم بن طبا طبا العلوى قال سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختى يقول . كان أبو الفرج الأصبهانى أكذب الناس كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئا من الصحف يحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها[١] » . كما تراهم يتهمونه من حيث الرجال بالاتساع فى الرواية[٢] .

ونحن لا نستطيع أن ننقد أبا الفرج من حيث نقده هؤلاء ذلك لأنا نعلم أنا ندرس أبا الفرج من حيث هو راوية ونحن نعلم أن من شأن الرواة جمع كل ما قيل حتى لو لم يكن مرويا عن شيوخ ممتازين أو مأخوذاً عن أصول جياد .

على أنا نستطيع أن نذكر هذا الصنيع لأبى الفرج بالخير . نذكره

---

(١) ١١/٣٩٩ تاريخ بغداد للخطيب .
(٢) .. المصدر السابق

لا على أنه من الرواة الذين يحرصون على جمع كل ما قيل بل على أنه من الذين يؤرخون للحياة الفنية والحياة الاجتماعية للبيئة التى كان يعيش فيها وليس يخفى أن الأسلوب الصحيح لمثل هذا التاريخ إنما يقوم أولا وقبل كل شىء على الجمع والاستقصاء وأن الذين يكتفون فى مثل هذا التاريخ بالجياد من الكتب والممتازين من الرجال إنما يخطئون وليس ذلك إلا لأن الممتازين من الرجال لا يمثلون إلا أنفسهم وأن الجياد من الكتب لا تمثل إلا العقلية الناضجة والذوق الفنى الرفيع . إن هؤلاء جميعا إنما يمثلون الحياة الفكرية والحياة الاجتماعية من القمة أما الوسط وأما السطح فلا يمثله إلا كتب المرتبة الثانية والثالثة وإلا رجال لا يمكن عدهم من الكبار أو الممتازين . ومن هنا يكون أبو الفرج بصنيعه هذا قد أدى خدمات يشكر عليها ولا يلام من أجلها لأنه قد حرص على تراث الأوساط من الناس .

ثانيا : قد يأخذ أبو الفرج عن غير الممتازين من الرواة وعن غير الجياد من الكتب ولكنه يتوخى العدالة والقدرة على الضبط . وبعبارة أخرى يتحرى الصادق من الأخبار ولا يأخذ إلا عن الثقات . لكن أبا الفرج لم يفعل شيئا من ذلك وإنما روى عن الثبت الثقة وعن غيره وأورد فى كتبه الصادق والكاذب من الأخبار ويظهر لنا من بعض النصوص التى يوردها أبو الفرج فى كتاب الأغانى أن هذا الأمر أو هذا التساهل لم يكن خاصا بأبى الفرج وإنما كان الأمر الذى يجرى عليه الاخباريون الأدباء . جاء فى الأغانى « أخبرنى الحسن بن على قال حدثنا ابن مهرويه قال حدثنا إبراهيم بن الجنيد قال سألت يحيى بن معين عن محمد بن مناذر الشاعر فقال لم يكن بثقة ولا مأمون رجل سوء نفى من البصرة ووصفه بالمجون والخلاعة فقلت إنا نكتب شعره وحكايات عن الخليل بن أحمد فقال هذا

نعم وأما الحديث فلست أراه موضعا له[١] » .

ويظهر لنا أن هذه الظاهرة توجد أيضا فيما هو من باب الأخبار والأقاصيص من الأحاديث فأنا نرى من الرواة من يتساهل فى مرويات هذا اللون من الأخبار . جاء فى مقدمة ابن الصلاح « يجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل فى الأسانيد ورواية ماسوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرها وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد .

وممن روينا عنه التنصيص على التساهل فى نحو ذلك عبد الرحمن بن مهدى وأحمد ابن حنبل رضى الله عنهما[٢] » . بل نرى من فرق المسلمين من يجيزون وضع الأحاديث إذا كان المقصود منها العظة والعبرة أو الترغيب والترهيب بالاطماع فى الجنة والأخافة من النار[٣] .

ووجود هذه الظاهرة ظاهرة التساهل عند الاخباريين هو الذى دفع أصحاب علوم الحديث إلى عدم الأخذ عن كتبهم فيما يتعلق بالرجال بل هو الذى دفعهم إلى عدم الأخذ عن كتب المحدثين الذين يذهبون مذهب الاخباريين . يقول ابن الصلاح بصدد الحديث عن الكتب التى ألفت فى شأن الرجال « ومن أجلها وأكثرها فوائد كتاب الاستيعاب لابن عبد البر لولا ما شأنه به من إيراده كثيراً مما شجر بين الصحابة وحكاياته عن الاخباريين لا المحدثين . وغالب على الاخباريين الاكثار والتخليط فيما يروونه[٤] » .

---

(١) ١٧/٢٩ أغاني . بولاق (٢) ١١٣ ابن الصلاح

(٣) ١٣٣ الكفاية فى علم الرواية ، ١١٠ ابن الصلاح

(٤) ٢٥١ ابن الصلاح

وتفسير هذه الظاهرة ليس بالعسير إذا نظرنا إلى المسألة على أساس الخطر الذى يترتب على هذه المرويات فالأقاصيص مثلا أوالأخبار الأدبية قد تراد للفكاهة وللامتاع والمؤانسة وهنا يصبح الخطر قليلا أو لاخطر على الإطلاق ونشعر أنه قد أصبح من غير اللازم أن تكون الأحداث قد وقعت وأن تكون الأخبار والأقاصيص من واقع هذه الحياة فانما المطلوب من كل هذه الأشياء أن تمتع وأن تؤنس ويستوى بعد ذلك أن تكون من واقع الحياة أو أن تكون من نسج الخيال .

وكذلك الأمر فى أحاديث الترغيب والترهيب فانما المقصود منها استثارة الانفعال وتربية العاطفة الدينية وكل ذلك لا يتطلب أمراً قد وقع فانما يؤدى إليه المثل والقصة وما هو من هذا الميدان .

أما الأخبار التى يقصد منها إلى التاريخ وأما الأحاديث التى يقصد منها إلى التشريع فهى التى تتطلب النقد القوى والعناية الكبرى وهى التى يجب أن تقوم فيها الرواية على أساس من الدقة والضبط يدفعنا إلى الثقة ويوحى بالاطمئنان ولعله من هنا تشدد قوم فى رواية الحديث إلى الحد الذى جعل مروياتهم منه قليلة جداً الأمر الذى وقف عنده ابن خلدون وأطال[1] .

على أن هناك أمراً آخر يجب ألا تغفله فى هذا الموطن وهو التقاليد التى جرى عليها رواة الأدب والأخبار الأدبية والنسب من قبل فلقد جرى هؤلاء منذ العصر الجاهلى على عدم اشتراط مايعرفه أصحاب علوم الحديث من عدالة وضبط إذ كانت رواية الشعر عندهم نوعا من التعليم وكانت رواية الأنساب والأخبار نوعا من الشائعات التى تشيع فى البيئة والتى يعرفها أكثر الناس ويعبرون عنها بعبارات تلائم أمزجتهم وبصيغ تسعفهم دون العناية

(١) راجع من حيث الأخبار من ١ ـ ٢٤ ومن حيث الأحاديث ٣١١ ، ٣١٢

فى كل ذلك بنقد أو تمحيص حتى لقد روى أبو الفرج نفسه فيما يخص الأنساب خبراً عن النبى عليه السلام يقلل من قيمتها ويجعلها غير أهل لأن يعتمد عليها فى قضايا الشرع أو قضايا الدين[1] . ولسنا فى حاجة إلى أن ندل على أن أمثال هذه الشائعات لا تعتبر مصدراً قيما من مصادر التاريخ .

ثم هناك الضرورات التى دفعت الرواة إلى قبول الأخبار من غير العدول . وماذا يفعل الرواة حين يكون الشهود الذين شهدوا الأحداث أو الدين وقعت منهم الأحداث من المجان والفساق ومن الخلعاء والمتهتكين إنهم وحدهم الشهود وإن مروياتهم وحدها هى التى تصور ما كان. فضلا عن أنها الأخبار القيمة للامتاع والمؤانسة وأنهم لا بد حافظون لهذه الأخبار وراووون لها ومعرضون عن تلك الصفات التى يتطلبها أصحاب علوم الحديث فى رواته . إنه من هنا فيما نعتقد ذهب ابن قتيبة إلى ما ذهب إليه حين قال « واعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتاب فى فصول من كتبهم وعمن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته ولا عن الصغير قدراً لخساسته ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلا عن غيرها فان العلم ضالة المؤمن من حيث أخذه نفعه ولن يزرى بالحق أن تسمعه من المشركين . . . . فأما علم الدين والحلال والحرام فانما هو استبعاد وتقليد ولا يجوز أن تأخذه إلا عمن تراه لك حجة ولا تقدح فى صدرك منه الشكوك . . . . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما فاذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به[2] » .

---

(١) ١/٧ أغانى . ساسى

(٢) س ، ع ، ل . عيون الأخبار . ط . دار الكتب

أن التقاليد والضرورات وإن تفرقة الأقدمين بين خطر الحديث حين يكون للتشريع وخطره حين يكون للعظة والعبرة . وإن المقاصد التى تقصد من ايراد الأقاصيص والأخبار من أمتاع ومؤانسة . أن كل ذلك هو الذى أباح للأخبار بين من الأدباء التساهل وعدم التشدد بل أن الامتاع والمؤانسة هو الذى دفعهم إلى ايراد المصنوعات والأكاذيب ووضع الأقاصيص . جاء فى الاغانى (أخبرنى محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثنى أبو العيناء قال سئل الأصمعى عن شعر تبع وقصته ومن وضعهما فقال ابن مفرغ[1]) . كما جاء فيه أيضا صور للكيفية التى يضع بها بعض الندماء والرواة أمثال هذه الاقاصيص ، أخبرنى عمى أبو عبد الله قال سمعت رجلا سأل أبا العبر عن هذه المحالات التى لا يتكلم بها أى شىء أصلها قال أبكر فأجلس إلى الجسر ومعى دواة ودرج فأكتب كل شىء أسمعه من كلام الذاهب والجائى من كلام الملاحين والمكارين حتى أملأ الدرج من الوجهين ثم أقطعه عرضا وألصقه مخالفا فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحمق منه[2] ».

ولعله من أجل هذا الاضحاك احتاج الخلفاء إلى الندماء وإلى أخبار الحمق والمغفلين والطفيليين ومن إليهم ولعله من أجل الامتاع والمؤانسة وضع الأقدمون من الأدباء أخباراً وأقاصيص أشار صاحب الأغانى إلى بعضها وذلك من أمثال قصص جميلة[3] . وقصص المجنون[4] بل أشار صاحب الأغانى إلى أن هناك كتبا قد وضعت بتمامها وذلك من أمثال هذا الكتاب الذى يشير إليه عند حديثه عن على بن آدم بقوله (هو رجل من تجار أهل الكوفة كان يبيع البز وكان متأدبا صالح الشعر يهوى جارية يقال لها نهلة واستهام بها مدة ثم بيعت فمات أسفا عليها . وله حديث طويل فى

---

(١) ٥٢ / ١٧ أغانى - سامى
(٢) ٩١ / ١٩ المصدر السابق
(٣) ١٢٨ / ٧ المصدر السابق
(٤) ١٦١ — ١/١٦٤ المصدر السابق

كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما فيه ذكر قصصهما وقتا وقتا وما قاله فيها من الأشعار وأمرهما متعالم عند العامـــة وليس مما يصلح الاطالة به (١) .

على أن هذه المصنوعات نفسها يستفاد منها من حيث هي مصدر من مصادر الحياة العقلية والفنية من حيث أنها تفسيرات لظواهر مختلفة أو من حيث أنها تصوير لما يحس به الأديب من مشاعر . وللاحساس حكمه فى تصوير الآلام والآمال حتى لو كانت كاذب فى حكم العقل والمنطق ولهذه الصور دلالتها على الحيـاة التى كانت تحياها الجماعات وعلى ما تصبو إليـه من مثل وما تضيق به من آلام .

* * *

وثالثة المسائل التى نقف عندها من مسائل مرحلة التحمل هى مسألة الاسناد . وحرص أبى الفرج على الاسناد واضح فى كتابيه الأغانى والمقاتل وهو حرص قد لا يتلاءم وتساهله فى المرويات وأخذه عن الكذبة وتدوينه للمصنوعات لأن الاسناد ما وجد إلا ليحول بين الرواة وبين أن يخدعوا فيروا الأكاذيب أو الموضوع من الأخبار والأقاصيص . ولذا كان لابد لنا من هذه الوقفة لنرى رأينا فى أبى الفرج فهل كان حرصه على الاسناد لتكون الصحة فى النقل أو كان لأمر آخر يقصد ويراد ؟

إن الإجابة عن هـــذا السؤال تتطلب منا بحث تاريخ الاسناد . بحث نشأته والغرض منه والدور الذى يلعبه فى المرويات .

والاسناد نشأ أولا فى أحضان الدين وفى بيئة المحدثين والفقهاء وينص أصحاب علوم الحديث على أنه خصيصة شريفة من خصائص الأمة الاسلامية .

---

(١) ٤٩ / ١٤ المصدر السابق

جاء فى مقدمة ابن الصلاح، أصل الاسناد أولا خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة وسنة بالغة من السنن المؤكدة روينا من غير وجه عن عبد الله ابن المبارك أنه قال الاسناد من الدين لولا الاسناد لقال من شاء ما شاء وطلب العلو فية سنة أيضا ولذلك استحبت الرحلة فيه [١] .

وكان الغرض منه فيما هو واضح من أواخر النص السابق ومنه قول سفيان الثورى « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ [٢] » . الحيلولة بين الكذبة من الرواة وبين أن يكون لأحاديثهم الموضوعة أثر فى توجيه الحياة التشريعية فى الاسلام لاسيما وهم يؤمنون بأن الحديث هو المصدر الثانى من مصادر الشريعة الاسلامية وأنه مفسر ومبين للقرآن .

وهذا الغرض الذى من أجله كان الاسناد لم يوجد فى الحياة إلا حين بدأ المسلمون بجمع الأحاديث وتدوينها وحين وجدوا فيما يجمعون لونا من الاختلاف قد يصل أحيانا إلى حد التعارض والتباين وحين عملوا على إزالة هذا الاختلاف بالتوفيق أولا وبالنسخ ثانيا وبالترجيح ثالثا ومن عوامل الترجيح الثقة بالرواة ومن هنا كان السند وكانت إقامة السلاسل وكانت السلسلة الذهبية [٣]

هذه النشأة كما ترى كانت يوم أن أصبحت الرواية علما له رسومه وأصوله التى يجب أن تتبع وكانت تقتضى التطبيق فى عهدين عهد سابق على نشأتها وعهد لاحق لهذه النشأة حيث يبحثون حال الرواة الأولين فيرجحون رواية العدل الثقة الضابط وحيث يبحثون حال الرواة المتأخرين فلا يأخذون إلا عن العدول الثقات الضابطين .

---

(١) ٢١٥ ابن الصلاح
(٢) ٣٨٢ المصدر السابق
(٣) ١١ المصدر السابق

هذه الحالات لم تكن لتستمر وإنما كان من المفروض أن تنتهى بانتهاء التدوين تدوين كل ما صدر عن الرسول عليه السلام ونقده نقداً يبين الصحيح من الزائف ويكشف عن الموضوعات من الأحاديث . وهذا هو الذى قد كان فقد أحس الرواة وأصحاب علوم الحديث بأن الاسناد قد أدى مهمته وأنهم قد فرغوا مما احتاجوا إليه من أجله وأنهم لا حاجة بهم إليه بعد اليوم لكنهم مع كل هذا أبقوا عليه لأسباب يذكرونها هم حين يقولون « قال البيهقى . فمن جاء اليوم بحديث لا يوجد عند جميعهم لم يقبل منه ومن جاء بحديث معروف عندهم فالذى يرويه لاينفرد برويته والحجة قائمة بحديثه برواية غيره والقصد من روايته والسماع منه أن يصير الحديث مسلسلا بحدثنا وأخبرنا وتبقى هذه الكرامة التى خصت بها هذه الأمة »[1] وحين يقولون « إذا وجدنا فيما يروى عن أجزاء الحديث وغيرها حديثا صحيح الاسناد ولم نجده فى أحد الصحيحين ولا منصوصا على صحته فى شىء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة فانا لا نتجاسر على جزم الحكم بصحته فقد تعذر فى هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح بمجرد اعتبار الأسانيد لأنه ما من اسناد من ذلك إلا وتجد فى رجاله من اعتمد فى روايته على ما فى كتبه عريا عما يشترط فى الصحيح من الحفظ والضبط والاتقان فآل الأمر إذا فى معرفة الصحيح والحسن إلى الاعتماد على ما نص عليه أئمة الحديث فى تصانيفهم المعتمدة المشهورة التى يؤمن فيها لشهرتها من التغيير والتحريف وصار معظم المقصود بما يتداول من الأسانيد خارجا عن ذلك ابقاء سلسلة الاسناد التى خصت بها هذه الأمة »[2] . وحين يقولون « أعرض الناس فى هذه الأعصار المتأخرة عن اعتبار مجموع

---

(١) ١٣٢ ابن الصلاح (٢) ١٢ المصدر السابق

ما بينا من الشروط فى رواة الحديث ومشايخه فلم يتقيدوا بها فى رواياتهم لتعذر الوفاء بذلك على نحو ما تقدم وكان عليـــه من تقدم ووجه ذلك ما قدمناه فى أول كتابنا هذا من كون المقصود المحافظة على خصيصة هذه الأمة فى الأسانيد والمحاذرة من انقطاع سلسلتها . . . وقد سبق إلى نحو ما ذكرناه الحافظ الفقيه أبو بكر البيهقى رحمه الله تعالى فإنه ذكر فيما روينا عنه توسع من توسع فى السماع من بعض محدثى زمانه[1] » .

الإبقاء على الاسناد لم يكن فيما يروى البيهقى ومن يذهب مذهبه من أصحاب علوم الحديث لبيان صحة النقل ومعرفة الصحيح من الحسن من الأحاديث فتلك مهمة قد فرغ منها الرواة الأولون وإنما كان ذلك ابقاء على تلك الخصيصة الشريفة التى اختصت بها هذه الأمة .

إذا عرفنا هذه المسائل استطعنا فى سهولة ويسر أن نفهم نظرية الاسناد فى الأدب وفى الأخبار وأن نقـــدر أو نفسر لماذا أعرض الأدباء والاخباريون عن اعتبار مجموع الشروط التى يشترطها أصحاب علوم الحديث فى رواة الحديث ومشايخه . واستطعنا أن نقدر تبعا لذلك موقف أبى الفرج من الاسناد وكيف أنه وقف عند الاسناد موقفا يخالف الكثيرين ممن سبقوه أو عاصروه من الأدباء والاخباريين .

حاول الأدباء والاخباريون عند تدوينهم للنصوص الأدبية والاخبارية تطبيق نظرية الاسناد فى ميدانهم لنفس الأسباب التى وجدت عند المحدثين وهى الاختلاف بين المرويات . ولقد كان الاختلاف فى هذا الميدان أكبر وأضخم لأن التراث فى نفسه واسع المدى فهو أكثر طولا وعرضا بعيد المسافات الزمنية وشاسع الأطراف المكانية . ثم أن الرواة أنفسهم كانوا من القلة بحيث يعجزون عن أن يجاروا المحدثين من حيث القيام بالعمل فلقد

(١) ١٣٢ المصدر السابق

كانت عواطفهم نحو عملهم أضعف من عواطف المحدثين وكانت كثرة المحدثين العددية والنهى الموجود عندهم عن وضع الأحاديث والوعيد الذى تهددهم به النبى عليه السلام كل ذلك جعل ميدان الاختلاف أضيق فى الحديث عنه فى الأخبار والأدب .

حاول الاخباريون تطبيق نظرية الإسناد فى الأخبار والأدب ولكنهم لم ينتهوا من ذلك إلى نتيجة علمية محققة ويرجع ذلك فيما نرى إلى جملة أسباب نذكر منها أولا . طول المدة الزمنية وذلك لأن المحدثين حينما طبقوا نظرية الاسناد على رواة الأحاديث فى العهد السابق لنشأة هذه النظرية وجدوا أمامهم زمنا ليس بالطويل وأجيالا من الرجال ليسوا بالعديدين . فالزمن هو العهد بين النبى عليه السلام وبين عصر الجمع والتدوين الذى بدىء به فى آخر العصر الأموى أو فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو عهد لا يتجاوز القرنين وهى أجيال لا تتجاوز الثلاثة فى أغلب الأحيان .

على أن المحدثين قد حاولوا رد هذه المدة الزمنية إلى ما يقرب من قرن وذلك بحرصهم على العلو فى السند وبجعلهم الصحابة جميعا من العدول [1] .

أما رواة الأدب والأخبار فقد وجدوا أمامهم أجيالا كثيرة وقرونا متطاولة قد ترجع بهم لا إلى العصر الجاهلى فحسب بل إلى خلق العالم وإلى سرد قصص حول آدم وابنيه قابيل وهابيل وإلى رواية أشعار لهم وأخبار لمن جاء بعدهم من الأنبياء عليهم السلام .

على أنا لو وقفنا فقط عند العصور التاريخية الجاهلية والإسلامية والأموية لوجدنا أزمنة متطاولة وأجيالا من الرجال ولشعرنا بأن أقامة الاسناد عملية

---

(١) ٥٩ — ٦١ ، ٢١٥ ابن الصلاح

شاقة عسيرة إن لم تكن مستحيلة ومن هنا نفهم لماذا وقفت السلاسل فى كتب الأدب والأخبار الأدبية فى الغالب عند الرواة الأولين الذين قاموا بالجمع والتدوين من أمثال أبى عبيدة والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء ومن اليهم وفى كتاب الأغانى صور واضحة لأخبار هذه العصور تمثل هذه الظاهرة ويستطيع من يشاء أن يرجع إليها فى قص أبى الفرج لأخبار أيام العرب وفى ترجمته لكثير من الشعراء من أمثال المرقش الأكبر وأعشى همدان والوليد بن عقبة وأبى قطيفة والحطيئة وتأبط شرا وعبده بن الطبيب وغيرهم.

وإذا كان لابد لنا من كلمة نقولها قبل الانتقال إلى الحديث عن سبب آخر غير هذا فانا نقول انه كلما اقتربنا من عصر أبى الفرج كانت اقامة السلاسل أيسر وكلما كان المترجم له قريبا من عصر أبى الفرج كان النقل أصح

ثانياً — هناك ضرورة ثانية دعت الرواة إلى عدم العناية بالسند أو إلى اهماله فى قبول المرويات . هى قلة الأخبار التى تروى حول بعض الشخصيات فلقد كانت هذه العلة سببا قوياً من الأسباب التى دفعت الرواة إلى تقبل كل ما يقال وتلقيه بالبشر والترحاب وذلك واضح فى ترجمة أبى الفرج لبعض الشخصيات فلقد كان الرجل لا يجد ما يرويه فى بعض الحالات وكان فى بعضها الآخر لا يجد إلا خبرا أو خبرين وليس من المعقول أن يهمل أمثال هذه الأخبار وأن يشترط فى رواتها العدالة والقدرة على الضبط والتحرى . أنه فى موقف يدعوه إلى الأخذ وإلا ظلت الشخصية غامضة أو مجهولة غير مصورة ونور باهت خير من ظلام دامس أو من جهالة عمياء . وإذا أردنا أن نضرب لذلك المثل أشرنا إلى هذه النصوص من كتاب الأغانى .

يقول أبو الفرج بصدد حديثه عن محمد نعجه « ولم أجد لهذا المغنى خبراً ولا ذكرا فى موضع من المواضع أذكره [1] .

---

(١) ١٧٨ / ٧ أغانى . ساسى .

ويقول بصدد حديثه عن عبد قيس بن خفاف البرجمي «وأما عبد قيس ابن خفاف البرجمي فانى لم أجد له خبراً أذكره إلا ما أخبرنى به قدامة ابن جعفر قال . . . (١) » .

إن قلة أمثال هذه الأخبار هى التى دفعت الرواة إلى قبولها من غير العدل الثقة من الكافر المشرك ومن الأمة ومن الغلام الصغير وبعبارة أخرى دفعتهم إلى تقبل كل ما يقال حتى ولو كان هـــذا الذى يقال من الشائعات وفى الأغانى صور لأمثال هذا عند ترجمته لكثير من الشعراء كذى الرمة وتأبط شرا والصعاليك . بل نستطيع أن نعد تدوينه لأخبار أيام العرب فى الجاهلية ولأخبار بعض الجاهليين كان من قبيل تدوين الشائعات ولقد نص أبو الفرج على ذلك عند ترجمته لعبد الله بن هارون ابن السميدع (٢)

وإذا كان لابد لنا من كلمة نقولها أيضا فى هذا الموقف فأنا نقول . يجب أن نحذر الشائعات فلا نبنى عليها أحكامنا التاريخية ويجب أن نقدر فى كل موقف نقفه قيمة كل خبر وأن نذكر دائماً الأصل القائل . الضرورات تبيح المحظورات .

ثالثاً — والسبب الذى يجب أن نعنى به فى هذا المقام هو أن الاسناد فى باب الحديث وما يترتب عليه من صحة فى النقل يلزم أمراً ويصل بالباحث إلى نتيجه هى الايمان بالحقيقة الشرعية ووجوب العمل بما تدعو إليه ومن هنا كان حرص الأقدمين من الفقهاء على الحذر فى قبول المرويات من الأحاديث . أما فى باب الاخبار فلن يثبت تطبيق النظرية فى إحكام

---

(١) ١٥٢ / ٧ أغانى . . بولاق (٢) ١١ / ٦ أغانى . ساسى .

ودقة أكثر من صحة النقل ولا شيء وراء ذلك من وجوب العمل بمقتضى ما يدعو إليه الخبر أو المروى الأمر الذى نجده فى الأحاديث . ولعله من هنا كانت التفرقة بين المحدثين والاخباريين لأن الحقيقة الشرعية لاتقاس بالعقل عند أصحاب النقل من الفقهاء وليس ذلك إلا لأنها من الشارع الحكيم . أما الحقيقة الاخبارية فتخضع لحكم العقل والمنطق وتقاس بهما وليس ذلك إلا لأنها أولا وأخيرا خبر من الأخبار وهى شهادة من شخص تجوز عليه الغفلة ويجوز عليه الخطأ والنسيان مهما يقل فى شأنه من عدالة ومن قدره على الضبط . ولقد فطن بعض الاخباريين القدماء إلى هذه الفروق ووقف بعضهم عندها طويلا وإنا لنرى ابن قتيبة يقول (حدثنى أبو الخطاب . . . عن ابن عباس قال خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه فانه قد يقول الحكمة غير الحكيم وتكون الرمية من غير الرامى وهذا يكون فى مثل كتابنا لأنه فى آداب ومحاسن قوم ومقابح أقوام والحسن لا يلتبس بالقبيح ولا يخفى على من سمعه من حيث كان فأما علم الدين والحلال والحرام فإنما هو استعباد وتقليد ولا يجوز أن تأخذه إلا عمن تراه لك حجة ولا تقدح فى صدرك منه الشكوك [1]) .

ونستطيع أن نحيلك فى هذه المسألة إلى مقدمة ابن خلدون ففى الفصل الأول منها بيان واف عن هذه المسألة وأمثلة تقرر هذه الحقيقة وتطلعنا على كثير من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المؤرخين الاقدمين .

هذه الأسباب مجتمعة ومضافا إليها ما سبق أن أشرنا إليه من تساهل المحدثين فيما هو من باب القصص والأخبار ومن تساهل الاخباريين فيما

---

(١) ع مقدمة عيون الأخبار . ط . دار الكتب .

هو من باب الامتاع والمؤانسة كل ذلك قد دفع بعض الاخباريين إلى التهاون فى إقامة الاسناد والاعتماد على هذه النظرية فى إيراد النصوص وفى قص الأخبار . يقول ابن عبد ربه (وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والإيجاز وهرباً من التثقيل والتطويل لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة وشريعة مفروضة فكيف لا تحذفه من نادرة شريفة ومثل سائر وخبر مستطرف . [١] .

ويذكر ابن عبد ربه عن الأصمعى ما يفيد أنه كان لا يعتمد كثيراً على نظرية الاسناد هذه (وروى الأصمعى خبراً فسئل عن اسناده فقال هو من الآيات المحكمات التى لا تحتاج إلى دليل وحجة [٢]) .

وكان نفطويه يقول (ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد من المبرد وأبى العباس ابن الفرات [٣]) .

ونستطيع أن نضم إلى ما تقدم مانعرفه عن ابن سلام والمرزبانى صاحب معجم الأدباء فقد كان كل منهما يروى الأخبار الأدبية من غير اسناد .

كان من صنيع بعض الاخباريين إيراد المرويات بغير أسانيد للعوامل المتقدم ذكرها . ولكن بعضهم الآخر ومنهم أبو الفرج كانوا حريصين على الاسناد . وحرص أبى الفرج عليه واضح فى الأغانى والمقاتل لاسيما فى بعض المواطن التى يشعر فيها أبو الفرج بأن فى الاسناد نقصا إذ نراه

---

(١) ١/٤ العقد الفريد . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٢) ٥ المصدر السابق . (٣) ١٩/١١٢ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

يقف ليدل على هذا النقص أو يشير إليه وذلك من مثل مواقفه فى المواطن الآتية :

١ — أخبرنا أبو خليفة عن محمد بن سلام موقوفا عليه لم يتجاوزه إلى غيره [١]

٢ — وحدثنى به محمد بن عمران المؤدب بإسناد لست أحفظ الاتصال بينه وبين الكلبى فيه [٢] .

٣ — وما وجدت هذا الشعر فى دواوين عمر بن ربيعة التى رواها المدنيون والمكيون وإنما يوجد فى الكتب المحدثة والاسنادات المنقطعة [٣]

٤ — وجدت فى كتاب الشاهينى بغير اسناد [٤]

٥ — وأخبرنى الصولى أيضا بغير اسناد [٥] .

٦ — وجدت فى بعض الكتب بغير اسناد [٦] .

٧ — ووجدته أيضا فى بعض الكتب بغير هذا الاسناد عن الأصمعى [٧] .

٨ — نسخت من كتاب محمد بن العباس اليزيدى بخطه يأثره عن خالد ابن كلثوم بغير اسناد متصل بينهما أن رجلا . . . الخ [٨]

هذا الحرص من أبى الفرج على إيراد الأخبار والأقاصيص مسندة فى سلاسل من الرواة لا يمكن أن يعلل بأن أبا الفرج كان يرى فى الإسناد

---

(١) ٩/١٠ أغانى . ساسى (٢) ١٦/٧٢ المصدر السابق
(٣) ١٩/٥٢ المصدر السابق (٤) ٨/٢١ المصدر السابق
(٥) ٩/٩٧ المصدر السابق (٦) ١١/٣٥ المصدر السابق
(٧) ١٥/٥٧ المصدر السابق (٨) ١١/٨٧ المصدر السابق

دليلا على صدق الخبر فى ذاته لأن أبا الفرج نفسه يروى قصصا فنية وأخبارا مصنوعة ويدل هو على مكان الصنعة فيها بالسند المتصل فى بعض الحالات ثم لأنه كان يورد الأخبار أحيانا لا لقوة السند بل لتمام الأخبار ومن هنا كان يعرض أو يتهاون فى شأن الاسانيد فلا يتعب نفسه بالبحث عنها كما هو الواضح من الخبر الذى حدثه به محمد بن عمران المؤدب السابق ذكره ومن الخبر التالى ، وقد سمعت خبره من جهات عدة إلا أنه لم يحضرنى وقت كتبت هذا الخبر غيره ، وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسناداً فهو من أتمها [1] » .

شأن أبى الفرج إذاً فى إيراد الاسناد أنه كان من رواة الحديث وكان من رواة الأخبار الدينية . ولقد قلنا أن هؤلاء بعد أن فرغوا من عملية الجمع والتدوين أبقوا على الاسناد لا لأنه يؤدى مهمة علمية أو غرضا نقدياً وإنما حرصاً على هذه الخصيصة الشريفة التى خصت بها الأمة الإسلامية وهذا هو الواضح من صنيعه فى كتبه .

وإذا كان لا بد لنا من كلمة نقولها فى هذا الموقف فهى أنه يجب ألا يخدعنا إيراد الأخبار مسندة فى كتاب الأغانى ، وإنما يجب علينا أن نقف عند كل خبر لنسبر غوره ونقيسه بمقياس الحقائق التاريخية ذلك المقياس الذى أشار إليه ابن خلدون فى المقدمة والذى فصله كل من الأستاذ أسد رستم والدكتور حسن عثمان الأول فى كتابه مصطلح التاريخ والثانى فى كتابه منهج البحث التاريخى .

رابعا — أما الرابعة فتلك التى تخص حالات التحمل ومراتبه .

---

(١) ١٤٤٠ أغانى . ساسى

والحديث عن هذه الحالات وهذه المراتب ليس إلا الحديث عن الصلات التى تكون بين الشيوخ وبين الطلاب حين يتعاونون على إيراد المرويات وتبليغها الناس . وهو حديث لا يكون من حيث ما يشترط فى الشيوخ من عدالة ولا من حيث ما يشترط فى الطلاب من قدرة على الضبط والتحرى وإنما يكون من حيث القصد فى التروية أى القصد فى أن يأخذ الطلاب عن الشيوخ وأن يرووا عنهم .

والحديث عن هذا القصد يجرى فى كتب أصحاب الحديث من حيث ما يأتى :

١ — يجرى أولا من حيث الحالات التى كان عليها التحمل فيجرى حول التحديث والإملاء والقراءة على الشيخ . ويجرى حول المكاتبة والاجازة والمناولة . ويجرى حول الأعلام والوصية بالكتب والوجادة . يجرى حول هذه الحالات لبيان مدى ما تفصح به كل واحدة منها عن القصد فى التروية .

٢ — ويجرى ثانيا من حيث المصطلحات اللغوية التى يعبر بها عن كل حالة من هذه الحالات فيبحثون عن مدلولات أخبرنا وحدثنا وسمعت وقال وذكر !! الخ .

٣ — ويجرى ثالثا حول المرتبة التى تحتلها كل حالة من هذه الحالات السابقة من حيث القصد فكل حالة يكون القصد فيها أوضح وأبين تكون أقوى وأشد ويكون الإيمان بالمرويات أوجب والعمل بمقتضاها ألزم ومن هنا نراهم يجعلون التحديث أقوى من الإجازة والمكاتبة أقوى من الوجادة وهكذا .

ونحن لا نريد فى هذا الموقف أن نتحدث عن هذه المسائل جميعها . لا نريد أن نقف عند كل واحدة منها لنبحثها وندرس الآراء التى تدور حولها ونردها إلى المدارس التى فيها نشأت والمذاهب التى عنها صدرت ثم ننتهى من كل ذلك إلى ما يبين وجهة نظرنا فى هذه المراتب من حيث هى حالات فى النقل وفى الرواية . حالات تدفع إلى الثقة بالمرويات وتدعو إلى الإيمان بقضاياها . لا نريد أن نفعل شيئا من ذلك لعدة أسباب :

أولها — أنا ونحن جميعا نعلم أن المذاهب الفكرية لا تنشأ فى يوم وليلة وأن المصطلحات العلمية لا تستقر فى لحظة وساعة لا نستطيع الانتهاء من من هذه المسائل إلى نتائج علمية محققة ولها خطرها فى ميدان البحث العلمى إلا بعد درس هذه المسائل جميعها من جديد وإلا بعد إقامة هذا الدرس على أساس من البحث التاريخى . لا بد لنا أولا من درس الرواية والرواة . درس كيف نشأت الرواية وكيف عبد الرواة الأولون طريقها ويسروا سبلها ووضعوا الأسس التى قامت عليها الغالبية العظمى مما نرى فى كتب أصحاب علوم الحديث من قواعد وتقاليد .

لا بد لنا من درس الآراء الكثيرة فردية وجماعية ولا بد من درس المذاهب والمدارس فى البيئات المختلفة كيف نشأت ؟ وكيف نمت وترعرعت وكيف تسلطت فدفعت بالباحثين إلى لون معين من التفكير وإلى لون بذاته من القيم تقاس به المرويات وتوزن ؟

لا بد لنا من هذا الدرس وإلا عجزنا عن تفسير كثير من الظواهر وقعدنا حيارى أمام كثير من المسائل وأنى لنا أن نفسر ذهابهم إلى أن المسموعات أقوى من المكتوبات وأن التحديث أفضل من المكاتبة بل أفضل من القراءة على الشيخ دون أن نفهم النشأة الأولى للرواية وكيف

كانت وسيلتها السماع وأداة ضبطها هى الحفظ . لقد كانت الأمة أمية ولم يكن لها من وسيلة غير ما تقدم . وظل الحال على هذا سنين متطاولة حتى انتصرت الكتابة وحتى أصبحت وسيلة الضبط فى الرواية يجرى القوم عليها كما يجرون على السماع والحفظ . لكن بقى لهذين السلطان وظل القوم يفضلون السماع أو يفضلون التحديث على المكاتبة وليس لهذا التفضيل من تعليل أو تفسير إلا بفهم هذه النشأة وبالوقوف على هذه التقاليد .

إن التقاليد وحدها هى التى تفسر لنا هذه المسائل ولا نستطيع فهم هذه التقاليد إلا بعد درس الرواية والرواة على أساس من البحث التاريخى الأمر الذى يحتاج إلى بحوث وإلى تضافر جهود ولا تنفع فيه الفقر أو الفقرات ومن هنا كان إعراضنا عن هذه البحوث فى هذا المقام .

ثانياً — أنا مع تسليمنا ولو على سبيل الفرض الجدلى بصحة ما يذهب إليه الأقدمون من أصحاب علوم الحديث من تصوير للرواية والرواة وللمدارس والمذاهب وللبيئات الحجازية والكوفية والشامية . إلخ . . . لا نستطيع أن نعتمد على بحوثهم فى هذا المقام لأنها بحوث نشأت عند المحدثين ولم تنشأ عند الإخباريين وتقاليد أولئك غير تقاليد هؤلاء ومن هنا لا تكون هذه الدراسات أو الاعتماد عليها منتجة فى هذا المقام .

نعم نحن لا ننكر أنها الدراسات التى قامت حول النقل وصحته وأن هذه الدراسات لا غنى عنها فى ميدان الأخبار من حيث هى وسائل للنقل ولكنا نعلم أن هذه الوسائل حين تكون الحالات والمراتب تكون قليلة النفع عديمة الجدوى فى ميداننا هذا .

أن الإيمان بالمرويات ووجوب العمل بمقتضياتها فى ميدان الحديث إنما يجىء من صدورها عن الشارع الحكيم عن الذى لا ينطق عن الهوى

وعن قوله لا يجيئه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى ولو لم يخضع هذا المروى لحكم العقل وقواعد المنطق عند أصحاب الرواية من الفقهاء والمشرعين. ومن هنا تكون صحة النقل ضرورة من الضرورات. ومن هنا تكون المفاضلة بين المرويات . ومن هنا تجيء المراتب ويكون لكل مرتبة حكمها. وتجرى الأمور فى هذا الميدان على أساس أنه كلما تأكدت صحة النقل زادت الثقة بالمروى ووجب الإيمان به والعمل بمقتضاه . أما فى ميدان الأخبار فلا شيء من ذلك لأن الأخبار إنما تصدر عن غير الشارع الحكيم تصدر عن الذى قد ينطق عن الهوى وقد يجيء حديثه الباطل من بين يديه أو من خلفه ومن هنا لم يجب الإيمان بالمروى حتى تثبت صحة النقل ومن هنا كانت للإخباريين مقاييس أخرى التفت ابن خلدون إلى بعضها ودرس كل من أسد رستم والدكتور حسن عثمان كثيراً منها كما سبق أن أشرنا ومن هنا لا تجد الحديث عن المراتب والحالات فى هذا المقام جليل النفع عظيم الخطر .

ثالثاً — إنا لم نعقد هذه الفقرة إلا لبيان الخصائص والتقاليد التى كان يجرى عليها أبو الفرج فى مروياته من حيث هذه الحالات والمراتب . ومن هنا يجب أن نقف عندها وأن نعنى بها فإن خرجنا فإلى ما يفسر ظاهرة أو يوضح قاعدة ما دام أبو الفرج قد جرى على أساليب المحدثين فى إيراده للأخبار . أما أن نمضى بعد ذلك فنحكم على هذه المرويات بالصدق وتلك بالكذب والوضع لأن هذه وسيلتها التحديث وآلة ضبطها هى الحفظ وتلك وسيلتها المكاتبة وآلة ضبطها هى الكتابة أو لأن هذه فى المرتبة الأولى وتلك فى الثالثة فأمر خارج عن عملنا .

أبو الفرج من الإخباريين الذين يذهبون مذهب المحدثين فى الرواية

وأوضح خصائص هذا المذهب إنما تظهر عنـــد أبى الفرج من دقته فى تصويره للحالات التى قامت عليها رواية الأخبار ومن حرصه فى بيان القصد فى الرواية . وتلك الدقة وهذا الحرص إنما يظهران بوضوح من النصوص التالية .

١ — حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد على سبيل المذاكرة فحفظته عنه لم أكتبه من لفظه والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد . . . (٤٠٨ مقاتل)

٢ — فحدثنى على بن إبراهيم العلوى عن نفسه أو رواه عن غيره أنا أشك قال . . . (٤٥٩ مقاتل)

٣ — حدثنا محمد بن العباس اليزيدى على سبيل المذاكرة قال . . . (٣٣٨ مقاتل)

٤ — وحدثنى بعض أصدقائنا عن أبى بكر بن دريد ولم أسمعه منه قال . . . (١٥/١٥٠ أغانى ساسى)

٥ — أخبرنى عبد الله بن الربيع أبو بكر الربيعى صديقنا رحمه الله قال حدثنى وسواسه بن الموصلى وقد لقيت وسواسه هذا وهو أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم وكان معلماً ولم أسمع هذا منه فكتبته وأشياء أخرى عن أبى بكر رحمه الله . . . (٦/١٥ أغانى ساسى)

٦ — أخبرنى عمى والحسن بن على ومحمد بن يحيى وجماعة من أصحابنا وأظن أيضا جحظه حدثنا به قالوا . . . (٩٨/ ١٥) .

٧ — حدثنا محمد بن جرير . قرأته عليه . قال . . . (٩٧/ ٦)

٨ — وأخبرنى أبو خليفة فيما كتب به إلى عن محمد بن سلام . . . (٧٥/ ١١) .

٩ — أخبرنى جعفر بن محمد بن عبيد بن عتبة فى كتابه إلى قال . . . (١٢١/ ١٥) .

١٠ — كتب إلى على بن العباس المقانعى قال . . . (٤٨٤ . مقاتل) .

١١ — أخبرنى أبو جعفر أحمد بن محمد بن نصر الضبعى اجازة قال .. (٢٩ / ١١ أغانى . ساسى) .

١٢ — أخبرنى محمد بن يزيد اجازة عن حماد بن اسحاق ... (١/١٤٨)

١٣ — قال الزبير بن بكار فيما أجازلنا الحرمى بن أبى العلاء والطوسى روايته عنهما مما حدثا به عنه . . . . (١١/٥٢) .

١٤ — نسخت من كتاب أبى عبد الله اليزيدى ولم أقرأه عليه قال . . . (١١ / ٩٤) .

١٥ — ونسخت من كتاب أحمد بن الحرث الخراز ذلك ولم أسمعه إلا أن عيسى بن الحسين دفع الكتاب الذى نسخت هذا منه إلى وقال لى هذا كتاب أحمد بن الحرث . . . (٣٩٠ ، ٣٩١ مقاتل) .

١٦ — نسخت من كتاب لمحمد بن داوود الجراح خبره ذكر أن عبد الله بن سليمان السجستانى دفعه إليه وأخبره أنه سمعه من عمر بن شبه وأجاز له روايته . . . (١٥٩ / ٢٠) .

١٧ — نسخت من كتاب أحمد بن الحرث مما أجازلى أبو أحمد الحريرى روايته عنه . . . (٨٠ / ٤) .

١٨ — نسخت خبره فى ذلك من كتاب محمد بن الحسن بن دريد ولم أسمعه منه قال . . . (١٠٧ / ١٧) .

١٩ — فمن ذلك نسخت من كتاب أعطانيه أبو الفضل العباس بن أحمد ابن ثوابه رحمه الله بخط اسحاق فى قرطاس وأنا أعرف خطه وجواب لابراهيم بن المهدى . . . (٦٩ / ٩) .

٢٠ — ونسخت من كتاب لاسحاق بن ابراهيم الموصلي فيه اصلاحات بخطه والكتاب بخط النضر بن حديد من أخبار عبد الله بن الزبير وشعره . . (١٣ / ٤٢) .

٢١ — أخبرني بخبرها محمد بن إبراهيم قريض أن ابن المعتز دفع إليه كتابه الذي ألفه في أخبارها وقال له أن يرويه عنه فنسخت منه ما كان يصلح لهذا الكتاب على شرطي . . . (١٤ / ١٠٥) .

٢٢ — نسخت من كتاب جدي لأمي يحيى بن محمد بن ثوابه بخطه ... (٨ ، ١٣/٣٢) .

٢٣ — نسخت من كتاب لأبي العباس بن ثوابه بخطه . . . (١٧/١٣٧)

٢٤ — ونسخت من كتاب للشاهيني بخطه . . . (١٦٢ / ٢٠) .

٢٥ — وجدت في كتاب علي بن محمد بن نصر عن جده حمدون ابن اسماعيل ولم أسمعه من أحد أن ابراهيم بن المهدي . . . (١٤ / ٦) .

٢٦ — ووجدته في بعض نسخ الكوفيين عن سليمان بن الربيع . . . (١٦ / ٩٣) .

٢٧ — ووجدت في كتاب مؤلف في النغم غير مسمى الصانع . . . (٨/٤٤) .

٢٨ — وجدت ذلك في كتاب محمد بن عبد الله الحزنبل . . . (٢٠ / ١٧٤) .

٢٩ — ونسخت هذا الخبر أيضا من بعض الكتب . . . (١٦/١٦٣)

٣٠ — ونسخت بعضه من كتاب منسوب إلى الهيثم بن عدي . . . (١/١١) .

ولو مضينا في سرد المرويات التي يحرص أبو الفرج في روايتها على

بيان الحالات والمراتب والتى يكثر فيها من القيود ليكون البيان واضحا والوصف دقيقا لما انتهينا إلا بعد المئات من الصفحات ولعل فى الأمثلة السابقة ما يرينا مدى عناية أبى الفرج بهذه الحالات والمراتب وبتطبيقه لأسلوب المحدثين فى الرواية وإذا كان هناك من كلمة ننصح بها القارىء فهى أنه يجب أن يضع نصب عينيه دائما أن تطبيق أبى الفرج لأساليب المحدثين فى روايته للأخبار لا يعنى دائما أن أبا الفرج كان يصنع ذلك ليضع بين يدي القارىء لكتبه أنواعا من السلاسل وألوانا من الأسانيد يستطيع أن يفاضل بينها حتى يصل إلى الحقيقة فأبو الفرج إنما يفعل ذلك لأن هذه كانت التقاليد التى يجرى عليها بعض الرواة وهى التقاليد التى جاءته من اشتغاله أول عهده بالحياة برواية الحديث ويقف أبو الفرج من كل هذا عند هذا الحد وليس أدل على ذلك من أنه يروى النوادر المصنوعة على طرق المحدثين مع ايمانه بأنها نادرة مصنوعة يقصدمنها إلى الاضحاك وإلى الامتاع والمؤانسة وذلك هو الذى كان من جحظه مع ابن القصار فانا نرى أبا الفرج يقول « ومن طيب ما ثلبه به جحظه وتنادر عليه به . وأراها مصنوعة أنه . . . »[1] وغيرها كثير .

والألفاظ الاصطلاحية التى يعبر بها أبو الفرج عن الحالات والمراتب كثيرة وهى واضحة بينه وليس منها ما يحتاج إلى مزيد من البيان غير أخبر فانها التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت استعمالات غير التى جرى بها العرف العام عند المحدثين فيما بعد ونستطيع أن نعرض الآن بعض هذه الألفاظ .

ونبدأ من ذلك بما يجعلونه من المرتبة الأولى وهى حالات التحديث والاملاء وأبو الفرج يستعمل فى ذلك حدث مضافة إلى ضمير المفرد أو ضمير

---

(١) ١٢/١٦٠ أغانى . ساسى

الجمع ولا تدل حدث فى كل مرة على القصد فى الترويه فقد تكون فى بعض الحالات معبرة عن السماع فقط وذلك هو الواضح من تحديث أبى الفرج عن غير الشيوخ من الرواه من أمثال العباس بن أحمد بن ثوابه [١] وحكيم ابن يحيى [٢] أولئك الذين كان يروى عنهم أخبار الأحداث التى شاهدوها بأنفسهم . كما قد تكون معبرة عن التلقى ويكون إلى جانبها صيغة أخرى تدل على الحالات والمراتب من مثل قوله حدثنا محمد بن جرير الطبرى قرأته عليه قال [٣] ..

وقد يعبر عن التحديث بصيغة سمع كما هو الحال فى قوله . فسمعت بعض مشايخنا من الكوفيين يذكر وهو محمد بن الحسين [٤] ..

أما أخبر مضافة إلى المفرد والمجموع فيعبر بها أبو الفرج عن حالات القراءة على الشيخ وعن المكاتبات والأجازات . وقد كان أبو الفرج يعتمد فى بعض الأحيان على القيود اللفظية لبيان الحالات اجازات ومكاتبات وإن كنا لا نستطيع أن نقول إن تلك كانت عادته فى كل خبر يرويه فلم يكن من دأبه أن يقول أخبرنا فلان فيما أجاز لنا أن نرويه عنه . أو أخبرنا فلان أجازة . أو أخبرنى فلان فيما كتب به إلى .. الخ ولعله كان يترك ذلك اعتمادا منه على فهم القارىء للصلة بينه وبين الشيخ الذى يروى عنه وذلك هو الواضح من تلك المرويات التى يرويها عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعه فقد كانت الوسيلة إليها المكاتبات بين أبى الفرج وهو ببغداد وأبى الفياض وهو بالبصرة . وقد دل أبو الفرج على هذا حين ترجم لأبى شراعه [٥]

---

(١) ١٨/١٧٠ المصدر السابق .
(٢) ٦٩٨ مقاتل . مصر
(٣) ٦/٩٧ أغانى . ساسى .
(٤) ٦٤٥ مقاتل . مصر
(٥) ٢٠/٣٥ أغانى . ساسى

واكتفى بذلك وأخذ يذكر فى مروياته عن أبى الفياض هذا أخبرنا أبو الفياض من غير هذه القيود اللفظية [١] .

واستعمال أخبر فى الاجازات من غير قيد يدل على هذا كان معروفا فى ذلك الوقت وكان يجرى عليه بعض الشيوخ من الرواة . جاء فى مقدمة ابن الصلاح (وكان الحافظ أبو نعيم الأصبهانى صاحب التصاريف الكثيرة فى علم الحديث يطلق أخبرنا فيما يرويه بالاجازة . روينا عنه أنه قال أنا إذا قلت حدثنا فهو سماعى وإذا قلت أخبرنا على الاطلاق فهو إجازة من غير أن أذكر فيه إجازة أو كتابة أو كتب إلى أو أذن لى فى الرواية عنه .

وكان أبو عبد الله المرزبانى الاخبارى صاحب التصانيف فى علم الخبر يروى أكثر ما فى كتبه أجازة من غير سماع ويقول فى الاجازة أخبرنا ولا يبينها [٢] .

أما استعمال أخبرنا فى القراة على الشيخ فهو الشائع المشهور عند الرواة حتى لقد قيل بأن أخبرنا قد خصصت بهذه الحالة من حالات التحمل . جاء فى مقدمة ابن الصلاح « قلت وكان هذا كله قبل أن يشيع تخصيص أخبرنا بما قرىء على الشيخ [٣] » . وجاء « وذكر صاحب كتاب الانصاف محمد ابن الحسن التيمى الجوهرى المصرى أن هذا مذهب الأكثر من أصحاب علوم الحديث الذين لا يحصيهم أحد وأنهم جعلوا أخبرنا علما يقوم مقام قائله أنا قرأته عليه لا أنه لفظ به لى [٤] » .

أما ذكر وقال فلا تدل على لقاء ما بين الشيخ والطالب ولا على قصد فى

---

(١) ١٨/١٤٣ ، ١٩/١٢٤ المصدر السابق (٢) ١٦٣ ابن الصلاح
(٣) ١٤١ المصدر السابق (٤) ١٤٣ المصدر السابق

الترويه وتستطيع أن ترجع إلى كتاب الأغانى فترى ذلك واضحا بالنسبة إلى كل منهما [١] .

أما غير ذلك من المصطلحات من أمثال كتب إلى وقرأت عليه وأنشدنى ومن أمثال حديثه عن الكتب حين يكون الأخذ منها فمن الوضوح والبيان بحيث لا تحتاج منا إلى وقفة نبين فيها دلالتها على تلك الصلات التى تكون بين الشيوخ والطلاب من حيث الدلالة على القصد فى الترويه ولبيان المراتب والحالات .

خامساً — أما المسألة الخامسة والأخيرة من مسائل التحمل فتلك التى تخص التصحيح ونقصد به فى هذا الموطن تصحيح السماع أو تصحيح النقل وهو أن تجىء المرويات صورة طبق الأصل مما صدر عن الشيخ فى حالة السماع ومما هو فى الكتاب فى حالات المكاتبة والوجادة . . . الخ . أما تصحيح الأخطاء لغوية أو فكرية فله محله من البحث عند حديثنا عن مرحلة الأداء.

والتصحيح بالمعنى الذى نريده فى هذا الموطن إنما يكون بعد التحمل مباشرة هذا هو الذى ينص عليه أصحاب علوم الحديث . جاء فى مقدمة ابن الصلاح « وإذا نجز الاملاء فلا غناء عن مقابلته وإتقانه واصلاح ما فسد منه بزيغ القلم وطغيانه [٢] » . كما أنه الذى يفهم من هذا النص من نصوص الأغانى . وحدثنى أحمد بن عبيد الله بن عمار قال كنا نختلف إلى أبى العباس المبرد ونحن أحداث نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار وكان يصحبنا فتى من أحسن الناس وجها وأنظفهم ثوبا وأجملهم زيا ولا نعرف باطن أمره فانصرفنا يوما من مجلس أبى العباس المبرد وجلسنا فى مجلس

---

(١) راجع ١٠/١١٥، ١١/١٤٣ ، ١٧/٦ وراجع ١٣١ ، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤/١٠

(٢) ٢٠٩ ابن الصلاح

نتقابل بما كتبناه ونصحح المجلس الذى شهدناه فاذا بجاريه ... الخ [1]) .

وتصحيح أبى الفرج لمروياته غير منصوص عليه وأن يكن الأمر الثابت الذى لا يقبل جدلا وسنجد فى الفقرة التالية أن مرويات أبى الفرج عن كل من ابن جرير . وأبى خليفة عن ابن سلام . والأخفش واليزيدى عن المفضليات ليست إلا صورة طبق الأصل لما ورد فى تاريخ ابن جرير وفى طبقات الشعراء وفى المفضليات من مرويات .

ونترك التحمل بمسائله إلى أمر آخر له خطره فى الرواية وهو الضبط .

(١) ٦/١٠٣ أغانى . ساسى

الفصل الثالث

الضبط

والقدرة على الضبط شرط أساسى فى الراوية وإلا ردت مروياته [1] وأصبح غير أهل الأخذ عنه وأصبحت مروياته غير أهل للاعتماد عليها فى ميادين التشريع والأخبار والآداب .

والضبط هو ضبط المتلق أو المروى وذلك بالمشافهة الحافظة أو بالكتابة المقيدة والوسيلة الأولى وهى الحفظ أقدم الوسيلتين لأنها بنت البيئة ونتاج الحياة ولن يكون غير الحفظ وسيلة فى البيئات الأمية التى لم تنل من العلم حظا ومن المعرفة نصيبا .

والحفظ أكبر الوسيلتين حظا من حيث العناية والرعاية التى ينالها من الرواة ومن أصحاب علم الرواية حتى لنرى منهم من يرى أن الرواية لا تكون إلا عن محفوظ [2] . ومن يرى أنه إذا وجد الحافظ فى كتابه خلاف ما يحفظه اعتمد فى الاملاء على حفظه دون الكتاب ما دام قد حفظ من فم المحدث [3] . ولعله من هنا عاب بعضهم أبا الفرج بأنه ينسخ من الكتب ويأخذ عن الوراقين [4] .

واعتماد الأقدمين للحفظ فى عملية الضبط جعلهم يبحثون الحياة العقلية

---

(١) ١٥٨ الكفاية فى علم الرواية للخطيب .
(٢) ١٦٩ مقدمة ابن الصلاح . (٣) ١٨٨ المصدر السابق .
(٤) ٣٩٩ / ١١ تاريخ بغداد . للخطيب

للراوى وإلى أى حد يتأثر بما حفظه ورتبوا على ذلك أحكاما فردوا حديث أهل الغفلة [١] وقالوا بأن السيء الحفظ لا يعتد من حديثه إلا بما رواه عن أصل كتابه [٢] وتركوا الاحتجاج بمن كثر غلطه وكان الوهم غالباً على روايته [٣] . وتجادلوا فى سماع من كان ينسخ وقت القراءة [٤] وليس يخفى حال من به خرف أو أصابه مس من الجنون .

وكبر السن له حكمه كما للصغر حكمه أيضا وإذا كنا قد تحدثنا عن الصغر فى أول الفصل السابق فإنا نثبت هنا حال الكبر كما هو مصور عند الباحثين فى أمر الرواة من اللغويين إذ نراهم يقولون ومن آداب اللغوى أن يمسك عن الرواية إذا كبر ونسى وخاف التخليط [٥] .

والقدرة على الضبط لم تصبح شرطا أساسيا فى الرواية إلا بعد أن أصبحت الرواية علما له أصوله ورسومه أى إلا بعد العصر الأموى تقريبا ومركزها من هذه الناحية يشبه مركز العدالة تماما فهى أيضا لم تكن من الصفات التى تشترط فى الراوية حتى أصبحت الرواية علما تناقش مسائله وتنقد قواعده وتدور المجادلات فيه على ما يجوز وما لا يجوز . وإذا كان حماد فيما يذكر ابن سلام أول من جمع أشعار العرب وأحاديثها [٦] . فإن الأمر الذى يترتب على هذا هو أن مرويات العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام وعصر بنى أمية إلا قليلا قد رويت قبل أن تصبح العدالة ويصبح الضبط من الشروط الأساسية التى يجب توافرها فى الراوى حتى يوثق به ويطمئن إلى مروياته . ولعله من هنا كثر الخلط والاضطراب فى مرويات هذه العصور .

---

(١) ١٤٧ الكفاية فى علم الرواية (٢) ٢٢٣ المصدر السابق
(٣) ١٤٣ المصدر السابق (٤) ٦٦ المصدر السابق
(٥) ٢/٣٣٥ المزهر للسيوطى . الاخير
(٦) ١٤ طبقات الشعراء . ط . ليدن

واختلاف الروايات فيما يتعلق بأيام العرب يعطينا صورة من هذا الخلط[١] الشنيع ولقد عرض نولدكه لبعض الألوان من هذا الاضطراب فى كتابه أمراء غسان ووقف من ذلك عند صور كثيرة وردت فى كتاب الأغانى[٢]

والأمر الذى يحسن بنا أن نلتفت إليه فى هذا الموقف هو أن نفرق بين أمرين من مرويات أبى الفرج . الأمر الأول أمر أخذه عن الشيوخ . فهل كان يتحرى فيهم الشروط الأساسية ومنها القدرة على الضبط أولا ؟ وكذلك الحال فيما يختص بالكتب التى ينسخ منها وفى أصحابها .

الأمر الثانى أمره هو نفسه وإلى أى حد كان يعتبر من الضابطين .

أما مسألة الشيوخ فيظهر لنا أن أبا الفرج كان يأخذ عنهم دون أن يشترط فى ذلك شروطا معينة وبخاصة عند ما ينفرد دون بلون من الأقاصيص والأخبار وليس ذلك إلا لأنه كان يقصد إلى الجمع جمع كل ما قيل ولو كان من المصنوعات والأكاذيب . يقصد إليه لا لأنه راوية والعمل الأول للرواة هو الجمع بل لأنه كان يقصد فى بعض كتبه أو فى بعض مروياته إلى الإمتاع والمؤانسة وقد يكون فى الأكاذيب ما يمتع وفى المصنوعات ما يؤنس ويدخل السرور إلى القلوب ومن هنا كان يأخذ أبو الفرج عن الكذبة الوضاعين وعن غير الضابطين . يأخذ عن محمد بن مزيد بن أبى الأزهر وقد كان كذابا قبيح الكذب ظاهره [٣] ويأخذ عن الباغندى وقد كان مدلسا [٤] . ويأخذ عن محمد بن خلف بن وكيع القاضى وقد كان فيه لين[٥] ويأخذ عن الطوسى وقد تكلموا فى روايته كتاب النسب عن الزبير بن بكار [٦] . ويأخذ عن

---

(١) راجع يوم ذى قار ٢٠/١٣٢ أغانى ، ٢/٦٣٨ نقائض

(٢) راجع ٢٠ ، ٢٢ — ٢٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ من الترجمة العربية لكتاب أمراء غسان

(٣) ٢٨٨ — ٣/٢٩١ تاريخ بغداد (٤) ٢١٣ المصدر السابق

(٥) ٢/٢٤٩ شذرات الذهب (٦) ٢٦٤ المصدر السابق

أحمد بن محمد بن سعيد وقد ضعفوه واتهمه بعضهم بالكذب [١] . ويأخذ عن أحمد بن جعفر جحظة وقد اتهمه هو نفسه بوضع النوادر [٢] ويأخذ عن الصولى وقد كان ينقل الكتب وينتحلها [٣] . يأخذ عن كل هؤلاء ويكثر من الأخذ عن بعضهم وهم فيما نرى من غير العدول .

ثم هو يأخذ عن كتب ابن خرداذبه [٤] . وهو نفسه يتهم ابن خرداذبه بأنه قليل التصحيح لما يرويه . ويأخذ عن ابن دريد وقد كان إخوانه ينصرفون عنه لكثرة تخليطه من شدة السكر [٥] . ولا نريد أن ندلل على أخذه من الذين ينقلون أقوال من يخلط من أمثال المجنون ومان الموسوس ويحيى المكى وأبى العبر الهاشمى فلقد ترجم لهم أبو الفرج جميعا وذكر فى ترجمته لهم من الصفات العقلية ما يدل على أنهم من المخلطين أو من غير الضابطين .

وأبو الفرج ينقل عن كتاب حبشى وهو الذى يقول عنه فى بعض المواطن أنه رجل لا يحصل ما يقوله ويرويه [٦] . ثم هو الذى يقول بعد إيراده لأخبار عدى بن زيد ، قال مؤلف هذا الكتاب إنما ذكرت الخبر الذى رواه الزيادى على ما فيه من التخليط لأنى إذا أتيت بالقصة ذكرت ما يروى فى معناها وهو خبر مختلط لأن عدى بن زيد إنما كان صاحب النعمان بن المنذر . . . إلخ ، [٧] . وهو قول يدل على ما كان يذهب إليه أبو الفرج فى إيراده للمرويات من إيراد المختلطات والمصنوعات والأكاذيب .

---

(١) ٣٣٢ المصدر السابق (٢) ١٢/١٦٠ أغانى . ساسى
(٣) ٢١٥ الفهرست لابن النديم .
(٤) ٥/٣ ، ١٠/١١٥ ، ١١/١٢ أغانى . ساسى .
(٥) ١٧/١٣١ معجم الأدباء (٦) ٣/١٩ أغانى . ساسى
(٧) ٢/٣٣ المصدر السابق

أبو الفرج راوية يهمه كما قلنا الجمع . الجمع أولا وقبل كل شيء فإن عمد إلى التعقيبات والتصحيحات فهو الأمر الذى يقصد إليه فى بعض المواطن ليدل على أنه ليس راوية فحسب فى كل المواطن وإنما هو من الرواة الذين يقفون فى بعض المواطن للاجتهاد والتصحيح .

هذه حال أبى الفرج مع الشيوخ الذين يأخذ عنهم ومع الكتب التى ينسخ منها أو ينقل عنها أما حاله فى نفسه فقد كان القدماء يوثقونه[١] . ولا يذكرون له من عيب إلا أنه قد خلط قبل أن يموت[٢] .

ووسائل الضبط عند أبى الفرج الحفظ[٣] . والكتابة[٤] وكانت الكتابة أبرز وأشهر وليس يخفى أنه كان من الكاتبين فى ديوان الوزير المهلبى .

وأبو الفرج حين يحفظ كان يؤدى المعانى فى بعض الأحيان وقد كان ينص على ذلك وهذا هو أحد هذه النصوص « حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد على سبيل المذاكرة فحفظته عنه لم أكتبه من لفظه والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد[٥] » .

وإذا كان من حقنا أن نذكر رأينا فى قدرة أبى الفرج على الضبط فأنا نستطيع أن نقول — بعد مقابلتنا بين مروياته فى كتبه وبين مروياته من أخذ عنهم من الشيوخ من الذين وصلت إلينا مروياتهم — أنه كان من الضابطين . وضح لنـــا ذلك من مقابلتنا بين ما أخذه عن أبى خليفة عن ابن سلام وما جاء فى كتاب الطبقات لابن سلام . ونستطيع أن ذلك فى هذه المقابلات .

---

(١) ١١/٤٥٠ تاريخ بغداد
(٢) المصدر السابق
(٣) ٢١/١٠٦ أغانى . ساسى
(٤) ٢٩٠—٢٩٥ مقاتل . بغداد
(٥) ٢٧٢ المصدر السابق

١ — قول يونس بن حبيب فى كل من الفرزدق وجرير ٣٦ / ٧ أغانى ، وفى ٧٥ طبقات ليدن .

٢ — قول الأسيدى فى ٣٦ ، ٣٧ / ٧ أغانى ، وفى ٨٧ طبقات

٣ — قول بشار المرعث فى ٣٨ / ٧ أغانى ، وفى ٨٦ طبقات

٤ — قول العلاء بن جرير ٦٠ / ٧ أغانى ، وفى ٨٦ طبقات .

ولعل النص الكبير الواضح فى هذه المقابلات هو ذلك النص الأدبى الذى يصف فيه أبو زبيد الطائى الأسد عند عثمان ذلك النص الذى ورد فى ٢٣ ، ٢٤ / ١١ أغانى . وفى ١٣٢ — ١٣٤ طبقات إذ فيه نرى قدرة أبى الفرج على الضبط .

ووضح لنا ذلك أيضا من المرويات التى أوردها فى كتبه عن أبن جرير الطبرى لا سيما تلك التى تخص الغزوات فانها صورة مطابقة لما فى الطبرى من أخبار حول هذه الغزوات [١] .

ووضح لنا ذلك أخيراً من المرويات التى تخص أيام العرب وكان رواتها هم فى كل من الأغانى وكتاب النقائض من أمثال تلك التى جاءت عن يوم شعب جبلة [٢] .

أبو الفرج من الضابطين وإن تكن مروياته فى كتبه لم تؤخذ جميعها عن الضابطين .

---

(١) راجع ١٧٠ / ٤ وما بعدها أغانى دار الكتب ، ١٢٩٥ وما بعدها من القسم الأول طبرى ثم راجع ٢٢٤ — ٢٣٠ / ٤ أغانى دار الكتب ، ١٤٣٢ وما بعدها طبرى

(٢) ٣٣/١٠ أغانى . سامى ، ٦٥٤ / ٢ نقائض

الفصل الرابع

مرحلة الأداء

سبق أن أشرنا إلى بعض المسائل التى نستطيع أن نعد الحديث عنها من مسائل مرحلة الأداء وذلك من مثل حرص أبى الفرج على الاسناد وبخاصة إذا كانت هناك بعض العيوب كأن يكون السند موقوفا على شيخ بعينه لا يتجاوزه إلى غيره ومن مثل حرص أبى الفرج على الإفصاح عن حالات التحمل ومراتبه وبخاصة إذا كان هناك ضعف أو وهن كأن يكون المخبر أو المحدث قد أخبره أو حدثه من حفظه فى حالة المذاكرة وهى مسائل مشروحة فى الفصول الأولى من هـذا الباب . والآن نريد أن نقف عند بعض المسائل التى توضح لنا التقاليد التى كان يجرى عليها أبو الفرج فى الأداء .

وقبل أن نبدأ الحديث عن هـذه المسائل نحب أن نسير إلى مسألة قد تكون من مسائل السند ولكنها المسألة التى تتصل اتصالا كليا بالأداء وتلك هى رواية النسخة المشهورة المشتملة على أخبار باسناد واحد فان رواية أمثال هذه النسخ قد يجرى على تقليد يجيزه أصحاب علوم الحديث وهو تقليد قد يدفع بالقارىء الذى لم يعرف من اجازة المحدثين شيئا إلى الظن بالرواة واتهامهم بالتدليس .

يذهب أصحاب علوم الحديث إلى أنه يجوز لراوى النسخة المشهورة المشتملة على أخبار باسناد واحد أن يسلك أحد سبيلين . الأولى أن يكتفى بذكر الاسناد فى أول النسخة وعند أول حديث أو خبر منها . والثانية

تفريق الأحاديث والأخبار ورواية كل حديث منها بالاسناد المذكور فى أولها [١] .

كان أبو الفرج من الذين يروون فى بعض المواطن أخباراً تعتبر من قبيل رواية النسخة الواحدة وكان أبو الفرج يذكر الاسناد فى أول خبر ثم يورد المرويات كما أملاها أو قيدها صاحب النسخة وبالحالات التى كان يأخذها بها أو يتحملها عليها ومن ذلك إيراده لأخبار جميلة فان أبا الفرج إنما يروى من أخبارها ما جمعه اسحاق وغيره ولكنه حين يروى ما جمعه اسحاق عن الحسين بن يحيى فحماد بن اسحاق فاسحاق يصور الحالات كما أثبتها اسحاق فيقول حدثنى بعض أهلنا [٢] . حدثنى عمتى [٣] . حدثنى أبو أيوب . [٤] وهكذا .

هذا التصوير أو هذا التقليد لم يفطن إليه بعض الناشرين ومن هنا رأيناهم يضعون حدث بين الأقواس التى يوضع بينها من هذه الألفاظ ما يدل على أن أبا الفرج هو القائل لهذه الألفاظ وفى ذلك من اتهام أبى الفرج بالتدليس أو الايحاء باتهامه بالتدليس ما فيه ذلك لأن قارىء الكتاب قد يعتقد أن أبا الفرج قد حدث عن رجال لم يلقهم ولم يأخذ عنهم وهو أمر لا نعتقد أن أبا الفرج قد وقع فيه .

(١) ننتقل الآن إلى بعض المسائل التى نريد الحديث عنها فى هذا الفصل وأولى المسائل التى يحسن بنا أن نقف عندها هى مسألة تصنيف المرويات وهى مسألة لها أهميتها الخاصة لأنها سبيلنا إلى توضيح البواعث

---

(١) ١٩٧ مقدمة ابن الصلاح .
(٢) ٧/ ١٣٩ أغانى . سامى
(٣) ٧/١٣٣ المصدر السابق
(٤) ١١٨ ، ١٤٠ / ٧ المصدر السابق .

التى دفعت بأبى الفرج إلى أن يكون راوية أكثر منه مؤرخا . كما أنها سبيلنا إلى إيضاح ما سبق أن أشرنا إليه فى المقدمة من تلك العيوب التى تلحق البحوث العلمية حين يعمد المؤلفون إلى التقسيم والتبويب قبل جمع المواد والكشف عن الحقائق .

وأبو الفرج يجرى فى تصنيف المرويات على أساس الموضوعات لا على أساس المسانيد وهى موضوعات يحددها فى مقدمات كتبه كما هو الحال فى كتاب الأغانى وكتاب مقاتل الطالبيين .

وموضوعات أبى الفرج التى تدور حولها المرويات هى الأشخاص أشخاص المقتولين من آل أبى طالب فى كتاب المقاتل وأشخاص الشعراء والمغنين فى كتاب الأغانى وبخاصة أصحاب الأصوات المائة والخلفاء وأولادهم أو من له شعر غنى فيه

وطريق أبى الفرج فى كتاب المقاتل سهلة لينة ذلك لأنه اختار الترتيب الزمنى أساسه الأول فى ترتيب الأشخاص فى الكتاب فبدأ بأول قتيل فى الاسلام وانتهى إلى آخر قتيل قتل فى الوقت الذى أخرج فيه هذا الكتاب للناس . وكان يختار من أخبار المقتولين ما يصور الأحداث التى انتهت بهم إلى القتل والتى صورها هو حين قال (ونحن ذاكرون فى كتابنا هذا إن شاء الله وأيد منه بعون وإرشاد جملا من أخبار من قتل من ولد أبى طالب منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الوقت الذى ابتدأنا فيه هذا الكتاب . وهو جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة للهجرة . ومن احتيل فى قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه على السياقة لتواريخ مقاتل من قتل منهم ووفاة من توفى بهذه الأحوال لا على

قدر مراتبهم فى الفضل والتقدم . ومقتصرون فى ذكر أخبارهم على من كان محمود الطريقة سديد المذهب لا من كان بخلاف ذلك أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عيث وافساد [١] .

أما طريق أبى الفرج فى كتاب الأغانى فصعبة ملتوية ومن هنا اخترنا الوقوف طويلا عندها لنتبين الصعاب ولنتبين البواعث التى بعثت أبا الفرج على أن يختار طريق الرواه .

أساس الترتيب عند أبى الفرج فى كتاب الأغانى ليس الزمن وليست الأسماء مرتبة ترتيبا أبجديا أو مرتبة حسب القبائل أو البلدان . بل ليس أساســـه الأشخاص على الاطلاق . أن ترتيب الكتاب إنما يقوم على الأصوات . الأصوات الثلاثة والأصوات المائة وأغانى الخلفاء وأولادهم ثم أغانى المشهورين من المغنين والمغنيات . وهذا هو الذى نص عليه أبو الفرج حين قال (ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبوابا على طبائق الغناء أو على طبقات المغنين فى أزمانهم ومراتبهم أو على ما غنى به من شعر شاعر . والمانع من ذلك والباعث على ما نحوناه علل منها إنا لما جعلنا ابتداءه الأصوات المختارة كان شعراؤها من المهاجرين والأنصار وأولهم أبو قطيفة وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول ثم عمر بن أبى ربيعة ثم نصيب فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ولم يكن ترتيب الشعراء فيه الحق آخره بأوله وجعل على نسب ما حضر ذكره وكذلك سائر المائة صوت المختارة فانها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين وليس المغزى فى الكتاب ترتيب الطبقات وإنما المغزى فيه ما ضمنه من ذكر الأغانى بأخبارها وليس هذا مما يضربها . ومنها ... الخ [٢] .

---

(١) ٤ ، ٥ مقاتل الطالبيين . مصر (٢) ١/٣ الأغانى . ساسى

أساس التقسيم كما ترى ليس الأشخاص وإنما هو الأصوات وهو أساس ليس من صنع أبي الفرج وإنما قام به غيره وبخاصة فى الأجزاء الأولى من الكتاب تلك التى تخبر عن الأصوات الثلاثة المختارة والأصوات المائة المختارة والأصوات التى تجمع النغم العشرة المشتملة على سائر نغم الأغانى والملاهى والأرمال الثلاثة المختارة . ومدن معبد وهى سبعة أصوات والسبعة التى جعلت بأزائها من صنعة ابن سريج وأغانى الخلفاء وأولادهم وما اعتبر من صدور الغناء وأوائله مما يعتقد أبو الفرج أنه لا يحسن تقديم غيره أمامه .

وكان على أبى الفرج أن يجرى فى إيراد المرويات على طريقة ليست من صنعه أيضاً فكان عليه أن يجرى على تلك الطريقة التى رسمها اسحاق الموصلى فى كتابه الذى بعث به إلى على بن هشام والذى أورد صاحب الأغانى صورته عند ترجمته لاسحاق [1] . والذى جعلناه من العلامات الدالة على تأثر أبى الفرج باسحاق عند حديثنا عن الجو المدرسى فى الباب الأول .

كان على أبى الفرج أن يورد أولا الصوت الذى غنى فيه المغنون ويذكر شيئا من أخباره ثم يتبع ذلك أخبار الشاعر الذى قال الشعر والمغنى الذى غنى اللحن المختار . وكان على أبى الفرج أن يعمل ذلك فى الأغانى المختارة والتى شهد لها بالامتياز صوتا وفى هذا الصنيع ما يشعرنا سلفا بما سيزج فيه أبو الفرج نفسه من متاعب وبما سيلحق كتابه من عيوب . تلك المتاعب وهذه العيوب التى نستطيع أن نعرض عليك أهمها فى هذا المقام .

١ — كان العيب الأول توزيع المرويات وتجزئة حياة الأشخاص وذلك لأن الشاعر قد يؤخذ من شعر أكثر من قطعة للغناء والمغنى قد يغنى

---

(١) ١٠/ ١٥٢ أغاني . ساسى

أكثر من صوت . وإذا كانت الأصوات هى الأساس فى التقسيم والتبويب كان معنى ذلك أن يذكر أبو الفرج مع كل صوت ما يلائمه من الأخبار ومن هنا ترجم لبعض الشعراء فى أكثر من موطن وقص أخبار بعض المغنين والمغنيات فى أكثر من مكان (١) .

٢ — وكان العيب الثانى هو التكرار وذلك لأن أخبار الصوت الواحد قد تتصل بحياة الكثيرين من الشعراء والمغنين والخلفاء والأمراء والجوارى والغلمان ومن إليهم من كل من اتصلت به الأخبار وترجم له أبو الفرج فقد كان أبو الفرج يورد هذه الأخبار مع كل شخص ترجم له ممن كانت هذه الأخبار متصلة بحياته (٢) .

٣ — وكان العيب الثالث وهو العيب الذى يعتبر من العيوب الرئيسية فى نظر المؤرخين تهاون أبى الفرج بالنقد التاريخى وجمعه الأخبار جمع حاطب الليل ثم عجلته تلك العجلة التى دفعت به إلى أن يأذن للناسخين وللقارئين بتصحيح أخبار الكتاب وبالزيادة فى عدد مروياته وذلك لأن أبا الفرج يريد أن يملأ فراغات وأن يسد خانات وهى فراغات وهى خانات تتطلب مجهودات العصبة أولى القوة لضخامة المشروع ولعظم البناء .

كان على أبى الفرج أن يملأ كل خانة وعدد الخانات كثير وإذا فلا ريث ولا مهل ولا بأس عليه من أن يكون من الرواة وألا يكون من المؤرخين. لا بأس عليه من أن يذكر الصحيح وغيره وأن يذكر المصنوعات والأكاذيب وأن يذكر كل ما عرفه الناس وتداولوه الأمر الذى أثبتناه فى الفصل الأول من هذا الباب .

---

(١) ٤٣ / ٥ المصدر السابق

(٢) راجع تراجم جرير والأخطل والفرزدق

وكان على أبى الفرج أن يملأ كل خانة ولكن أبا الفرج كان لا يجد فى بعض المواقف ما يملأ به بعض الخانات أو كان يجد ولكن ما يجده ليس إلا المصنوعات وليس إلا الأكاذيب . وهنا نجد أبا الفرج يعلن عجزه ويأذن لغيره بملء الفراغات وسد الخانات إن وقع الكتاب فى يده (١) . وبتصحيح بعض الأخبار أن عرف لها وجها من وجوه التصحيح (٢) . كما يعلن براءته من العهدة فى رواية الأخبار (٣) .

أعتقد أنه من هنا كانت هذه الزيادات التى وجدت فى الساسى ولم توجد فى نسخة بولاق والتى كانت سببا فى قيام بعض الكتب (٤) وبعض الأبحاث بل التى قد توجد فى النادرة الواحدة إذا كررت روايتها (٥) .

ولست أريد أن أبين صلة هذا القول بما ذكرناه فى المقدمة من عيوب التقسيم والتبويب ورسم صورة للموضوع قبل كشف الحقائق وجمع المواد فالصلة أقوى من أن يوقف عندها أو يفصل أمرها بالبيان .

* * *

(ب) والمسألة الثانية من المسائل التى نريد الحديث عنها فى هذا الفصل هى مسألة اللفظ والمعنى أو مسألة العبارة التى كان يعبر بها أبو الفرج عن المرويات فهل كان يؤدى المرويات بألفاظها ومعانيها أو كان يحرص على المعنى ويؤدى بعبارات من عنده .

---

(١) ١٤٤ / ٨ أغانى . ساسى .
(٢) ١٣٥/٥ المصدر السابق (٣) ١٦٤ / ١ المصدر السابق
(٤) راجع تصحيح كتاب الأغانى للشنقيطى ؛ ط الجمالية سنة ١٩١٦ م
(٥) راجع (أ) ٩٤ / ١٧ ، ٩٦ / ١٧ (ب) ٨٧ / ١٧ ، ٩٧ / ١٧
(حـ) ٩٦ / ١٧ ، ١٠٣ / ١٧

والإجابة عن هـذا السؤال تتطلب منا الوقوف أولا وقبل كل شيء على الألوان المختلفة لما جاء به أبو الفرج فى كتبه من مرويات وليس ذلك إلا لأن لأبى الفرج فى بعض هذه الألوان من الأخبار طرقا خاصة فى الأداء .

يروى أبو الفرج فى كتبه أخبار الغناء من حيث هو ألحان لها طرقها وأجناسها أو مذاهبها . ومن حيث هو أشعار غنى فيها .

ويروى أبو الفرج نصوصاً أدبية أكثرها شعر . ويروى أخباراً منها الأدبى ومنها السياسى ومنها الدينى ومنها الاجتماعى .

وأبو الفرج فى روايته للغناء لا يؤديه كما وصله إلا إذا كان على مذهب إسحق فان كان على مذهب غيره فان أبا الفرج يغيره إليه . وهذا هو نص عبارته فى هذا المقام (وكل ما ذكرنا فيه من نسب الأغانى إلى أجناسها فعلى مذهب إسحق بن إبراهيم الموصلى وإن كانت رواية النسبة عن غيره إذ كان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل إبراهيم بن المهدى ومخارق وعلويه وعمر بن بانه ومحمد بن الحرث بن شخير ومن وافقهم فانهم يسمون الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثانى وخفيفه ويسمون الثقيل الثانى وخفيفه الثقيل الأول وخفيفه وقد اطرح ما قالوه الآن وترك وأخذ الناس بقول إسحق[1]) .

وهو فى روايته للأصوات من حيث هى شعر يؤديها كما غنيت لا كما قالها الشاعر وذلك لأن من المغنين من كان يغير فى ألفاظ الشعر ويستبدلها بألفاظ تناسب المقام . جاء فى الأغانى (أخبرنى إسماعيل بن يونس الشيعى

---

(١) ١/٣ أغانى . ساسى

قال حدثنى عمر بن شبه عن ابن البواب قال . جلس المعتصم يوما للشرب فغناه بعض المغنين قوله :

وبنو العبـــاس لا يأتون لا وعلى ألسنتهم خفت نعم . . . إلخ

فقال لا أعرف هذا الشعر فلمن هو ؟ قيل للبيد . فقال وما للبيد وبنى العباس ؟ قال المغنى إنما قال . وبنو الريان لا يأتون لا فجعلته وبنو العباس فاستحسن فعله ووصله[1]) .

وأبو الفرج فى روايته للنصوص الأدبية يرويها بألفاظها وبخاصة إذا كانت من الشعر إذ ليس من حقه أن يروى شيئاً من النصوص الأدبية بالمعنى . على هذا جرى العرف ومضى الرواة .

أما أبو الفرج فى رواية الأخبار فقد كان يحرص على الألفاظ والمعانى حين ينسخ من الكتب أو حين يقرأ على الشيوخ وذلك هو الذى رأيناه من مقابلتنا بين ما جاء فى كتبه مما رواه عن ابن جرير الطبرى أو على بن سليمان الأخفش واليزيدى عن ابن حبيب وما جاء فى تاريخ الطبرى وفى النقائض الأمر الذى أشرنا إليه عند حديثنا عن الضبط فى الفصل الثالث من هذا الباب . وقد كان يحرص على الألفاظ أيضاً فى الأخبار المفردة فيما نعتقد والذى يدفعنا إلى ذلك أنه كان حين يروى بألفاظ من عنده كان ينص على ذلك فى صراحة . الأمر الذى لم نره إلا قليلا[2] .

ولعل مما يؤكد هذه المسألة أن أبا الفرج كان حين يروى الخبر الواحد عن الشيوخ الكثيرين ويريد أن يؤديه كان يختار لفظ أحدهم وينص على

---

(١) ١٤/٩٥ أغانى . ساسى

(٢) ١١/١٠١ المصدر السابق ، ٤٠٨ مقاتل مصر

ذلك فى صراحة تامة فمن ذلك قوله « وخبر السكرى أتم واللفظ له[1] » . وقوله « إلا أن رواية ابن النطاح أتم واللفظ له[2] » .

وقد كان أبو الفرج يفعل ذلك فى بعض الأحيان حين يختلف الرواة فقد كان يجمع بينهم فيما اتفقت رواتهم فيه ويفرد كل واحد منهم بخبره فيما اختلفوا فيه . جاء فى الأغانى (أخبرنى بخبره جماعة من مشايخنا منهم أحمد بن عبد العزيز الجوهرى عن عمر بن شبه ومحمد بن خلف بن المرزبان عن جماعة من أصحابه وأحمد بن عبد العزيز الجوهرى عن على بن محمد النوفلى عن أبيه . فما اتفقت رواياتهم من خبره جمعتها فى ذكره وما اختلفت أفردت كل فرد منهم بروايته[3]) .

ولكن ليس معنى ما نريد قوله أنه كان يحرص دائما على هذه المسألة فيروى الأخبار بألفاظها فانا نراه فى بعض الأحيان يذكر الأخبار مختصرة وبألفاظ من عنده وإن نص على كمال المعنى . ومن ذلك قوله بعد روايته لبعض الأسانيد « فجمعت من رواياتهم ما احتيج إلى ذكره مختصر اللفظ كامل المعنى[4] » ، وعلى العموم فحرص أبى الفرج على ألفاظ المرويات أكثر من حرصه على روايتها بالمعنى وهو حرص قد يفيد أولئك الذين يهتمون بالدراسات اللغوية والأدبية إن أرادوا درس الألفاظ واستعمالاتها فى بعض العصور وفى بعض البيئات أو أرادوا درس القصة الأدبية وتطورها .

وقد يحسن بنا فى هذا المقام أن نذكر أن من العلماء الأقدمين من لم يعتمد الرواية بالمعنى فى الميدان العلمى وذلك كالنحاة الذين لم يستنبطوا

---

(١) ١٢/١٠٥ أغانى . بولاق
(٢) ١٠/٣ المصدر السابق
(٣) ١٧/٥٢ أغانى . ساسى
(٤) ٤/١٣٩ أغانى . ساسى

النحو من أحاديث الرسول عليه السلام لأنها قد رويت بالمعنى[1] . وأن نذكر أيضا أن المؤرخين المحدثين يعتمدون على الألفاظ ودلالاتها فى نقد الأخبار وبخاصة إذا روى المؤرخ وثيقة أو خبراً وكانت ألفاظه غير ألفاظ العصر الذى ادعى أن الوثيقة قد كتبت فيه[2] . ومن هذين نستطيع أن نفهم إلى أى حد يقدم الرواة الذين يحرصون على الرواية باللفظ خدمات علمية للباحثين فى العلوم اللغوية والأدبية وللمؤرخين .

* * *

(ج) أما المسألة الثالثة ولعلها أن تكون الأخيرة فى هذا الفصل فهى مسألة التصحيحات . والمقصود بها هنا التصحيحات الفكرية لا تصحيحات النقل والسماع . وأبو الفرج يقف فى مواطن قليلة لأمثال هذه التصحيحات ويجىء بها بعد إيراده للأخبار بحالتها التى أخذها بها عن الشيوخ .

وتصحيحات أبى الفرج قليلة ولكنها على قلتها تشعرنا بقدرة أبى الفرج على النقد التاريخى واستعداده حين يمهل ويتريث لأن يكون من المؤرخين .

والأسس التى يستند إليها أبو الفرج فى نقده للمرويات وفى تصحيحه لها كثيرة نستطيع أن نذكر منها على سبيل المثال ما يلى .

١ — معرفته بالتاريخ وذلك من مثل قوله تعقيبا على بعض الأخبار (قال مؤلف هذا الكتاب هكذا أخبرنا ابن المرزبان بهذا الخبر وأظنه غلطا لأن دحمان لم يدرك خلافة الرشيد وإنما أدركها أبناء زبير وعبد الله

---

(١) ص ٥ وما بعدها ج ١ خزانة الأدب
(٢) ٨٣ وما بعدها منهج البحث التاريخى

فإما أن يكون الخبر لأحدهما أو يكون لدحمان مع غير الفضل بن يحيى[١]) ومن مثل موقفه من ابن الكلبي ذلك الموقف الذى يعلن فيه خطأ هذا المؤرخ فى حديثه عن مليكة[٢] .

٢ — البحث ومحاولة الاستقصاء وذلك من مثل قوله تعقيباً على إحدى الروايات ، وذكر يحيى بن على بن يحيى عن إسحاق أن الشعر للأعشى وذلك غلط وقد التمسناه فى شعر كل أعشى ذكر فى شعراء العرب فلم نجده ولا رواه أحد من الرواة لأحد منهم ووجدناه فى شعر ابن المولى من قصيدة له طويلة جيدة وقد أثبتناه بعقب أخباره ليوقف على صحة ما ذكرناه[٣] . ، ومن مثل قوله ، وقد كنا وجدنا هذا الشعر فى رواية على بن يحيى عن إسحاق منسوبا إلى المرقش وطلبناه فى أشعار المرقشين جميعا فلم نجده وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا فى شعر داود بن سلم وفى خبر أنا ذاكره فى أخبار داود[٤] . ،

٣ — عدم مشاكلة الخبر للعصر والبيئة وذلك من مثل قوله فى حق جحظة عند ترجمته للنصيبى ، وذكر جحظة فى كتاب الطنبوريين فأتى من ذكره بشىء ليس من جنس أخباره ولا زمانه[٥] . ، وقوله فى حق ابن الكلبي عند روايته لأخبار دريد ، هذه الأخبار التى ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها والتوليد بين فيها وفى أشعاره وما رأيت شيئا منها فى ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات . وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير فإنه ذكر فيه ما لحق دريداً من الهجنة والفضيحة فى أصحابه وقتل من قتل

---

(١) ١٤٦ / ٥ أغانى . بولاق .
(٢) ٥٣ / ١١ أغانى سامى
(٣) ٨٨ / ٣ أغانى بولاق
(٤) ١٣٥ / ٥ المصدر السابق
(٥) ١٦١ ، ١٦٢ / ٥ المصدر السابق

معه وانصرافه منفرداً وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفر ببني الحرث وقتل أماثلهم [١] . »

٤ — المذهب الفنى وذلك من مثل قوله تعقيبا على رواية لأبى الزعراء « ما أظن أبا الزعراء صدق فيما حكاه لأن العلماء من رواة الشعر رووهما ليزيد بن الحكم . وليس كذلك لكونه معلوما أنه ليس لطرفة ولا موجودا فى شعره على سائر الروايات ولا هو أيضا مشبها لمذهب طرفة . . [٢] » ومن مثل قوله عند ترجمته للسيد الحميرى « وما وجدنا ذلك فى رواية محصل ولا شعره أيضا من هذا الجنس ولا فى هذا المذهب لأن هذا شعر ضعيف يتبين التوليد فيه وشعره فى قصائده الكيسانية مباين لهذا جزالة ومتانة وله رونق ومعنى ليسا لما يذكر عنه فى غيره [٣] . » ومن مثل قوله « ونسخت من كتاب أحمد بن سعيد الدمشقى خبر الأخوص مع سلامة التى ذكرها فى هذا الشعر وهو موضوع لا أشك فيه لأن شعره المنسوب إلى الأحوص شعر ساقط سخيف لا يشبه نمط الأحوص والتوليد بين فيه يشهد على أنه محدث والقصة أيضا باطلة لا أصل لها ولكنى ذكرته فى موضعه على مافيه من سوء العهدة . . . [٤] »

٥ — الثقة بالرواة أو عدم الثقـــة بهم وذلك من مثل موقفه من مرويات نصر بن مزاحم ومرويات على بن محمد بن سليمان النوفلى عنـد حديثه عن السبب فى خروج أبى السرايا فانا نراه يقول عن مرويات على (فربما ذكرت الشيء اليسير منها والمعنى الذى يحتاج إليه لأن على بن محمد كان يقول بالأمامة فيحمله التعصب لمذهبه على الحيف فيم يرويه ونسبة من

---

(١) ٩/١٩ المصدر السابق (٢) ١١/١٠٠ أغانى . ساسى
(٣) ٧/٥ المصدر السابق (٤) ٨/٨٩ المصدر السابق

روى خبره من أهل هذا المذهب إلى قبيح الأفعال وأكثر حكاياته فى ذلك بل سائرها عن أبيه موقوفا عليه لا يتجاوزه وأبوه حينئذ مقيم بالبصرة لا يعلم بشىء من أخبار القوم إلا ما يسمعه من ألسنة العامة على سبيل الأراجيف والأباطيل فيسطره فى كتابه عن غير علم طلبا منه لما شان القوم وقدح فيهم .

فاعتمدت على رواية من كان بعيدا عن فعله فى هذا وهى رواية نصر ابن مزاحم إذ كان ثبتا فى الحديث والنقل ويظهر أنه ممن سمع خبر أبى السرايا عنه . قالوا . . (١) الخ) ومن مثل موقفه مع محمد بن على بن حمزة عند حديثه عن مقتل عبيد الله بن الحسين حيث نراه يقول (ذكر محمد ابن على بن حمزة أن أبا مسلم دس إليه سما فمات منه ولم يذكر ذلك يحيى بن حسن العلوى ووصف أن عبد الله مات فى حياة أبيه . وقد كان يحيى حسن العناية بأخبار أهله . ولعل هذا وهم من محمد بن على بن حمزة (٢) »

٦ — وقد يعتمد أبو الفرج فى ترجيحاته للروايات على أمور أخرى كالفلك وذلك من مثل موقفه من الروايات الواردة فى إسم اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فإنا نراه يقول . (فأما ما تقوله العامة أنه قتل يوم الاثنين فباطل وهو شىء قالوه بلا رواية وكان أول المحرم الذى قتل فيه يوم الأربعاء أخرجنا ذلك بالحساب الهندى من سائر الزيجات وإذا وإذا كان ذلك كذلك فليس يجوز أن يكون اليوم العاشر يوم الإثنين (٣)

هذه هى الأسس التى يقيم عليها أبو الفرج التصحيحات والترجيحات وهى تشعرنا بأن أبا الفرج كان يملك عدة المؤرخ وأنه لو حاول أن يكونه

---

(١) ٤١٨ مقاتل الطالبيين . مصر (٢) ١٨٠ المصدر السابق
(٣) ٧٨ مقاتل الطالبين . مصر

فقط؟ لكنه ولكنه أراد أن يكون الراوية الذى لا يفوته من المرويات ما يعرفه الناس وما يتداولونه ومن هنا كان همه الأول الجمع ولم يقف للنقد إلا فى المواطن القليلة .

وإذا كان هناك من كلمة نقولها فى هذا الموطن فهى أن أبا الفرج فى كتاب الأغانى راوية وأنه فى كتاب المقاتل ينزع إلى أن يكون من المؤرخين ولعل السر فى ذلك أنه فى الكتاب الأول يسرد من الأخبار ما يمتع ويؤنس لأنه كتاب يجمع من الأخبار ما كان فى الغالب من الأسمار والنوادر وقد كان القصد منه أيضاً إلى السمر وإلى الامتاع والمؤانسة ومن هنا جمع أبو الفرج كل ما يؤنس ويمتع وجعل ذلك شرط الاختيار فى مقدمة الكتاب . أما فى المقاتل فقد كان يروى أخباراً سياسية وقد كانت هذه الأخبار هى المواد الأولى لكل من يريد أن يكون من المؤرخين وقد كانت قديما اللبنات الأولى التى يبنى منها التاريخ .

ولعل مما ساعد على هذا قصر المدة الزمنية فى كتاب المقاتل ووضوح الأحداث وضوحا حال بينها وبين أن تكون محل عبث كبير من الرواة والمؤرخين . ثم هى إلى جانب ذلك من الأخبار الدينية المذهبية التى تهتم بها الجماعات الدينية وتحرص عليها وتعتبرها عنصرا فعالا فى مقوماتها وفى مقاومتها لمن يخالفها فى المذهب من رجال السياسة ورجال الدين .

الخاتمة

هذا هو بحث أبي الفرج الراوية قصـــدت منه إلى أمرين . الأول الكشف عن هذه الشخصية التي يعتبرها بعض الباحثين من أعظم الشخصيات في القرن الرابع الهجري والتي وقف أمامها الباحثون حيارى لغموضها ولقلة ما يدور حولها من أخبار حتى لقد أعلن المجمع اللغوي عن جائزة مقدارها مائتان من الجنيهات لمن يقدم بحثا عن هـذه الشخصية ولعله أن يكون من العجب أن لم يقدم أو لم ينل الجائزة إنسان .

هذه الشخصية الاخبارية تكاد تكون أعظم شخصية اخبارية في القرن الرابع الهجري وحسبك أن يقول عنها ابن خلدون في مقدمته (وقد ألف أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في مائة الصوت التي اختارها المغنون للرشـــيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري أنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم من كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه . وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأني له بها [1]) .

هذه الشخصية ظلت مجهولة أو كالمجهولة حتى الآن ومن هنا كان لابد من الكشف عنها والوقوف على شيء من أحوالها وظروفها وما وصلت

---

(١) ٥٠٦ مقدمة ابن خلدون . ط . بيروت

إليه من علم ومعرفة وما كانت عليه من خلق ومزاح وما جرت عليه من تقاليد وعادات فكرية فى تأليف الكتب وفى تصنيف المرويات . ولقد فعلت الكثير من هذا حتى ليخيل إلى أنى قد أضفت جديداً إلى العلم وحتى لأعتقد أنى قد أتيت بما يفيد .

الأمر الثانى : أمر منهجى فلقد حرصت فى هذا البحث على أن أسلك سبيل المؤرخين الذين يحرصون الحرص كله على تطبيق المناهج التاريخية تطبيقا يحول بين الانسان وبين الزلل ويعصمه من الخطأ وينتهى به إلى نتائج محققة بالقدر الذى تسمح به ما بين يديه من أخبار . ومن هنا كانت أولى الخطوات الأعراض عن ذلك التخطيط الذى يفرضه التقليد أو يفرضه المنطق النظرى على الباحثين وهو تخطيط يضر أكثر مما يفيد كما ذكرنا عند حديثنا عن التأليف والتصنيف .

ثم كانت الخطوة الثانية جمع المواد ونقدها لفصل الزائف عن الصحيح والانتهاء من ذلك إلى الصورة التى رسمها لهذه الشخصية التاريخ .

وإذا كان لابد من الحديث عن بعض الملامح والقسمات التى كشفنا عنها أو أزلنا ما كان يعلوها من غموض وابهام والتى نستطيع أن نعتبرها من حسنات ذلك المنهج التاريخى فهى التالية :

١ — التحقيق التاريخى وبخاصة ذلك الذى يكشف عن سنة الوفاة وذلك الذى يدور حول أصبهان أو المولد والذى يدور حول علاقة أبى الفرج بسيف الدولة ومسألة إهداء الكتاب .

٢ — الكشف عن أسرة الأم وعن حياة أسرة الأب وبيان ما خلفته كل منهما فى أبى الفرج من ميول ومن آراء ومعتقدات .

٣ — الكشف عن الأساتذة الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم ووجهوا

حياته وجهات معينة وتوضيح ما لكل منهم من أثر حتى ذلك الذى يكون فى الخلق والمزاج .

٤ — الحديث عن الحياتين العقلية والفنية وهو حديث يكشف لنا عن أبى الفرج المثقف وأبى الفرج الفنان .

٥ — بيان واف لموقف أبى الفرج من تقاليد الرواة وبخاصة فيما يتعلق بالعدالة وبالضبط وبالسند . وتوضيح للعوامل المختلفة التى جعلت أبا الفرج يجنح فى روايته للأخبار إلى سبيل الرواة .

والآن أضع هذا البحث بين يدى القارىء وأضع صورة أبى الفرج كما استطعت الوقوف عليها وهى شخصية الرجل الذى أراد أن يكون راوية فكان. ومن هنا يحسن بنا أن نعتقد دائما أن مرويات أبى الفرج مصدر من مصادر التاريخ وليست هى التاريخ .

ولقد وقفنا على ما لأبى الفرج من ميول وأهواء فيجب أن نحذر هذه الميول وهذه الأهواء كلما حاولنا الاعتماد على ما خلف الرجل من مرويات فقد يكون الرجل مضللا وقد يكون صاحب غرض وهوى وليس يخفى أن للأهواء حكمها فى التاريخ وهو حكم قد يملى رغبته لا فى ذكر الأخبار فحسب وإنما أيضا فى الكتمان.

المراجع

١ ٢٦ أما المرجعان الأول والثانى فهما من كتب أبى الفرج وأولها الأغانى وثانيهما مقاتل الطالبيين وقد قرأت كل واحد منهما أكثر من مرة وقرأته فى أكثر من طبعة قرأت الأول فى طبعته الأولى بمطبعة بولاق وفى طبعته الثانية على نفقة الساسى ورجعت فى بعض الأحيان إلى الطبعة الأخيرة طبعة دار الكتب لأحقق بعض النصوص وأقابلها عليها كما كنت أرجع أيضا فى بعض الأحيان إلى بعض النسخ المصورة وبخاصة فيما يتعلق بمسألة محمد بن الحسين الكندى وكونه مؤدب أبى الفرج الأصفهانى .

وقرأت الثانى فى طبعته الثانية ببغداد وفى طبعته الثالثة بالقاهرة . وإذا كنت قد أثبت نصوص البحث فى الغالب عن أغانى الساسى وعن مقاتل الطالبيين طبعة مصر فليس ذلك إلا لأن هذه هى الطبعات التى أملكها والتى كنت أراجع الفيشات أو الجوازات عليها حين إثبات النص فى البحث .

وقد يكون من المفيد أن أثبت هنا أنى أعتقد أن كتاب الأغانى الموجود بين أيدينا الآن ليس بحالته التى تركه عليها أبو الفرج وأنه قد أصابه بعض الخلل والاضطراب وإذا كان الحديث عن الكتاب وتأريخه ليس من موضوع البحث إلا أنى أضع بين يدى القارىء بعض الملحوظات .

أولا — ذلك الاختلاف الذى نجده بين النسخ الموجودة وهو اختلاف لا يرجع فقط إلى زيادة بعض الأخبار أو نقصانها فى ترجمة بعض الأشخاص وانما يرجع أيضا إلى ترجمات بتمامها لبعض الأشخاص فمن النسخ من يقف عند الجزء العشرين ومنها من تضم إليه جزءا آخر ومنها

من يحمل بعض أجزائها رقم الجزء الرابع والعشرين ونظرة واحدة إلى نسخة مكتبة فيض الله وهى مصورة فى مكتبة معهد المخطوطات بالجامعة العربية ترينا مدى هذا التفاوت وإلى أى حد يكون هذا الاختلاف .

ويظهر أن هذا الاختلاف قديم فقد تحدث ياقوت عند ترجمته لأبى الفرج وعند حديثه عن الكتاب وكتابته نسخة منه واعتماده عليه فى تأليفه كتابه المرسوم بأخبار الشعراء عن هذا الخلل الذى أصاب الكتاب وانتهى منه بقوله : وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شىء أو يكون النسيان قد غلب عليه والله أعلم .

بل يظهر لنا أن هذا الاختلاف أقدم من ذلك الأمر الذى يوحى به هذا النص المروى على أنه من أحاديث المهلبى عن كتاب الأغانى وهو : سألت أبا الفرج فى كم جمعت هذا الكتاب فقال فى خمسين سنة ثم تعقيبة الناقل لهذا الخبر والمثبت له فى مقدمة ما انتخبه من الكتاب إلى سيف الدولة . قال : وإنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة . فان هـــذا القول يصل بنا مع أشياء أخرى إلى أن الخلل الذى أصاب الكتاب إنما يرجع إلى عهد سيف الدولة بن صدقة وإليك البيان:

لقد رأيت فى الفصل الأخير من الباب الأول حديثى عن ابن الخازن وسيف الدولة صدقة وكيف فسر المؤرخون الحسين بن على بن الحسين بالوزير المغربى وسيف الدولة هذا بسيف الدولة الحمدانى . ورأيت أنا حاولنا أن ننفى ما شاع من أن أبا الفرج قد أهدى كتابه إلى سيف الدولة الحمدانى وأن النسخة التى دفعت إلى هذا الرأى الأخير ليست إلا نسخة سيف الدولة صدقة التى كتبها له ابن الخازن .

ولقد رأيت أيضا أن ناسخ هـذه النسخة قد كتب فى مقدمتها ذلك

الكلام الذى يشعرنا بأن الكاتب أو الناسخ كان يعتقد أن أبا الفرج لم يترك من كتاب الأغانى إلا نسخة واحدة

أعتقد أنه من السهل أن نمضى سويا فى تفسير المسألة على هـــذا الأساس .

كتب ابن الخازن النسخة لسيف الدولة صدقة وقد كانت النسخة الوحيدة فى البيئة العراقية فى ذلك الوقت .

حدث أن نهبت خزانة سيف الدولة وأحرقت كما سبق أن أشرنا فى الفصل الأخير من الباب الأول نقلا عن ابن الأثير وكان مما وجد من كتبها بعد النهب والحريق نسخة ناقصة مشوهة من كتاب الأغانى ومن هنا أصاب الخلل والاضطراب هذا الكتاب .

على أنك قد تسأل وإذاً فكيف جاء الكتاب بهذا الحجم الذى يقرب مما وصفه به المؤرخ المعاصر لأبى الفرج وهو ابن النديم ؟

هنا أستطيع أن أقول أنى أرى أن الناسخين قد ضموا كثيرا من مرويات أبى الفرج فى كتبه الأخرى إلى مروياته التى بقيت من كتاب الأغانى وأن هذه المرويات جميعها هى التى كانت منها هذا الأغانى الذى بين أيدينا الآن .

وقد تسألنى وما الدليل ؟ فأقول أن هناك بعض القرائن وهى أن فى كتاب الأغانى بعض الفصول التى لا تمنع من أن تكون من مرويات أبى الفرج وتمنع من أن تكون من كتاب الأغانى لأنها خارجة عن موضوع الكتاب وأستطيع أن أضرب لذلك مثلا بهذه الفصول .

١ — حديثه عن يوم رحرحان ذلك الحديث الذى يعنون له بقوله فى ٣٠ / ١٠ ساسى .

ونذكر ههنا خبر رحرحان ويوم قتله إذ كان مقتل الحرث وخبره خبرهما. فانه عنوان يشعر بأن هذا الحديث ليس من موضوعات الكتاب وأنه قد قسر فيه قسرا ولعل ختام الحديث بقوله ٣٣ / ١٠ تم والحمد لله رب العالمين مما يشعر بأن هذا الحديث منقول عن كتاب أبي الفرج أيام العرب فليس من عادة أبي الفرج فى كتاب الأغانى أن يختم أخباره بمثل هذه الجملة .

وكذلك حديثه عن يوم شعب جبله من ٣٣ / ١٠ فانه ليس من موضوعات هذا الكتاب التى تطلب لذاتها وقد ختم الحديث أيضاً بالجملة السابقة تم اليوم والحمد لله

هذه فصول أردت بها ضرب المثل ولم أرد بها إلى البحث والاستقصاء فان لذلك بحثا آخر عن كتاب الأغانى وتاريخه ليس هنا محله .

والآن نستطيع أن نترك هذين المصدرين من مصادر البحث إلى غيرهما من المصادر وإن كنا نحب أن نلفت الذهن إلى أنا عثرنا على نصوص منقولة عن كتاب لأبى الفرج فى معجم الأدباء وذلك هو كتاب أدب الغرباء كما عثرنا على نصوص له شعرية فى عيون التواريخ لابن شاكر وفى الفخرى فى الآداب السلطانية وفى يتيمة الدهر للثعالبى إلى جانب شعره فى معجم الأدباء .

الكتب الادبية

أو كتب التاريخ الأدبى والأدب

١ — الثعالبى	يتيمة الدهر
٢ — المرزبانى	معجم الشعراء
٣ — ابن عبد ربه	العقد الفريد

٤ — ابن سلام	طبقات الشعراء
٥ — أبو عبيدة	النقائض
٦ — ياقوت	معجم الأدباء
٧ — الآمدى	المؤتلف والمختلف
٨ — البغدادى	خزانة الأدب
٩ — أبو القاسم الأصفهانى	إيضاح المشكل من شعر المتنبى
١٠ — الشنقيطى	تصحيح كتاب الأغانى
١١ — ابن قتيبة	عيون الأخبار
١٢ — التنوخى	نشوار المحاضرة
١٣ — البحترى	ديوان البحترى
١٤ — ابن زاكور	تزيين قلائد العقيان بفرائد البيان — شرح قلائد العقيان
١٥ — التنوخى	المستجاد من فعلات الأجواد

٢ — كتب شروط الرواة والمؤرخين

١ — ابن خلدون	المقدمة
٢ — السخاوى	الاعلان بالتوبيخ
٣ — الخطيب	الكفاية فى علم الرواية
٤ — ابن الصلاح	مقدمة ابن الصلاح
٥ — السيوطى	المزهر
٦ — حسن عثمان	منهج البحث التاريخى
٧ — أسد رستم	مصطلح التاريخ
٨ — النووى	التقريب

٣ — الكتب التاريخية

١ — الطبرى	تاريخ الرسل والملوك
٢ — عريب	صلة تاريخ الطبرى
٣ — ابن مسكويه	تجارب الأمم
٤ — اليعقوبى	تاريخ اليعقوبى
٥ — المسعودى	مروج الذهب
٦ — ابن الفرات	تاريخ الدول والملوك مصورة رقم ٣١٩٧ دار الكتب
٧ — أبو الفداء	تاريخ أبى الفداء
٨ — المقريزى	الخطط
٩ — ابن خلدون	مقدمة ابن خلدون وكتابه فى التاريخ
١٠ — المقرى	نفح الطيب
١١ — ابن طباطبا	الفخرى فى الآداب السلطانية
١٢ — بروكلمان	تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة دار العلم للملايين
١٣ — ابن الأثير	الكامل
١٤ — ميخائيل عواد	أقسام ضائعة من تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء
١٥ — نولدكه	أمراء غسان . الترجمة العربيـــة (بيروت الجامعة الأمريكية)

٤ — كتب تاريخ الرجال

١ — ابن النديم	الفهرست
٢ — أبو نعيم	أخبار أصفهان
٣ — الخطيب	تاريخ بغداد
٤ — ابن خلكان	وفيات الأعيان
٥ — الذهبي	تاريخ الإسلام الكبير مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب
٦ — ابن شاكر	عيون التواريخ . مخطوطة رقم ١٤٩٧ دار الكتب
٧ — ابن العماد	شذرات الذهب
٨ — الذهبي	ميزان الاعتدال
٩ — ابن حجر	لسان الميزان
١٠ — الصفدي	الوافي بالوفيات . مصورة رقم ١٢١٩ تاريخ دار الكتب
١١ — أعيان الشيعة	أعيان الشيعة
١٢ — خير الدين الزركلي	الأعلام
١٣ — الطوسي	الفهرست
١٤ — النجاشي	الرجال
١٥ — ابن الجوزي	المنتظم مصورة رقم ١٢٩٦ تاريخ دار الكتب
١٦ — الزبيدي	طبقات النحويين . نسخة خاصة نقلا عن نسخة نور عثمانية باستانبول ٣٣٩١ مكررة
١٧ — محمد باقر	روضات الجنات

٥ — كتب عامة

١ — طاشكبرى زاده — مفتاح السعادة

٢ — ابن حزم — الجمهرة

٣ — آدم متز — الترجمة العربية . الحضارة الإسلامية

٤ — البكرى — معجم ما استعجم

٥ — أغا بزرك الطهرانى — الذريعة إلى تصانيف الشيعة

٦ — ياقوت — معجم البلدان

فهرس الكتاب

المقدمة . ١ب

التمهيد . ١ — ١٠

الباب الأول

العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج

الفصل الأول : (ا) الحدود الزمانية ١١ — ١٧

(ب) الحدود المكانية . ١٧ — ٢٦

الفصل الثانى الأسرة وما لها من أثر

(ا) أسرة الأب . ٢٧ — ٤٣

(ب) أسرة الأم ٤٣ — ٥٠

الفصل الثالث : الجو المدرسى ٥١ — ٧١

الفصل الرابع : الخلطاء ٧٢ — ٨٢

الفصل الخامس : رجال السياسة ٨٣ — ١٠٢

الباب الثانى

حياة أبى الفرج

الفصل الأول : إصبهان وسر من رأى . ١٠٣ — ١١١

الفصل الثانى : الكوفة ١١٢ — ١٢٢

الفصل الثالث : بغداد ١٢٣ — ١٤٠

الفصل الرابع : الحياة المادية . ١٤١ — ١٥٠
الفصل الخامس : الحياة الإعتقادية والمذهبية . ١٥١ — ١٦١
الفصل السادس : الحياة الخلقية ١٦٢ — ١٧٠
الفصل السابع : الحياة العقلية ١٧١ — ١٨٨
الفصل الثامن : الحياة الفنيـة ١٨٩ — ٢٠٩

البَابُ الثَّالث

الرواية عند أبي الفرج

الفصل الأول : أبو الفرج وهل هو من الرواة ؟ ٢١٠ — ٢١٨
الفصل الثانى : مرحلة التحمل . . . ٢١٩ — ٢٥٢
الفصل الثالث : مرحلة الضبط ٢٥٣ — ٢٥٨
الفصل الرابع : مرحلة الأداء ٢٥٩ — ٢٧٣
خاتمـــه . ٢٧٤ — ٢٧٦
المراجع . ٢٧٧ — ٢٨٤

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الصواب
٦	٧	وإثبات المستقيم ولم
٧	٧	والثانى فى كتابه
٨	١١	خلفوا ماخلفوا
٨	١٤	ونردد ما يروون
٨	١٥	فأن ذلك سيؤدى
١٦	٦	من الخراب
١٦	١٠	تلك الغلبة
٢٣	١٣	يعزى جعفر بن على
٢٤	٧	يخص أبا المعتصم
٢٤	هامش ١	معجم الشعراء للمرزبانى
٢٥	٢	عندى القرا
٢٧	١٦	يبدأ تاريخها
٣٢	١٠	وذا قمددهم
٤١	٨	هذا سرقه
٥١	٤	يجادل فيها
٥٦	١٦	يقرأ لهم كتابا
٦٩	٧	الكتاب التاجى
٩٧	٤	هما شخصيتا
١٠١	١٤	وإن كان أبو الفرج
١٠٥	١٥	بلها وغلوا
١٢٨	١	تردد
١٢٨	١٤	أخذ عن
١٢٩	١٧	الدراسة . المساجد
١٣٤	١٦*	فى كتابى الأغانى
١٣٤	٢٣	أتبعته
١٤٠	١٠	نترك الآن أبا الفرج

يظهر قريبا :

الكتاب التالى للمؤلف

وهو

أحمد فارس الشدياق

وأثره فى اللغة والأدب

مكتبة ومطبعة نهضة مصر

المركز الرئيسى : ١٨ الفجالة . القاهرة

تليفون ٥٠٨٢٧

المكتبة : أكبر المكاتب فى الشرق لتوريد الكتب والأدوات المدرسية

المطبعة : أرقى المطابع المصرية لتزويد المكتبات والأفراد والشركات بمختلف المطبوعات مع الإتقان والسرعة ودقة المواعيد